مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٢٩٥ . ربيع الأول ١٤٣٣ هـ . فبراير ٢٠١٢ م

متضامنون
من أجلها...!

الشيخ الدكتور حارث الضاري:
المقاومة العراقية البدر المنير
في سماء العراق المظلمة

أ.د ناصر العمر كلمات في المنهج

فتنة الحوثي مع دمَّاج
بين الماضي
والحاضر

الرأي العام
وعلاقته بالسياسة الشرعية

الشعب اختار هويته الإسلامية

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

bayan@albayan.co.uk

مستشفى أبها الخاص
Abha Private Hospital

http://www

الآن...
موقعنا الإلكتروني
في ثوبه الجديد

www.aph.med.sa

- ☑ الحجز
- ☑ الأطباء
- ☑ التخصصات الطبية
- ☑ الاتصال ....

كلها الآن على موقعنا الإلكتروني

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف المجاني: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
خدمة العملاء مباشـــر: ٢٢٥١٩٦٧

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

المـوزعـــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطـر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمـن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجـامعة القـديمة، هـــاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسـية للصحـافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمـد بـن عبـد الرحمـن الصـويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عـبد الله بن سـليمان الفـراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العـزيز العـامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوســف بن صـالح الصـغير
فـهـد بـن صـالـح العـجـلان
د. أحمـد بـن عـبد المحسن العسـاف
فيصـل بـن علـي أحمـد الكـاملي

سكرتير التحرير
إســلام السيــد علــي

الإخراج الفني
مـحـمـد سـالـم لـرضـي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٤ **مـتـضـامـنـون مـن أجـلـهـا...!**
التحرير

العقيدة والشريعة

٦ **الفقه التطبيقي** د. هاني بن عبد الله الجبير

السياسة الشرعية

١٢ **الرأي العام: مفهومه - مكانته - دوره وعلاقته بالسياسة الشرعية**
محمد بن شاكر الشريف

بلغوا عني ولو آية

١٨ **السلاح الأمضى في (حرب الأفكار) ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾**
د. عبد العزيز كامل

كلمات في المنهج

٢٢ **﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾**
أ. د. ناصر بن سليمان العمر

قضايا تربوية

٢٦ **قـواعـد الـتـربـيـة الـنـاجـحـة**
نادر محمد العريقي

معركة النص

٣٠ **قصة العلمانية التي لا تعارض الإسلام**
فهد بن صالح العجلان

مسارات فكرية

٣٤ **التداول الحداثي لنظرية المقاصد... دراسة نقدية (٢)**
سلطان العميري

حوار

٣٨ **حـوار مـع الـشـيـخ الـدكـتـور حـارث الـضـاري**
أجرى الحوار: حارث الأزدي

نص شعري

٤٤ **إلَهَنَا...!**
أسامة المحوري

المسلمون والعالم

٤٦ الشعب اختار هويته الإسلامية واستقلال إرادتها السياسية — محمد جمال عرفة

٥٠ حصاد الثورة الليبية — د. علي رحومة المحمودي

٥٦ فتنة الحوثي مع دماج بين الماضي والحاضر — د. محمد بن موسى العامري

٦٤ التدخل الأجنبي في الثورات العربية — أ. د. علاء الدين الأمين الزاكي

٦٨ الحركات الإسلامية... ولعبة الزعيم — طلحة محمد المسير

٧٢ فلسطينيو العراق بين المطرقة والسندان — أيمن الشعبان

٧٨ مرصد الأحداث — جلال سعد الشايب

خاطرة أدبية

٨٣ الانتقام — جميلة بحر

عين على العدو

٨٤ ماذا يقف خلف إعادة هيكلة الجيش الصهيوني من جديد؟ — د. عدنان أبو عامر

قصة قصيرة

٨٦ القطيع — محمود حسين عيسى

في دائرة الضوء

٨٨ نحو جيل يقرأ ويكتب — د. العربي محمد الإدريسي

بأقلامهن

٩١ السخرة الفكرية ثمرات الاحتلال الفكري بين الغزو الفكري والاحتلال العسكري — رحاب حسان

الورقة الأخيرة

٩٤ كلمات في المصطلحات — د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

[كلمة صغيرة]

أيُهدَم الأقصى؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

يخيَّل للمرء المتأمل في السياسة الإسلامية والعربية الصامتة إزاء الكيان الصهيوني، أننا سنستيقظ ذات صباح على خبر عاجل تتناقله وسائل الإعلام عن وقوع تفجير في المسجد الأقصى يأتي عليه!

حينما نسمع أخباراً ذاتَ مدلول خطير تمرُّ دون موقف يرتقي لمستواها، فإننا نجد أن هذا الأمر - لا سمح الله - يمكن أن يحدث في ظل شعور البلادة والخزي والانكسار الذي أصبح ديدن حكوماتنا أمام سياسات الدولة الصهيونية الاستيطانية في المدينة المقدسة؛ فلم تستوطن في الأرض فقط، بل هدمت المساجد في الأغوار والجليل وحيفا وحوَّلت بعضها إلى خمَّارات ونوادٍ رياضية وصالات ألعاب.

وفي غزة لم ننسَ أن طائراتهم هدمت عشرات المساجد دون أن نجد موقفاً مشرِّفاً يرتقي لمستوى الجرم الذي ترتكبه حكومة بني صهيون.

أيعقل أن تُنتَهَك محارمنا ونحن نتأمَّلها وكأنها مسلسل درامي نستمتع بمشاهدته؟

أيعقل أن تنفَق عشرات الملايين على بعض المساجد في الدول العربية، ومساجد فلسطين التي أوقفها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للمسلمين تُهدَم ولا تجد من يعمرها؟

قبل أيام قالت صحيفة «هآرتس»: إن المرجعية الدينية للجيش الصهيوني وزَّعت صوراً على الجنود لساحات المسجد الأقصى، وظهرت فيها صورة لحائط البراق دون المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وعلق الجيش الصهيوني قائلاً: «إنها وصف للقدس في عهد الهيكل الثاني».

نأمل أن يعيد الربيع العربي لنا شيئاً من كرامتنا.

ونأمل ألا تنسينا أحداث الربيع العربي المحلية، مؤامرات الصهاينة لهدم وتدنيس مساجد فلسطين، وعلى رأسها المسجد الأقصى!

متضامنون من أجلها...!

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

لسنا بحاجة لتكرار الحديث عن مكانة المرأة أو تكريمها في كتاب ربنا وسُنة نبينا ﷺ الذي كانت ذريته الباقية من البنات، وأوَّل من آمن به زوجه، ومات بين يدي امرأته، وأوصى بالبنات خيراً، فضلاً عن تنزُّل الوحي بسور كريمة وآيات شريفة تخص المرأة في كافة مراحل عمرها وجميع شؤونها الحياتية، إضافة إلى مشاركتها الرجل في أكثر نصوص الوحيين الشريفين وأحكامهما.

ومع كثرة ما تخطه الأقلام، وتتناوله المنابر، وتزدحم به التغريدات عن المرأة وحقوقها وواجباتها، وما يراد لها ومنها، وما يحاك ضدها أو يخطَّط لها؛ إلا أنه يجب علينا عدم الاكتفاء بما مضى من جهاد وبيان، والاستمرار في العمل قولاً وفعلاً حتى تكون المرأة في الحال التي أرادها الله لها أمراً كما هي قدراً، وحتى لا تقع النساء في المستنقعات الآسنة التي يجرُّها إليها مَنْ يصنعون لها من الوهم أو الحالات الشاذة قضية كبرى، أو يحتالون عليها بتضخيم الصغائر وخلخلة ترتيب الأولويات.

«وقد كتب الكثير عن المرأة (أنصاراً وخصوماً)، ومن مختلف النواحي؛ إلا أن القلم يجب ألا يجف حتى تعود المرأة إلى طبيعتها وإلى وظيفتها في الحياة، وحتى تعرف المجتمعات وضعها السليم»[1].

ومن المتعين على أخيار الأمة أن يربطوا الحديث عن حقوق المرأة وواجباتها بالنصوص الشرعية المقدسة، إضافة إلى مقاصد الشريعة وكلِّيَّاتها؛ فهي الأساس الذي ينبني عليه شأن المسلم رجلاً كان أم امرأة، وإن توافقت المواثيقُ والعهودُ الدولية مع هذه النصوص والمقاصد، وتلك الحقوق والواجبات، فذاك شرف لواضعيها، وتُقبَل على أنها تابعة لأمر الله منقادة له، وإذا عارضتها فعرض الحائط أَوْلَى بها! فنحن قوم لا نعطي الدنية في ديننا.

وربط شؤون المرأة المسلمة وقضاياها بنصوص دينها أمر تقتضيه العبودية لله رب العالمين، حتى لا تكون نساء المجتمع المسلم كحال بعض النساء الكافرات: «صواحب الشوارع، يستسلمن لكل مغرض، يُخالِلْن من الرجال ماشئن، ساقطات وقحات ذاهبات الحياء، أمهات لقطاء، مفصولات عن أولادهن، منهكات بالجري وراء العمل، تعيسات شقيات»[2]، وحتى لا نسمع في مجتمعات المسلمين عن «الأمهات العزباوات» و «بنات الهوى»، ويالها من تسميات تقشعر لها أبدان ذوي المروءة والشهامة.

إن العمل الذي ينوء به المصلحون من الجنسين لأجل بنات حواء لا يستثني أحداً من النساء؛ فهو للمرأة الكبيرة كما هو للفتاة الشابة، وهو للمريضة والصحيحة، وللجدة والأم والزوجة والبنت والأخت، وللعجوز الهرمة كما هو للطفلة الصغيرة، وللجميلة وغير الجميلة، وبذلك يتفوق هذا الجهد الصادق على الدعوات المريبة التي يطلقها مَنْ في قلبه مرض، ويحصرها في المرأة الشابة

(١) نقلاً عن عبد الله التليدي: المرأة المتبرجة وأثرها السيئ في الأمة، ص٦، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ.

(٢) نقلاً عن عبد الله التليدي: المرأة المتبرجة وأثرها السيئ في الأمة، ص١٥١، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ.

الجميلة، ليخرج بهذا الحصر مَنْ عداها ممن لا تشتهيها نفسه!

«إن الإصلاح الإسلامي المحمدي يقضي بأن يكون لكل امرأة كافل شرعي يكفيها كلَّ ما يهمُّها لتكون بنتاً مكرَّمة، فزوجاً صالحة، فأمّاً مربِّيَة، فجدَّة معظَّمة، ومن حُرِمَت الزوجية أو الأمومة، لم تُحرَم الكفالة والكرامة...»[1].

لقد حاول فئام من أبناء جلدتنا العبث بعالم المرأة من خلال قواعد لا يقرُّها دين ولا منطق، وبَنَوا مآربهم على قاعدة المساواة التي تأباها الفطر السليمة، وتنسفها الطبيعة الحيوية لخُلُق الرجل والمرأة، فضلاً عن الفروقات المعنوية بين الجنسين، وقد حسم القرآن الكريم هذه المسألة على لسان امرأة صالحة من بيت اصطفاء ونبوة حين قال - سبحانه -: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٦].

ولا يعني فجور المفسدين في الخصومة أن نغمض أعيننا عن واقع المرأة المسلمة وما تحتاجه؛ فالمرأة في بعض المجتمعات تقع أسيرة عادات ما أنزل الله بها من سلطان، أو تُلزَم بفهم خاطئ لنصوص الشريعة الغراء، وفي المقابل قد تقع المسكينة تحت تسلُّط مَنْ يريد بها السوء من جميع أطرافه، وقد تُحرَم من حقوقها الطبيعية في الزواج والأمومة، والمال والمشاركة الاجتماعية، إضراراً بها أو حُمْقاً ممن يتولى أمرها؛ ثم لا تجد نصيراً لها تأمَنُه، وقد يطول بها الطريق إلى أن تنتزع حقها الشرعي، وفي الحديث الحسن عند ابن ماجة مرفوعاً: «اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»، وفي هذا التحريج من التحذير والزجر ما يكفي لأن يمتنع الرجال عن ظلمها، وأن يحتسب الأخيار في الدفاع عن حقوقها الشرعية.

وعلى كل قادر واجبٌ تجاه هذا الأمر بحسبه؛ فعلى المفتين والعلماء والدعاة العناية بموضوع المرأة وحقوقها، وتصحيح الفهم الخاطئ لبعض الأحكام الشرعية الخاصة بالمرأة كالشهادة والميراث؛ حيث تتساوى المرأة مع الرجل في بعض الصور، وتصير نصفَه في صور أخرى، وليس في هذا الحكم الشرعي انتقاص منها، وإنما مراعاة لحكمها القدري، وحكم الله القدري للمرأة صفة كمال لها؛ لأن الله أعلم بها؛ ومن أراد إخراجها من هذه الخصوصية فقد أضرَّ بها وبالغ في العدوان عليها. ومما نأمله من المجامع الفقهية ولجان الفتوى أن تعيد النظر في مستجدات المرأة، بما يجعل الفتوى الشرعية الخاصة بالنساء واضحة ومراعية للمتغيرات دون تمييع أحكام الشريعة أو تغيير ثوابتها.

وفي عنق خطباء الجمعة الذين تشرئب لهم أعناق الناس كل أسبوع واجب حتمي القضاء تجاه المرأة، وذلك بالخطابة عن حقوقها وواجباتها والأحكام المتعلقة بها، وتصحيح مفاهيم الناس حول القوامة التي طاشت إفراطاً أو تفريطاً، وحثِّ الرجال على الرفق بالمرأة، وتسهيل زواج الفتاة، وإحسان تربية البنات، وإن الحرائر قعيدات البيوت لَيَتُقْنَ إلى سماع الخطباء وهم يتحدثون عنهنَّ، ويوصون المسلمين بهن خيراً، كما فعل سيد الخلق ﷺ في غير ما موضع.

ومن الجهاد العملي أن يشارك الحقوقيون الشرفاء في تطوير الأنظمة المحلية المتعلقة بالمرأة بما يتوافق مع أحكام الإسلام، إضافة إلى الدفاع عن المرأة المسلمة في المحافل الدولية التي تضغط على بلاد المسلمين لفرض أحكامها المتعلقة بالمرأة والأسرة والطفل وتبديل حكم الله فيها. ومن العناية بالمرأة أن يتكفل الأغنياء بإنشاء كراسٍ ومراكزَ بحثيةٍ تدرس أمور النساء من منطلقات شرعية، وأن تتولى الجامعات والجوامع الكبرى إقامة الدورات العلمية المكثفة للنساء في شتى العلوم الشرعية، حتى يتخرج منها قيادات نسائية علمية ودعوية وفكرية، وأن ينصرف أثرياء المسلمين نحو المشروعات الاستثمارية التي تصنع بيئة آمنة للمرأة العاملة والمتسوقة.

ومن نافلة القول ألا نقصر جهودنا على الجانب الديني البحت من قضايا المرأة مع أولويته وأهميته، فللنساء مطالب وحاجات يمكن تلبيتها دون مساس بأحكام الشريعة، وبضمان مآلاتها الحميدة وسدِّ أي منفذ للذرائع المشينة، ومن ذلك حاجة المرأة للتعليم، والعمل، والعلاج، والتجارة، والمشاركة في الأعمال الخيرية والاجتماعية، والترفيه البريء الملائم، فضلاً عن قيام الثقات بإنشاء مؤسسات الإعانة على الزواج، والاستشارات الأسرية والنظامية، وغيرها مما يمسُّ حياة المرأة، وتخشى أن تتناوله بنفسها بما يمس شرفها؛ خاصة حين يقوم على هذه المصالح مَنْ لا يُرتضى دينُه ولا أمانتُه.

ومع الثورات العربية المباركة، تحطم أنموذج «السيدة الأولى»؛ الذي كانت تتولى كِبْرَه زوجات وبنات الزعماء الآفلين، وبمباركة وحماية أولئك النسوة النافذات عبث مرضى القلوب بشؤون المرأة، وعاثوا فساداً في البلاد وأنظمتها، والمرجو مع زوال هذه الغمة أن يُصلِح الحكام الجدُد ما شانَه سابقوهم، وأن تتعظ نساء الحكام الباقين من مصير أسلافهن، ويتركن حمل هذه الراية الجاهلية التي لا مستقبل لها إلا التنكيس ثم السقوط.

(١) نقلاً عن محمد رشيد رضا: نداء للجنس اللطيف في حقوق النساء في الإسلام وحظهنَّ من الإصلاح المحمدي العام، ص ١٤٧، دار الحديث.

الفقه التطبيقي

د. هاني بن عبد الله الجبير(*)

الحمدلله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فالفقه هو الحُكْم على تصرفات الإنسان وأحواله وحركاته، بالمنع أو الإباحة أو الإلزام؛ ولذا فهو يدخل في جميع مناحي الحياة، ويتغلغل في كل مجالاتها ومسالكها التي قد تَعرِض للإنسان، ومن هناك كانت طبيعة الفقه التغيُّر والتطوُّر؛ فهو يتغيَّر في أحكامه المرتبطة بالنظر المصلحي المقاصدي بتغيُّر المصالح، وفي أحكامه المبنيَّة على العرف باختلاف الأعراف، وفي أحكامه المتعلقة بالذرائع بمدى قوة إيصالها لما هي ذريعة له، وفي أحكامه المتعلقة بالتوسل بها لغيرها لانفرادها في التوصيل لمقصودها وقوة التوسل بها، مع تجدُّده بطروء نوازل وحوادث لا نص على حكمها، أو لم يذكر المتقدمون الموقف منها، وهذا كله يجعل الفقه ليس بالقالب الجامد الذي يمكن تقديمه بالصورة نفسها في كل حين وزمن. كما أن طبيعة الفقه خضوعُه للاجتهاد المتفاوت بين البشر بحسب قدراتهم الذهنية، وقواه الفكرية ومَلَكاتهم الغريزية؛ ولذا يختلف الفقهاء في حكم بعض المسائل، ثم يتضح لبعضهم ما يوجب رجوعه عما قرره سابقاً.

وقد سبق لنا أن تناولنا هذا الأمر مفصَّلاً في مقال سابق[1]، والمقصود: أن الفقه ليس كقواعد علوم اللغة العربية التي لا يتغير حالها وأحكامها، ولما ذكر بعض أهل العلم أقسام العلوم جعل منها: علماً نضج وهو الأصول والنحو[2]، قاصداً بذلك استقرارها؛ مع أن علوم اللغة - وهي نقل مجرد لطريقة العرب في الكلام - يَعرِض لها التجديد في التسميات والتعليلات؛ ولذا يختلف المتقدمون عن المتأخرين في تسمية بعض الأبواب وطريقة عرضها، فضلاً عن الموقف المعاصر من تعليلات المتقدمين في الإضمار المجعول علَّة لانتصاب بعض الأفعال مثلاً[3]. وهذا الأمر لم يكن غائباً عن فهم سلف هذه الأمة، وفقهاء الصدر الأول ومَنْ بعدَهم، وما تجدُّد المؤلفات وتطوُّر المذاهب إلا أحد أفراد ما نتناوله. لهذا كله فقد ظهرت دعوات كثيرة لتجديد الفقه لكنها دعوات يكتنفها عدة تساؤلات عن منهج هذا التجديد، وضوابطه، وسبب الدعوة أصلاً، وتوجه القائل بها بين كونه مغرضاً أو مسدداً. ومع ذلك فيتفق المهتمُّون على ضرورة تقديم فقه واقعي مناسب للحاضر والمستقبل المتوقع، وأن الفقه أصبح في كثير من دُور العلم ومؤسساته صنعة متون تُحفَظ دون أن يكون منهج حياة متكامل، يتواصل معها ويحيا معها، ويتطوَّر بتطورها كما كان عند السلف الصالح، رحمهم الله.

وهذا أمر لا يختص به الفقه وحدَه، بل يعيب بعض الباحثين أن كثيراً من العلماء في شتى علوم الحياة يُبدُون قدرة مشهودة على تجاهل كلٍّ من الحاضر والمستقبل ويملؤون عقول الطلاب بثقافة الماضي، ويدرِّسونهم ما لا يفيدون منه

(*) قاضٍ شرعي في محكمة مكة المكرمة.

(١) بعنوان: (المفتي وتغيُّر الأحكام).

(٢) مذكور في عدد من المؤلفات، منها: المنثور في القواعد للزركشي (١/٦)، الأشباه والنظائر لابن نجم، ص (٢٧٧).

(٣) انظر: النحو الوافي لعباس حسن (١/٨)، وتجديد النحو لشوقي ضيف، ص ٤.

شـيئاً إذا تركوا الدراسـة؛ فيدرسـون ما لا يحتاجونه في الواقع ولا يلبي حاجاتهـم[1]. وفي هذه الورقات نتناول ما نتطلع لوجوده قائماً من خلال توطئة تبيِّن الحاجة إلى وجود هذا الفقه ثم موجِّهات ومعالم لهذا المطلب.

التوطئة:

لـم يغب عن فهم سـلف الأمة أن الأحـوال إذا تغيرت قـد يتغير معها الحكم الشـرعي، فرافع بن خديج - رضي اللـه عنه - روى عن النبي ﷺ النهـي عن كراء الأراضي[2] -وهو تأجيرها - ولما سئل عن استئجارها بالنقود قال: (أما بالذهـب والورِق فلا بأس به، إنما كان الناس يؤاجرون على عهد النبي ﷺ على الماذيانات وإقبال الجداول، وأشـياء من الزرع، فيهلك هذا ويسـلم هذا، ويسلم هذا ويهلك هذا، فلم يكن للناس كراء إلا هذا فلذلك زجر عنه، فأما شـي معلوم مضمون فلا بأس به)[3].

فقـد فهم - رضي الله عنـه - حصول الفرق باختلاف الحال. والنبي ﷺ لما فتح خيبر قسمها بين المسلمين[4]، فلما فتحت العراق في عهد عمـر بن الخطاب - رضي الله عنه - قالوا لعمر: اقسـمه بيننا فإنا افتتحناه عنوة. قال: فأبى، وقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين؟ وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه. ولم يقسم بينهم[5]. (وقد ألزم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من طلق زوجته ثلاثاً «بكلمة واحـدة» بالثلاث، مـع أنه كان واحدة وقـال: إن الناس قد استعجلوا في شيء كانت لهم فيه أناة فلو أنَّا أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم)[6]، وعائشـة - رضي الله عنها - قالت: (لو أدرك رسـول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهنَّ المساجد، كما مُنِعه نساء بني إسرائيل)[7].

وحُكـي عن ابن أبي زيد القيروانـي - رحمه الله - أن حائطاً انهدم من داره، وكان يخاف على نفسـه، فاتخذ كلباً للحراسـة وربطه في داره، فلما قيل له: إن مالكاً يكره ذلك، قال لو أدرك مالكٌ زمننا لا تخذ أسداً ضارياً[8]!

قال القرافـي: (إن إجراء الأحكام التي مُدركها العوائد مـع تغيُّر تلك العوائد: خلاف الإجمـاع وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشـريعة يتبـع العوائد؛ يتغير الحكم فيه عنـد تغير العادة إلـى ما تقتضيه العـادة المتجددة، وليس هذا تجديداً للاجتهاد من المقلدين حتى يشـترط فيه أهلية الاجتهاد، بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها، فنحن نتبعهم فيها من غير اسـتئناف اجتهاد. ألا ترى أنهم أجمعوا علـى أن المعاملات إذا أُطلِق فيها الثمن يُحمَل على غالب النقود، فإذا كانت العـادة نقداً معيَّناً حملنا الإطلاق عليـه، فإذا انتقلت العادة إلى غيـره عيَّنا ما انتقلت العادة إليه، وألغينا الأول، لانتقال العادة عنه. وكذلك الإطلاق في الوصايا والإيمان وجميع أبواب الفقه المحمولة على العوائد؛ إذا تغيرت العادة تغيـرت الأحكام في تلك الأبواب. وكذلك الدعاوى إذا كان القول قول من ادَّعى شـيئاً لأنه العادة، ثم تغيرت العادة: لم يبق القـول لمدعيه بل انعكس الحال فيه. بل ولا يشترط تغير العادة، بل لو خرجنا نحن من ذلك البلد إلـى بلدٍ آخر عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كنا فيه أفتيناهم بعـادة بلدهم، ولم نعتبر عادة البلد الذي كنا فيه. وكذلك إذا قدم علينا أحد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه لم نفته إلا بعادة بلده دون عادة بلدنا)[9].

ومعلـوم أن الفقهاء تختلف فتاواهم، فقـد يرجع العالم عـن رأي رآه لموجب يقتضي ذلك، ومـن ذلك المذهب القديم والجديد للشـافعي رحمه الله. وكذلك تختلـف طُرُقهم في نطاق كل مذهب في ترتيب كتب وأبواب ومسائل الفقه؛ فيكون للمذهب ترتيب متَّبَـع في زمن ثم يعدل عنه لغيره. وفي كتب الفقه مصطلحات لأشـياء كانت دارجة فـي زمن مؤلِّفها ثم تلاشت ولم تعد موجودة أو تغيَّر اسمها، فالقلانس والبرانس والساباط والشاذروان والدنيَّات والنوميات غير مستعملة لدى أكثر المسـلمين، والمقادير المذكورة في كتب الفقه لا تسـتعمل في الأسـواق غالباً. وفي المقابل فكثير مما يقع بين المسلمين أو يَنشُـدون معرفة حكمه لا يوجد له ذكر في بيت الفقه إما مطلقاً أو على وجه التعيين الظاهر.

---

(١) المستقبلية، إدوارد كورنيش، ص ٤٠١.
(٢) صحيح مسلم (١٥٤٨).
(٣) صحيح مسلم (١٥٤٧)، وهذا لفظ لمتابعة الأولى.
(٤) صحيح البخاري (٢٣٣٤).
(٥) السنن الكبرى للبيهقي (٦/٣١٨)، والأموال لأبي عبيد (١/١٢٠) وهو صحيح عنه، رضي الله عنه.
(٦) تضمين من الطرق الحكمية لابن القيم ص ٢٣، وذكر أيضاً أن بيع أمهات الأولاد واختيار الأفراد في الحج خلاف لرأي أبي بكر رضي الله عنه.
(٧) صحيح البخاري (٨٦٩)، صحيح مسلم (١٤٤)
(٨) اختلاف الاجتهاد وتغيره، المرعشلي، ص ١٣٧.
(٩) الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، ص ٢١٨.

ولا غرابة في ذلك فغالب هذه الكتب صُنِّف من عصور سابقة، بل لعل أكثر الكتب الفقهية التعليمية المعتمَدة في المذاهب الأربعة قد أُلِّفت منذ قرابة سبعة قرون، وهي موضوعة في الأصل لاختصار المسائل الكثيرة في اللفظ القصير توصلاً لتسهيل حفظها؛ ولذا فهي لا تكاد تُفهَم وحدَها فتحتاج الى شرح والشرح محتاج لحاشية، وهي مع ذلك كله خِلْو من الاستدلال؛ فلا فرق بين من تعلَّم منها ومن لم يتعلم؛ إذ لا إدراك لدليل المسألة وملحظِ الحكم فيها وحكمتِه[1]، مع ما يورث حفظها وتكرارها من ضعف في المَلَكة اللغوية والمقدرة على حسن البيان وجمال التعبير[2]. ثم بعد ذلك فالمَلَكة الحاصلة من التعليم إذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي مَلَكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة[3].

كل هذا وغيره جعل تجديد الفقه أو تقديم الفقه العملي من المسائل المطروحة، التي يتفاوت فيها وصف العلاج وتحديد الأسلوب باختلاف منزع المتكلم ونيته. وسأحاول هنا تقديم موجِّهات لهذا الفقه التطبيقي المنشود، وهذه الموجِّهات تنقسم إلى ما يتعلق بالقائم بهذا الفقه، وإلى ما يتعلق بالموضوع نفسه.

موجهات الفقه التطبيقي:

١ - طبيعة القائم بتقديم الفقه:

فأول مَعْلَم لهذا الفقه أن يقدِّمَه فقيه النفس، حَسَن القصد.

وفقاهة النفس: صفة راسخه تُعِين الإنسان على سرعة البديهة ومعرفة الحكم، الدالة على تمام الحذق في الفقه.

قال ابن خلدون: (الحذق في العلم والتفنن فيه، والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول مَلَكَة في الإحاطة بمبادئة وقواعده والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة، لم يكن الحذق في ذلك الفن)[4]. وهو أمر يحتاج للمران وكثرة المدارسة؛ ولذا قال - تعالى -: ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. قال ابن عاشور: (التفقُّه: تكلُّف الفقاهة، ولما كان مصير الفقه سجيَّة لا تحصل إلا بمزاولة ما يبلغ إلى ذلك جاءت صيغة: التفعُّل.

وفي هذا إيماء إلى أن فهم الدين أمر دقيق المسلك، لا يحصل بسهولة؛ ولذا جزم العلماء أن الفقه أفضل العلوم)[5].

ويحتاج هذا إلى أن يكون قد جمع الفقيه بين الدراسة النظرية والمشافهة مع الممارسة، ولذا قال الشاطبي: (أنفع طرق أخذ العلم: المشافهة، لخاصَّة جعلها الله بين المعلم والمتعلم، يشهد بها كلٌّ من زاول العلم والعلماء؛ فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتاب، ويرددها فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلِّم فهمها بغتة، وهذا من فوائد مجالسة العلماء؛ إذ يفتح للمتعلم منهم ما لا يفتح له دونهم ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في ملازمة معلميهم، وقد كره مالك الكتابة، فقيل: ما نصنع؟ قال تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم، ثم لا تحتاجون إلى الكتابة)[6]. وكما يحتاج إلى فقاهة النفس بتمام الملكة والقدرة العلمية، فإن ذلك لا يتم إلا بصفاء النفس وحسن القصد والاستعداد الروحي للقيام بذلك فإن العلم الشرعي نور يقذفه الله في قلوب عباده، وقد قال الله - تعالى -: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وقال ﷺ: «من يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين»[7].

يقول ابن تيمية: (إذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت بخلاف القلب الخراب المظلم... فالمؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره ولا سيما في الفتن... وكلما قوي الإيمان في القلب قوى انكشاف الأمور له وعرف حقائقها من باطلها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف... وإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقيناً وظناً؛ فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى)[8].

٢ - موضوع الفقه التطبيقي:

المعْلَم الثاني أن هذا الفقه لا بد أن يجمع الفقه المحتاجَ إليه، المطبَّقَ في الواقع، فيحذف منه كل مسألة لا تطبَّق

(١) تاريخ التشريع الإسلامي ص ٣٧١، لمحمد الخفري. بتصرُّف.
(٢) أبجد العلوم صديق حسن خان (١ / ٢٠٦)، وانظر: المقدمة لابن خلدون، ص ٦٦٨.
(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٦١٧.
(٤) المقدمة، ص ٣٧٥.
(٥) التحرير والتنوير (١١ / ٦١).
(٦) الموافقات (١ / ٩٦).
(٧) صحيح البخاري (٨ / ١٤٩).
(٨) مجموع الفتاوى (٢٠ / ٤٣- ٤٧) وكل كلامه عظيم في هذا الأمر يتعين مراجعته.

واقعاً ولا يُعمَل بها. قال الشـاطبي: (كل مسـألة لا ينبغي عليهـا عمـل فالخوض فيهـا خوض في ما لـم يدل على استحسـانه دليل شرعي؛ وأعني بالعمل: عمل القلب وعمل الجوارح المطلوب شرعاً.

والدليل على ذلك اسـتقرار الشريعة؛ فإنا رأينا الشارع يُعرِض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به. وعدم الاستحسـان فيه لوجوه، منها: أنه شُـغْل عما يعني من أمـر التكليف بما لا يعني. ومنها: أن الشـرع قد جاء ببيـان ما تصلح به أحوال العبـد في الدنيا والآخرة؛ فما خرج عـن ذلك قد يظن أنه على خلاف ذلك، وهو مشاهد في التجربة أن عامة المشتغلين بالعلوم التـي لا تتعلق بها ثمرة تكليفيـة تدخل عليهم فيها الفتنـة والخروج عن الصراط المسـتقيم... ولم يكن التفرق بينهم إلا بهذا السبب حيث تركوا الاقتصار من العلم على ما يعني، وخرجوا إلى ما لا يعني)[1].

والمقصود أن يحذف من (مدونـة الفقه التطبيقي) كلَّ مسـألة لا يُعمَل بها في الواقع أو المتوقـع، وأن يجمع فيه كلَّ مسـألة واقعة أو متوقعة فلا ينفصـل الفقه عن الواقع ولا يبتعـد عن الحياة. وهذا المعلـم يندرج تحته عدة أمور، منها: أنه سيبعد عنه المسائل التي عُلِّل الحكم فيها بعلل غير واقعية، فالفقهاء جعلوا السفر العارض للنزهة سبباً لسقوط الحضانة عن المسـافر أو لجعل الحضانـة للأب بعلَّة كون السفر فيه مشقة، وخوف ضياع نسب المحضون إذا سافر.

وهاتـان العلتان معلوم عـدم واقعيتهما الآن وقد صار السفر متعة، وحفظت الأنساب بالوثائق الرسمية.

وكما عللوا لزوم كون المحضون الذكر بعد سـبع سـنين عنـد والده نهاراً ولو اختار أمه؛ بعله أنه يتعلم الصنعة منه، هكـذا قالوا مـع أن الواقع الآن في مؤسسـات خاصَّة بها غالباً.

فإذا أضيف لذلك كون باب الحضانة في الجملة قد بُنِي على اختيار الأصلح للمحضون والنظر في ما من شـأنه أن يكون أرفق به كان إعادة النظر في تقرير مسائله أحد أدوار الفقيه التطبيقي.

ومنها: أنه سـيلبي حاجـات المجتمع بإيـراده للنوازل والحادثات المسـتجدة مبيناً حكمها ولو لم يذكر في الكتب المتقدمة.

(١) الموافقات (١/ ٤٦).

وهذا يعني أن يتناول واقع المجتمع فلا يُغفِل منه مطلباً يحتاج لتقرير حكم إلا ويورد فيه المرفَقَ الشـرعي بحسـب اجتهاده.

وهذا سيسـتدعي فـي الوقت ذاتـه ألا توجد (مدونة واحدة) تكفي سـائر المجتمعات لاختلاف عاداتها وطباعها، أو أن يبـين الحكم مفرعاً له على حسـب مـا يقع فيه من اختلاف واقعي مؤثر. وهذا أمـر مهم؛ فربط الحكم بعادة معيَّنة أو طبيعة بلد خاص أو مصلحة مؤقته يسـتوجب معه التنبيه إلـى تفاوت ذلك واختلافه بتغيـر ما ربط به. قال القرافي: (وكثير من الفقهـاء وجدوا الأئمة الأُوَل قد أفتوا بفتاوى بناءً على عوائدَ لهم وسـطروها في كتبهم بناء على عوائدهم، ثم المتأخرون وجدوا تلك الفتاوى فأفتوا بها وقد زالـت تلك العوائد فكانوا مخطئـين خارقين للإجماع، فإن القيـام بالحكم المبني على مدرك بعـد زوال مدركه خلاف الإجماع... فتأمل ذلـك يظهر لك ما عليه هؤلاء المتأخرون من الفتاوى الفاسدة)[2].

وفي دراسات حديثة تبين أن العمليات المعرفية يمكن أن تتعدل لمجـرد أن يعايش المرء ثقافة أخرى لفترة من الزمن، وأن الثغرات البسـيطة في التوجـه الاجتماعي لها أثرها في الطريقة التي يفكـر بها المرء، وأن التحول الطارئ على الممارسـات الاجتماعية من شـأنه أن يؤدي إلى تحوُّل في الأنماط القياسية للإدراك والفكر[3].

فدور الفقه أن يقدم حلاً لمشـكلات الواقع والمسـتقبل المتوقع بشكل يناسب صلاحية الإسـلام لكل زمان ومكان، فلا تبقى مسألة في حيِّز الفراغ الفقهي، ولا يكون التطبيق الفقهي قاصراً أو مقتصراً على زمان أو مكان دون سواه.

ومنهـا: أن يقدَّم هـذا الفقه بأسـلوب عصري ولغة واضحة وبمعايير وحسابات تطبيقية سهلة لا تختص بأفراد من الأمة. قال الشـاطبي: (ما يتوقف عليه معرفة المطلوب قد يكون له طريق يليق بالجمهور [يقصد عـموم المسـلمين] ويكون له طريق لا يليق بالجمهور. فأما الأول: فهو المطلوب، وعلى هذا وقع البيان في الشريعة، وقد بيَّن - عليه الصلاة والسـلام - الصـلاة والحج بفعلـه وبقوله علـى ما يليق بالجمهور، وكذلك سائر الأمور، وهي عادة العرب والشريعة

(٢) الفروق (٣ /١٦٢) و (٣ / ٢٨٨).
(٣) جغرافية الفكر، ريتشارد إي. نيست، عالم المعرفة العدد ٣١٢، ص ٢٠٦.

عربية، ولأن الأمة أميَّة فلا يليق بها من البيان إلا الأميُّ.

وعلى هذا النحو مرَّ السلف الصالح في بث الشريعة... قصدوا أيسر الطرق وأقربها إلى عقول الطالبين[1].

وقال أيضاً: (هذه الشريعة المباركة أميَّة... وينبني على ذلك قواعد، منها: أن تكون التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأميَّ تعقُّلها ليسعه الدخول تحت حكمها)[2].

٣ - مقصد الفقه التطبيقي:

المَعلَم الثالث من معالم هذا الفقه المنشود تقديمه للأمة: أن يراعي المقصد الأعظم المطلوب من تفقُّه الإنسان؛ وهو أنه يتعبد لله - تعالى - ويتقرب له - سبحانه - ممتثلاً أمره متطلباً الزلفى لديه بأفعاله.

قال الشاطبي - رحمه الله -: (كل علم شرعي فطلب الشرع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى...)

والشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام. قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وروح العلم هو العمل؛ وإلا فالعلم غير منتفَع به فقد قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨]. قال قتادة: يعني لذو عمل بما علمناه. وقد قال النبي ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع» ومنها: «عن علمه ماذا عمل فيه»... والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة إلى العمل، وكلُّ ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به.

والعلم الذي مدح الله ورسوله أهلَه هو الباعث على العمل[3].

وهذا المعلَم يندرج تحته أمور كلها تتفرع عن معناه، منها: أن يراعي عند بيان حكم من الأحكام أن يذكر دليله الشرعي؛ فما دام الغرض التعبُّد لله، فلا يتحقق ذلك إلا بظهور كونه محبوباً لله فِعلُه أو تَركُه، وذلك يعرف بالدليل. وعلى هذا فالفقه التطبيقي فقه مستنبَط من الأدلة الشرعية ويُعرَض مصحوباً بدليله الشرعي ليرتبط متلقيه بالمقصد الذي هو التعبد لله تعالى، ولا يغفل عنه. والغفلة عن ذلك من أسباب إخلال المكلَّف ببعض الأحكام، والبحث عن الرخص، والإتيان بالحيل.

ومنها: أن يربط الجزئي منه بالكليِّ، والفرعي بالضابط العام ليستقيم فهمه ويعلم أنه شرع ربَّاني جاء بمصالح العباد ونفعهم.

وقد كان النبي ﷺ يبين ذلك لأصحابه؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نهى النبي ﷺ أن تُزَوَّج المرأة على العمة والخالة، وقال: إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم[4].

وعن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو بعتَ من أخيك ثمراً فأصابته جائحة فلا يحل لك أن تأخذ منه شيئاً؛ بم تأخذ مال أخيك بغير حق؟»[5].

وفي رواية: أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟ فيكون بيان مقاصد التشريع، أو اندراج المسألة تحت أصل كلِّي أدعى للفهم، وأسرع للقبول.

ومنها: أن لا يُغفِل الجانب الروحاني في التشريع فالتشريع الإسلامي ما دام مقصوداً به التعبد لله - تعالى - فلم لا يكون بيان الحكم الشرعي مرتبطاً بالتعبدية فيه. إن بث الروح في الكتابات الفقهية تجعل القارئ لا يقف على شكل العبادة أو صفة المعاملة بل يتمثل البعد الروحي فيها، والمعنى الذي تنشده النفس عند امتثالها؛ فمعاني الخشوع والإخلاص والإحسان واستحضار النيات لا بد أن تكون حاضرة في المشهد الفقهي فلا تُقْصَى كما هو واقع كثير من الكتابات.

ومنها: أن يعود الفقه كما كان في الصدر الأول شاملاً مع الأحكام العملية للآداب والأخلاق، قبل أن تفرد بعلم مستقل ولا شك أن في ذلك إحياءً للآداب الشرعية وربطاً لها مع الممارسات الحياتية المذكورة في مدونات الفقه وهو يخدم تطبيقية الفقه ليقدم كل ما طلب من المكلف تطبيقه.

وبعد، فلعل هذا المقال الوجيز يوضح الفكرة ويبلغ المقصود منه! والله الموفق.

---

(١) الموافقات (١ / ٥٩).
(٢) الموافقات (٢ / ٩٠).
(٣) الموافقات (١ / ٦٢ - ٦٩).
(٤) صحيح ابن حبان (٩ / ٤٢٦) وهو الصحيحين من حديث أبي هريرة بدون التعليل.
(٥) صحيح مسلم (١٥٥٤).

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

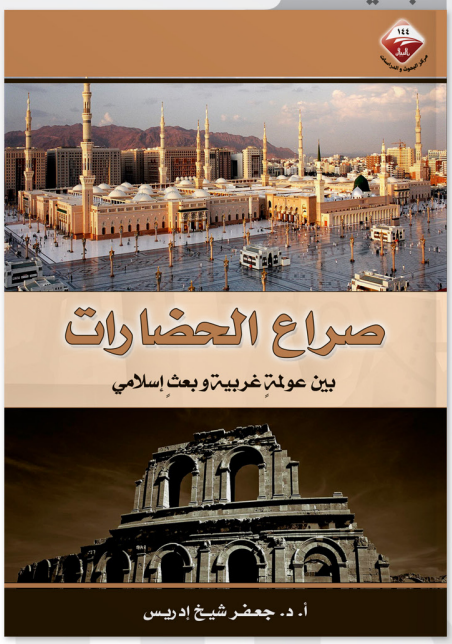

جديد ..

جديد ..

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الرأي العام

مفهومه - مكانته - دوره
وعلاقته بالسياسة الشرعية

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

تعريف الرأي العام: هو تصوُّر معلَن، إزاء مسألة أو مشكلة هامة وعامة، يترتب عليه موقف عملي إزاء المسألة موضوع الرأي. فهو تصوُّر عام فارَقَ الشخصية أو الفردية وانتقل ليصبح مسألة عامة تعم غالبية قطاعات المجتمع المعني بذلك الرأي، وهو تصور معلَن فارَقَ الصدور والحنايا ليكون أمراً معلَناً يُجهَر به - سواء عن طريق القول أو العمل الذي يمثله العُرْف أو العادة - ليحقق الهدف منه، وهو تصوُّر له واقع عملي فارَقَ التنظيرَ المجردَ إلى مرحلة اتخاذ المواقف المؤسَّسَة عليه، والأصل أن يكون الرأي العام محدوداً بالزمان والمكان الخاصين به؛ وذلك أنه نشأ تفاعلاً مع وضع أو مشكلة حدثت في زمان ما ومكان مَّا، لكنَّ هذا لا يمنع أن يكون هناك رأي عام ممتد غير محصور الزمان والمكان، وذلك في ما يُعَد تعبيراً منطلقاً من الثوابت في مجتمع ما، أو موضوعاً يهم المجتمع كلَّه بجميع طوائفه وفئاته؛ فعلى ذلك يكون الرأي العام بمثابة المزاج الشعبي العام أو الإرادة الشعبية العامة، والركن الفارق في عدِّ الرأي رأياً عاماً أن يكون قادراً على ممارسة التأثير على قضية أو موضوع معيَّن، ويشبه أن يكون الرأي العام في السياسة والاجتماع نظير الإجماع أو قول الجمهور أو العرف في مسائل الفقه

تقسيم الرأي العام بحسب مكانته:

ومن الممكن تقسيم الرأي العام إلى أنواع ثلاثة:

١ **رأي عام قائد:** وهذا الرأي يقوم به قادة الأمة والنابهون منها وهم النخبة، وهؤلاء أقلية لكنهم يقودون المجموع ومثل هؤلاء تخشاهم السلطات الحاكمة وتحدِّد خطواتها بناء على رد الفعل المتوقع من هؤلاء، والذي يمكن أن يجرَّ وراءه القومَ. روى الخطيب البغدادي بسنده وكذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء عن يحيى بن أكثم قال: «قال لنا المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرتُ القرآن مخلوق، فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين! ومن يزيد حتى يكونَ يُتَّقى؟ قال فقال: ويحك! إني لا أتقيه لأن له سلطاناً أو سلطنة، ولكن أخاف إن أظهرته فيرد عليَّ فيختلفَ الناس وتكونَ فتنة وأنا أكره الفتنة»، ولا تكون هناك فتنة إلا إذا كان هناك من يتابعه على رأيه، ورأيه في مثل هذه الحالة لا يُعَد رأيَ فرد واحد بل رأي عامة توزن بعدد المتابعين الذين يصمِّمون على متابعة ما يقول؛ فالمأمون وهو أمير المؤمنين يخاف من مخالفة فرد لا حول له ولا قوة، لكنه قادر على تكوين رأي عام يجيِّش الناس ضده، وهو ما قد يهدد مركز الخليفة.

وقد ظهر أثر الرأي العام القائد واضحاً في ما يقرره علماء السياسة الشرعية في العدد الذي يعقد الولاية لرأس النظام؛ فقد اشترط العلماء أن يكون العقد من قِبَل أهل الحل والعقد أو جمهورهم، ولا يصلح أن يعقدها فرد أو فردان إلا إذا كانت موافَقتُه تقتضي موافقة كثيرين ممن يتحقق بهم مقصود الإمامة. قال إمام الحرمين الجويني في بيان العدد الذي تنعقد به الخلافة بعدما ذكر الأقوال في ذلك: « فالوجه عندي في ذلك أن يعتبر في البيعة حصول مبلغ من الأتباع والأنصار والأشياع، تحصل بهم شوكة ظاهرة، ومَنَعَة قاهرة؛ بحيث لو فرض ثوران خلاف، لما غلب على الظن أن يصطلم أتباع الإمام... ثم أقول: إن بايع رجل واحد مرموق، كثير الأتباع والأشياع، مطاع في قومه، وكانت مَنَعَته تفيد ما أشرنا إليه، انعقدت الإمامة»[1]، وقد قال بنحو ذلك ابن تيمية في منهاج أهل السنة النبوية حيث يقول: « ... والملك لا يصير ملكاً بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة؛ إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم؛ بحيث يصير ملكاً بذلك».

(١) غياث الأمم في التياث الظلم للجويني، ص ١٠٧.

٢ **رأي عام تابع:** ويمثله الفئة الفاهمة المثقفة، التي يمكنها إدراك الأمور من خلال دلائلها، وهي شريحة أوسع من سابقتها، والفرق بين هذه الشريحة والتي تليها أنها تذهب إلى ما تذهب عليه عن علم ومعرفة واستدلالات لا عن تقليد.

٣ **رأي عام مقلِّد:** ويمثله الأغلبية العظمى من الناس؛ حيث تكتفي بترديد ما يلقى على مسامعها أو ما تشاهده من خلال أجهزة العرض المرئي، ويمثل هؤلاء العوام من الناس العمال والصناع والفلاحون وأصحاب الحرف والمهن، والتحكم والسيطرة على أهل هذه الفئة صعب ليس ميسوراً إذا كانوا مقلدين لمعظَّم عندهم حتى يضطر أهل السلطة إلى مجاراتهم ومداراتهم، لكن هذه الشريحة يسهل خداعها وتزييف وعيها.

الخصائص: الرأي يكون عاماً عندما يتعلق بقضية عامة، ويتميز الرأي العام - إذا كان عفوياً غير مصنوع - عندما ينشأ استجابة لواقع معيَّن بأنه مستقل غير تابع نتيجة لخطوات تبلوره وظهوره على الساحة عبر كثير من النقاشات من قوى المجتمع المختلفة، ومن ثَمَّ فإنه يتمتع بنوع من الثبات؛ بحيث لا يسهل تغييره، لكن هذه الاستقلالية تحتاج إلى بيئة صالحة لذلك؛ كأن تكون كل المسالك التي تُستخدَم في التعبير متاحة للجميع، وكذلك القدرة على التواصل مع الجماهير عبر النوافذ المفتوحة، لكن هذا لا يمنع من إمكانية صناعة الرأي العام وتزييفه؛ بحيث يكون رأياً عاماً صناعياً موجَّهاً لا يعبر عن حقيقة البيئة التي أنتجته؛ وذلك من خلال امتلاك بيئة تكوين الرأي العام والقدرة على التأثير فيها من خلال نشر أكاذيب وإذاعة بيانات وإحصاءات غير صحيحة واختلاق بعض المشكلات، والرأي العام بحاجة إلى قادة؛ وهم الذين يتمتعون بالقدرة التأثيرية على قناعات الشعب لدرجة قد تصل إلى تغيير الرؤى والتصورات الشعبية؛ بحيث تتحكم فيها أو تعدِّلها ويلعب الإعلام الموجَّه دوراً كبيراً بلا شك في تشكيل الرأي العام.

المجالات: الرأي العام قد يكون بالنسبة لمؤسسة أو منشأة أو طائفة أو فئة، وقد يكون بالنسبة للمجتمع كله. والرأي العام في كل وحدة مما ذكرتُ يبدأ نخبوياً لكنه لا يقف عند ذلك؛ بل ما يلبث أن يمتد وينساح حتى يشمل كلَّ (أو أغلبية) مكونات الوحدات المذكورة، كما أن الرأي العام لا يشترط أن يعم وحدته فيكون رأياً أحادياً؛ بل من الجائز أن ينقسم إلى رأيين أو ثلاثة؛ بحيث يعبر كل واحد منها عن رأي عام.

المؤثرات: والرأي العام يتأثر بدرجة كبيرة بجودة وسائل الاتصال وتشعُّبها ومن ثَمَّ فإن التمكن من وسائل الاتصالات شرط مهم لصناعة الرأي العام، كما أنه يتأثر بالفئة المجتمعية التي تنتج هذا الرأي من حيث مستوى علمها وثقافتها ورشدها؛ فالرأي العام يُعَد في غالبه ابنَ بيئته؛ فالرأي العام الذي يسود هو ما كان متآلفاً أو متجانساً مع النسق الفكري العام للوحدة الاجتماعية المعنية بهذا الرأي، وهذا ما قد يفسر موقف الأمم من دعوات الرسل الذين أرسلهم الله - تعالى - لأقوامهم كي يخرجوهم من الظلمات إلى النور، وقد سجل القرآن الكريم مواقفهم فقال الله - تعالى -: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، والملأ سادة المجتمعات، وهم الأقدر على تكوين الرأي العام وحشد البقية خلفه.

صناعة الرأي العام: والرأي العام كما يمكن أن ينشأ في أول أمره عفوياً نتيجة لواقع ما أو مشكلة ضاغطة، فإنه من الممكن أن يُصنَع صناعة لكنه لا يكون في هذه الحالة حقيقياً بل مرتبطاً ومتقيداً ومعبِّراً عن توجهات صُنَّاعه، والرأي العام قد يُصنَع عبر آليات كثيرة؛ فمن ذلك وسائل الإعلام المتنوعة (المقروءة والمسموعة والمرئية) وهذه الأخيرة قد تحتل أو تستحوذ على النصيب الأوفى من التأثير ويدخل في ذلك شبكة المعلومات (الإنترنت) عن طريق المنتديات الحوارية ومواقع التواصل الاجتماعي، ومن خلال الأحزاب السياسية وجماعات الضغط وجماعات المصالح، ومن ذلك الندوات والاجتماعات الشعبية التي تلقى فيها الخطب والمحاضرات، وكل اجتماع عام متكرر كخطبة الجمعة، ولعل هذا يفسر ما تقوم به بعض الأنظمة من السيطرة على خطبة الجمعة حتى لا تخرج عن طوعها؛ ففي خطبة الجمعة يرتبط العقل بالوجدان ويصير الرأي العام مرتبطاً بجناحين: جناح العقل الذي يؤكد على المعلومات المتعلقة بالقضية، وجناح القلب الذي يمد القضايا بالوقود النفسي الوجداني اللازم لاستمرار القضية بحيث لا تنطفأ جذوتها، وهناك من الأنظمة من يعمد إلى صنع رأي عام كي يتقبل القوانين أو القرارات أو السياسات التي تُزمِع السلطة الحاكمة على تبنِّيها وإقرارها، وهذا الرأي تعتمد مصداقيته على مصداقية السلطة التي أنتجته، كما أن هناك من يعمد إلى تضليله عن طريق التخدير أو الإلهاء بصرف الأنظار عن القضايا الحيوية وتوجيهها لقضايا هامشية.

أثر الرأي العام: والرأي العام له قدرة تأثيرية كبيرة في الأنظمة التي تقدِّر شعوبَها وتعتدُّ بها؛ فقد يغير أو يعدل بعض القرارات أو القوانين أو السياسات، كما يمكنه أن يتجاوز ذلك لإحداث قوانين أو قرارات جديدة بل وسياسات، لكن أثر الرأي العام في الشأن السياسي

– سواء السياسة الداخلية أو الخارجية – يعتمد على مدى اعتداد النظام السياسي بحرية الشعوب وكرامتها وحقهم في أن يكون لهم دور مؤثر وفعال في كل ما يمر بمجتمعاتهم، وفي حالة إهمال النظام السياسي وتجاهله لمكانة الشعوب ودورها يتحول الرأي العام إلى موقف عدائي كامن تجاه النظام ويظل مكبوتاً ينتظر اللحظة المناسبة التي يجد فيها متنفساً حتى يخرج إلى العلن وقد يكون خروجه في بعض الأحيان كخروج البخار المحتبِس في قِدْر يغلي؛ ولعل ذلك يفسر ما حدث في الثورات التي نشأت في العديد من الدول العربية عام ٢٠١١م، فعندما شعرت الشعوب بقدرتها على التعبير عن نفسها وجاءتها الفرصة لم تتوانَ أو تتقاعس عن اقتناصها، وربما كان هذا الانفجار يشبه ألا يكون إرادياً، ففي بعض الأحايين حين تصل قدرة احتمال تلك الشعوب الحدودَ القصوى التي لم تُعَد بعدها قادرة على الاحتمال ولم يبقَ أمامها غير الانفجار، كما يمكن للرأي العام أن يمد النظام السياسي بقوة تعينه على عدم الاستسلام والصمود أمام الضغوط الخارجية؛ حيث يبين للقوة الضاغطة أن الرأي العام على الضد من مطالبهم وأن الاستجابة لما يطلب منه سيثير الرأي العام ومن ثَمَّ تعرُّض النظام السياسي لخطر محدق.

مراعاة الرأي العام: أنظمة الحكم الحكيمة تحرص على التعرف على الرأي العام وقياسه إزاء أي قانون أو قرار تريد اتخاذه حتى تعلم ردَّ الفعل المتوقع حياله، وذلك عن طريق الاستطلاعات أو الاستبانات والتحقيقات، وربما أحياناً من تسريب بعض المعلومات ونشر الشائعات بغرض معرفة ردِّ فعل الشعوب.

ومن خلال الموازنة بين أهمية القانون أو القرار وردِّ فعل الرأي العام المتوقَع من خلال المعلومات المتوفرة، يمكن للسلطة تحديد الخطوة التي يجب عليها سلوكها ومقدار التغيير أو التعديل الذي يمكن أن تجريَه على القانون أو القرار المزمَع إصداره، بل قد يكون التصرف المناسب حسب المعطيات المتوفرة التأخير أو الإلغاء أو عمل خطوات قبل الإصدار لتهيئ البيئة لتأييد القانون أو القرار أو قبوله من غير اعتراض، ومن ثَمَّ فإن للرأي العام صلة وثيقة بالسياسة الشرعية التي تهدف إلى القيام على الأمور بما يصلحها وينفي عنها الفساد، والسائس بمقتضى السياسة الشرعية يراعي الرأي العام؛ حتى وإن كان الرأي العام ليس رشيداً أو تغيب عنه بعض المعطيات التي تؤثر فيه، والمقصود بالمراعاة هو تأخير التصرف لحين توفر أو توفير الظروف المناسبة وليس إلغاؤه.

نماذج من مراعاة الشريعة للرأي العام: ولعل من ذلك ما ورد أن الرسول ﷺ راعى ذلك في مسألة هدم الكعبة وإقامتها على قواعد إبراهيم – عليه السلام – فقال لعائشة – رضي الله تعالى عنها –: «يا عائشة! لولا قومك حديثو عهدهم بكفر، لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين: باب يدخل الناس وباب يخرجون»[1]، فالناس لحداثة عهدهم بالكفر ربما لا يقبلون نقض الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم – عليه السلام – ويرون في ذلك عدم تعظيم للكعبة لما استقر في نفوسهم من تعظيم أمر الكعبة، ورغم أن إعادة بنائها على قواعد إبراهيم هو الصواب إلا أن الرسول الكريم ﷺ راعى موقف الناس منه وهو الذي يُعَد ممثلاً للرأي العام، بل إن الرأي العام من الممكن اعتباره والاعتداد به ولو كان من الكفار إذا كان ذلك مما تتعلق به مصالح المسلمين فيجلب مصلحة أو يدرأُ مفسدة. ومن ذلك عدم قتل الرسول ﷺ للمنافقين مع أن جرمهم أكبر من جرم الكفار المعلنين بكفرهم، فعندما أراد عمر – رضي الله تعالى عنه – قتل عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وقال: يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق،

(١) أخرجه البخاري، رقم ١٢٦ وبوَّب عليه بقوله: باب من ترك بعض الاختيار، مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه

فقـــال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[1]، والناس الذين يمكن أن يقولوا: إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه هم من الكفار، وأما المسلمون فلا يعترضون على ما يقوله أو يفعله رسول الله ﷺ؛ لأن أقواله وأفعاله شرع يُتعبَّد به؛ ففي هذا الحديث اعتدَّ الرسول الكريم ﷺ بتفســير الكفار لفعله وهو ما يؤكد الاعتداد بالرأي العام الصادر من الكفار لو تعلق بذلك جلب مصلحة للمسلمين أو درء مفســدة عنهم، وقد وجه الشارع الحكيم المسلمين للاســتفادة من الرأي العام في تغيير منكر والقضاء عليه من غير لجوء إلى عقوبة أو استخدام قوة؛ ففي حديث أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه –: (جاء رجل إلى النبي ﷺ يشــكو جاره، فقال: «اذهب فاصبر» فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال: «اذهب فاطرح متاعــك في الطريق» فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره، فجعل النــاس يلعنونه: فعل الله به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جاره فقال له: ارجع لا ترى مني شــيئاً تكرهه)[2]، فهذا التدبير من رســول الله ﷺ عمد فيه إلى صناعة رأي عام رشيد يضغط لتغيير الواقع السيئ، وكان الرسول في الأمور التي تهم قطاعاً عريضاً يرجع فيتحسس موقف الرأي العام من التصرف الذي يريده؛ ففي قصة سبي هوازن عندما وافق الصحابة على رأي رسول الله ﷺ في ما رآه من ردِّ السبي إليهم لم يقبل ذلك حتى يتبين أن الموافقة تمثل رأي المجموع وليس رأياً فردياً؛ فقد أخرج البخاري في صحيحه: «فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قــال: «أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ إليهم ســبيهم، فمن أحب منكم أن يطيــب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل» فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرســول الله ﷺ لهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعــوا حتى يرفعوا إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه:

(١) أخرجه البخاري، رقم ٤٩٠٥.
(٢) أخرجه أبو داود في السنن وقال الألباني: حسن صحيح.

أنهم قد طيبوا وأذنوا»[3]، وهذا من السياســة النبوية في تعرُّف مواقف الناس والاعتداد بما يرون في ما يحق لهم، وقد راعى الرســول الكريم ﷺ الرأي العام من الأنصار لما وجدوا في أنفسهم شيئاً عندما أعطى قريشاً والعرب من الغنائم ولم يعطهم شــيئاً، فجمعهم واستمع لمقالتهم وردَّ عليهم وطيَّب أنفســهم ولــم يهمل موقفهم ولم يقل: إني رسول الله ويجب عليهم التسليم بما حكمتُ ولو قاله لكان حقاً، لكنه ﷺ آثر الطريق الأولى التي فيها مراعاة الرأي العام والتصرف المناســب حياله؛ فعن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريــش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وَجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة حتى قال قائلهم: لقي رســول الله ﷺ قومه، فدخل عليه ســعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قســمت فــي قومك، وأعطيت عطايا عظاماً فــي قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار شــيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟». قال: يا رســول الله! ما أنــا إلا امرؤ من قومي، وما أنا؟ قــال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة». قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا أتاه ســعد فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال: فأتاهم رســول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، بالذي هو له أهل، ثم قال: «يا معشــر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم وجِدَة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكــم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟». قالوا: بل الله ورســوله أَمَنُّ وأفضل. قال: «ألا تجيبونني يا معشــر الأنصــار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رســول الله، ولله ولرسوله المن والفضل؟ «أَمَا وَالله! لَوْ شِــئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وطريداً فآويناك، وعائلاً فآســيناك، أوجِدتُم في أنفســكم – يا معشر الأنصار – في لعاعة من الدنيا، تألَّفت بها قوماً ليســلموا، ووكلتكم

(٣) صحيح البخاري، رقم ٢٣٠٧.

إلى إســـلامكم؟ أفلا ترضون - يا معشـــر الأنصار - أن يذهب الناس بالشـــاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكـــم؟ فوالذي نفس محمد بيده! لـــولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شـــعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصـــار، وأبناء أبناء الأنصار» قـــال: فبكى القوم، حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رســـول الله ﷺ وتفرقوا»[1]. فاستمع الرسول ﷺ لمقولتهم وأجاب عنها وأزال ما في نفوســـهم وزاد على ذلك بأن طيـــب خاطرهم بأجمل العبـــارات. كما تمثلت مراعاة الـــرأي العام في غزوة بدر حينمـــا قال لهم كما روى أنس « ... أن رســـول الله ﷺ شـــاور حين بلغه إقبال أبي ســـفيان. قال: فتكلم أبو بكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة، فقال: إيانا تريد يا رســـول الله؟ والذي نفسي بيده! لو أمرتنا أن نُخيضَها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا»[2]، وفي لفظ في مصنف أبي شـــيبة: «فقام ســـعد بن عبادة فقال: يا نبي الله! لكأنك تُعرِّض بنا اليوم لتعلم ما في نفوسنا، والذي نفسي بيده! لو ضربت أكبادها حتى برك الغماد من ذي يمن لكنَّا معك»، وكذلك فعل في غزوة الأحزاب عندما أراد أن يصرف الأحزاب عن المدينة في مقابل ما يعطيه لهم من ثلث ثمار المدينة، لكنه ﷺ لم يفعل ذلك قبل أن يتعرف إلى رأي السعدين سعد بن معاذ وســـعد بن عبادة - رضي الله تعالى عنهما - وهما سيدا الأنصار ورأيهما يمثل الرأي العام للأنصار.

ومن مراعاة خلفائه - رضي الله تعالى عنهم - للرأي العام وتأســـيس التصرفات بناء عليه: ما تكلم به أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - في سقيفة بني ساعدة عندما اجتمع المهاجرون والأنصار لاختيار خليفة رسول الله ﷺ، فعندما أراد بعـــض الأنصار أن تكون الخلافة فيهم قال أبو بكر: «إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، الذين هم أوسط العرب نسباً وداراً»، فأبو بكر لما أراد أن يبـــين للأنصار خطأ قولهم لجأ إلى الرأي العام المســـتفاد من قوله: «إن العـــرب لا تعرف هذا الأمر... إلخ»؛ فالرأي المســـتقر عند العـــرب أنها لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش ولا تقبل به إلا أن يكون الخليفة منهم، وأبـــو بكر - رضي الله تعالى عنه - لم يكن حتى لحظة كلامـــه هذه قد بلغه حديث: «الأئمة من قريش» وإلا لو كان عنده لاحتج به بدلاً من أن يحتج بالرأي العام.

ومما يمكن حسبانه في هذا الجانب موقف عمر بن عبـــد العزيز - رحمه الله - فقد راعى ما يمكن أن يُعَدَّ من قبيل الرأي العام؛ وهو ضعف الالتزام الديني عندما آل إليه أمر المسلمين. روى الخلاَّل بسنده أن عبد الملك ابن عمر بن عبد العزيز، قال لأبيه: «يا أبت! ما يمنعك أن تمضـــي لما تريده من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القـــدور في ذلك. قال: «يا بني! إني إنما أروض النـــاس رياضة الصعب، إني أريد أن أحيي الأمر مـــن العدل، فأؤخر ذلك حتى أُخرِج معه طمعاً من طمع الدنيـــا، فينفروا من هذه، ويســـكنوا لهذه»[3]، فتصرُّف عمـــر - رحمه الله - يُعدُّ مراعاة للرأي العام؛ فقد علم منهم ضعف الالتزام الـــذي يجعلهم قابلين لما يأمر به، وأدَّاه ذلك إلى إجـــراء جديد حتى يحقق ما يريد، وهو أن يقـــدِّم بين يدي الأمر الذي قد ينفرون منه طمعاً من طمع الدنيا يســـكتهم به، وهذا فـــي حقيقته ليس رأياً عامّاً وإنما هو سلوك عام نزل منزلة الرأي العام.

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم ١١٧٣٠.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلاَّل: ١/ ٢٦.

السلاح الأمضى في (حرب الأفكار)

﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

د. عبد العزيز كامل
d.amk@hotmail.com

قريباً من أحوال العصر الذي نعيشه اليوم كان العالم محتاجاً إلى حدوث عملية تغيير كبرى عند بعثة محمد ﷺ؛ حيث كان عموم البشر (عرباً وعجماً) يعيشون صراعات متواصلة، ظاهرها سياسي أو عسكري أو اقتصادي أو اجتماعي، وباطنها ديني واعتقادي؛ إنها كانت حروب أفكار بين عقول وقلوب، ينحاز كلٌّ منها إلى ما يراه مقدساً وجديراً بأن يُفرض على الآخرين.

كانت أمة الروم الكبيرة منقسمة إلى قسمين متخاصمين:

قسم وثني صِرف، يعبد الأصنام على طريقة فلاسفة اليونان والإغريق، وقسم يعبد عيسى - عليه السلام - على أنه إله أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة. وكان نصارى الروم أنفسهم على عداوات في ما بينهم، أججتها الخلافات الجوهرية بين الكاثوليك والأرثوذكس الذين تشاركوا في صفات الانحلال والفساد العظيم دينياً وسياسياً وأخلاقياً واجتماعياً. وصدَّروا ذلك للبلدان التي سيطروا عليها في الشام ومصر.

أما الفرس - وهم شركاء الروم في إدارة العالم - فكانوا أسوأ حالاً، يقدسون الملوك بدعوى أن دماء الآلهة تجري في عروقهم، ويعبدون النار، فيحرقون بلهيبها الذي لا يخبو كل قيم الهداية والوحدانية التي جاءت بها الرسل. وأما في شرق الأرض فقد كانت الشعوب الصينية على عهد الوثنية البوذية كما هو حالها اليوم، بينما كان الهنود يعددون الآلهة من كل صنف؛ حتى قدسوا البحار والأشجار والأحجار والأبقار، مع إهانتهم للإنسان الذي لا ينحدر من الطبقات العنصرية المختارة، فينزلونه منازل أحط من البهائم.

وفي أطراف متباعدة من الأرض كان اليهود - إلا نفراً قليلاً - في شتاتهم ينتظرون الخلاص الإلهي، لكن عن طريق إيقاد الحروب بين من سواهم من البشر الأمميين الذين لا يشاركونهم في عبادة الإله الخاص ببني إسرائيل (يهوه).

وأما بلاد العرب - وسط كل هذا - فكانوا في جزيرة تستورد مما وراء البحار حثالات الديانات والأفكار، لتضيفه إلى ما عندها من إرث جاهلي عريق، يُذكَر فينكَر، ما أتاهم لتغييره من نذير ولا بشير.

لقد صدق على سكان العالم وقتها قول الله - تعالى - في الحديث القدسي: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» (صحيح مسلم) برقم (٢٨٦٥).

جاء الرسول ﷺ مأموراً بمواجهة كلِّ هذا الباطل، ومجاهدة كلِّ هذا الفساد الفكري والديني بالوحي المنزل عليه؛ ليعيد البشر إلى العبودية التي تنادي بها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتوحيد الذي جافاه ونحاه العبيد، ويردَّهم إلى الصلاح الديني والدنيوي الموصل للفلاح الأخروي. وتلك - بلاشك - مهمة كبرى وغاية عظمى، كانت جديرة بإرسال عشرات أو مئات الرسل في عشرات أو مئات القرى والمدن. لكن الله - تعالى - اختارلها رجلاً واحداً من بلد واحد ليستقل بهذه المهام الجسام في الأرض كلها، وهو محمد ﷺ حيث أمره الله - تعالى - أن يصدع بما يؤمر، وأن يبلغ ما أنزل إليه، وأن يجاهد بهذا القرآن المنزل جهاداً كبيراً، يتناسب مع كبر مهمة الهداية، وكبر مسؤولية مواجهة الكفر والغواية، فأنزل عليه:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١ – ٥٢]

بين يدي الآية:

كُلِّف النبي الخاتم ﷺ دون بقية الرسل برسالة عامة، ليست قومية ولا إقليمية، بل عالمية كونية، لا تقتصر على البلاغ حتى تضم إليه البيان، ولا تنازل الأساطير والخرافات الفكرية الاعتقادية؛ إلا وتواجه معها الانحرافات التشريعية والسلوكية، ولا تكتفي بأمور سعادة الناس في الآخرة، حتى تصلح بالدين دنياهم. وكل ذلك انطلاقاً من بقعة صغيرة من الأرض، مَنْ يعاديه فيها ويحاصره أكثر ممن يؤيده ويناصره، وفي وسط أمة كانت في المؤخرة، ومجتمع لم تكن له مؤهلات أو تطلعات إلى ريادة أو قيادة فيكون عوناً له، بل كان بتفرُّقه وخذلانه عبئاً عليه. ولم يكن ﷺ مطالباً بتغيير هذا الواقع وهو في برج عاجي من أبراج الفلاسفة المنظِّرين، أو صومعة نائية للمتأملين المنقطعين، أو حصن منيع من حصون الملوك المحروسين المتعالين، بل كان عليه ﷺ أن يغيِّر في أفكار الناس وعقائدهم وهو يعايشهم في مجتمعاتهم، ويغشى مجالسهم، ويمشي في أسواقهم، مؤثراً فيهم غير متأثِّر بهم، وهو ﷺ لم يكن في موقف الإلقاء والناس حوله في موقف الإصغاء، كلا؛ بل كان أكثر خواصهم يجادل بالباطل ويغضب له، وعوامهم يهرفون بما لا يعرفون في حمية جاهلية، لا يصبر على معالجتها إلا إنسان مؤيَّد منصور، وهو ما استوجب أن يجتمع في شخصه ﷺ ما تفرق من مناقب وصفات جميع المرسلين الذين انتُدبوا لمعالجة جميع أدواء الأمم وأمراض البشر، من المرسلين والأنبياء السابقين قبله، فاجتمعت فيه عظيم الصفات والسمات: كثبات نوح، وجسارة هود، وهدوء صالح، وقنوت إبراهيم، وتقوى يوسف، وبسالة موسى، وصبر أيوب، وشجاعة داوود، وفطنة سليمان، وسماحة يحيى، ووداعة عيسى (عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه).

ولنا الآن وقفات مع ما في الآية من فقرات:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾

المعنى – كما أورده الطبري[1] –: ولو شئنا يا محمد لأرسلنا في كل بلد أو قرية نذيراً ينذرهم بأسنا، ويخوِّفهم من عاقبة الكفر والعصيان، فتخف بذلك أعباء القيام بالرسالة للكافة وحدك، ولكنا حمَّلناك ثقل نذارة الجميع، لتستوجب جميع ما أعد للمرسلين من الكرامة.

وفي تلك الفقرة من الآية، أمور جديرة بأن نجدد بها إيماننا بعظمة الرسول ﷺ، وعظمة رسالته، منها:

- أن الله – تعالى – اختاره من بين الأنبياء، ليكون رسولاً للعالمين مستقلاً بشخصه في تحمُّل أعباء رسالة عامة، لا تخص زمانه ولا مكانه، بخلاف غيره من الرسل، ويدل على هذا مدار سورة الفرقان التي من ضمنها هذه الآية؛ حيث ابتدأت بتقرير عموم الرسالة، وعالمية القرآن. (التحرير والتنوير لابن عاشور)، (تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي).
- ومنها: أن الله – تعالى – جعل عظمة شخصه ﷺ معادلاً لجميع أشخاص الرسل، الذين كان يمكن إرسالهم إلى جميع القرى في حال لم يرسله هو؛ ولذلك أعطاه من العلم والفهم، ومن القوة والقدرة على التحمل والصبر، ما كان يمكن أن يتحمله عشرات الأنبياء والرسل، في عشرات المدائن والقرى، ولتتوحد الرسالة، ولا تتفرق على ألسنة عشرات الرسل. (في ظلال القرآن لسيد قطب).
- ومنها: أن الله – تعالى – لما بعثه رسولاً للعالمين، وبديلاً عن كثير من المرسلين؛ كانت له أجورهم جميعاً وأجور جميع من استجاب له إلى يوم الدين من الإنس والجن؛ فثقل بذلك ميزانه وعظمت منزلته وارتفعت درجته، حتى كان جديراً بالوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة. (تفسير البغوي)، (تفسيرأضواء البيان للشنقيطي، الآية ٧ من سورة الرعد).
- ومنها: أن رسالته ﷺ لما كانت لا تخص زمانه ولا مكانه ولا قومه، احتاجت كتاباً غير محدود في مكان، ولا موقوت بزمان ولا مخصوص بنوع إنسان، فجاء هذا القرآن الذي هو أعظم الكتب تشريفاً لمن تنزل عليه، ولمن قام به.

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾

بعد أن بدأت الآية بإظهار عظمة الرسول ﷺ ورِفعَة قدره بالرسالة التي تنزَّلت عليه في القرآن، جاءت بحضِّه على شكر تلك النعمة بأن يجاهد بهذا القرآن، ولا يطيع فيه أهواء الضالين من جميع الأصناف وفي جميع البلاد؛ فالمعنى: إنا فضلناك بالرسالة إلى الكافة، فبلِّغها كافة، ولا تطع في ترك أي شي منها أنواع المبطلين كافة. ونستفيد من هذه العبارة في الآية جوانب عملية مهمة، ينبغي نلحظها في مسيرتنا الدعوية، منها:

- كلما كبرت المنزلة العلمية والدعوية، عظمت المسؤولية، وكلما عظم الطمع في الأجر، تطلب ذلك كثرة المجاهدة. فبعد أن أعلم الله رسوله ﷺ بعِظَم منزلته في الآية، أعلمه بعظم مسؤوليته، وكلفه بذلك التكليف الكبير. (البحر المحيط لابن حيان).
- الداعي إلى الحق عليه واجبان تجاه دعوات الباطل: الأول: أن يبطلها في نفسه فلا يستجيب لها، والثاني ألا يطيع أصحابها في حرصهم على الكف عن كشف زيفها والدعوة إلى ضدها من الحق. (القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين).

(١) سبق التنبيه في مقال سابق من هذه الزاوية، أن العزو إلى كتب التفسير لا أذكر فيه الجزء أو الصفحة، لتعدُّد الطبعات، ولكن أكتفي بالإشارة لما هو معروف من اسم السورة، ورقم الآية، التي هي موضوع المقال، كما أني لا أنقل حرفياً كلام المفسر في الغالب، ولكن المعنى الذي أشار إليه.

● أصحاب الضـــلال والهوى يحبون أن يطاعوا في هواهم، ويتمنون ذلك، لكن المطلوب أن نطيع الله فيهم؛ وذلك بمخالفتهم وإبلاغها، بألا نترك إبلاغهم تبعاً لأهوائهم. (تفسـير السـعدي)، (تفسير البغوي).

● نحن لا نطيع الكفار في ما كان ديناً صحيحاً في الأصل ثم نُسخ؛ فكيف بالباطل المخرِّف والدين المحرَّف الذي كتبوه بأيديهم ويريدون منا أن نقرَّهم عليه؟ بل كيف بما صاغوه من تشـريعات وأنظمة أرضية وضعية، وضعوها مضاهاة وضِراراً للتشـريعات الإلهية، ويريدون منا أن نحكم بها ونتحاكم إليها؟ إن ذلك لو حدث لكان شـركاً في التشريع، كما قال الله – تعالى –: ﴿ **وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾ [**الكهف** : ٢٦]، وفي قراءة ابن عامر «فلا تشرك في حكمه أحداً» (أضواء البيان الشنقيطي، الآية / ٢٦ من سورة الكهف).

● الوصـف بـ (الكافريـن) هنا، دلالة علـى العلة في الأمر بترك طاعتهم، وهي علة تغطيتهـم للحق وجحده، فينبغي الحذر مـن طاعتهم فـي القضايا المتعلقة بالاعتقاد؛ لأن من شـأنها أن توصل إلى الكفر إذا استمرت واستُمرئت، كما قال الله – تعالى –: ﴿ **يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٩]، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٠].

﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾

هذا خطاب له ﷺ ومن بعده أهل الدعوة من أمته، باستغراق الوسع في مدافعة الباطل الاعتقادي والفكري بهذا الكتاب المبين وبمنهجه القويم؛ فالضمير في (به) يعود على القرآن – كما قال ابن عباس (رضي الله عنهما) – أو يعود على الإسلام – كما قال ابن زيد – (يراجع تفسير الطبري للآية). والأول أقرب.

ونستفيد من هذه الفقرة من الآية قواعد مهمة في الصدع بالدعوة والمنافحة عنها:

● القـرآن الكريم أعظم نعم الله، والجهاد بآياته بعد الاهتداء بهداياته من شُـكْر نعمته، والخروج من هجره الذي شكاه الرسول ﷺ إلى ربه، كما ورد في سورة الفرقان نفسها ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾ [**الفرقان** : ٣٠]. فمن هجر القرآن هجر الجهاد به، والاقتصار على المقالات والنقولات والنظر العقلي. وكما تقابل نعمة القرآن بالشـكر جهـاداً به ودعوة إليه، فيجب أن تقابل بالصبر على مشاق تلك الدعوة والأذى في سبيلها.

● المجاهدة فـي قوله: ﴿ **وَجَاهِدْهُم** ﴾ علـى وزن (مفاعلة) وهـي لا تكون إلا بين طرفين يجاهد كلاً منهما الآخرُ: أحدهما هنا يجاهـد بالوحي، والآخر يجاهِد بالهـوى، فلا ينفك الأمر عـن جهاد؛ فمهما تركنا أو أهملنا جهاد أهواء المبطلين بالقرآن، فلن يتركوا هم مجاهدتنا، وسيغزونا بها في عقر دارنا. (التحرير والتنوير لابن عاشور).

● عندما نجاهد بالقرآن، فالأصل الدعوة بالرفق وبالتي هي أحسن. أما المعاند فتنبغي معه المفاصلة والشدة، وإظهار ما جاء به الوحي من أحكام وعقائد ومواعظ، بلا تهيب أو مجاملة؛ فالباء في ﴿ **وَجَاهِدْهُم بِهِ** ﴾ للملابسـة، والمعنى جاهدهم بالقرآن بإبلاغ آياته والاحتجاج ببراهينه وبأحكامه وعقائده وما فيه من زواجر وقوارع، جهاداً ملابساً تَرْكَ طاعتهم، وكأنه قيل: فجاهدهم في حال عنادهم بالشدة وبما فيه مما يخالف أهواءهم؛ لا بمداراتهم ومجاملتهم. (تفسير أبي السعود)، (تفسير الألوسي).

● الأمر بالجهاد هنا منصـرف إلى جهاد الدعوة والحجة، وهو جهاد اللسـان لا السيف – كما هو الظاهر من سياق سورة الفرقـان المكية – أما جهاد السـلاح فمأخوذ من نصوص أُخَر، والآيـة تدل على أن الدعوة والمحاجة بالوحي من جنس الجهاد؛ إذ الجهـاد نوعان: جهاد دعوة يتضمن إبطـال الباطل وإحقاق الحق فـي الصورة النظرية، وجهاد قتـال ينصرف إلى الناحية العملية، وهذا ينقسم إلى جهاد دفع لصد المعتدين على حرمات الله، وجهاد طلب لإزالة بأس الصادين عن سـبيل الله. (زاد المعاد لابن القيم: ٣/٥)، (تفسير ابن أبي زمنين).

● جهاد الدعوة والحُجة والبيان أسبق وأهم من جهاد السلاح والسـنان، وهذا – كما قال ابن القيم –: «لعظيم منفعته، وشدة مؤنتـه، وكثرة أعدائه»، ولأنه لولا قـوة الحجة، لما أفادت حجة القوة، ولما أدت شرعة الجهاد مقاصدها من الهداية والإصلاح. ودخـول الناس في دين الله أفوجاً، ولأن المجاهد بلسـانه يكون جهاده أخوف على نفسه؛ لأنه يكون بين ظهراني من يجاهدهم، وتحت سطوتهم في الغالب. (زاد المعاد: ٣/٥)، (تفسير البيضاوي).

● من الجهاد بالقرآن تلاوته علـى المخالف، وهذا يتضمن إيصالاً لمعانيه التي يشـترك في فهم معظمها أكثر الناس، لقوله – تعالى – ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [**القمر** : ١٧]، فبلفظه المباشـر في الغالب تقوم الحجة وتصل المحجة (تفسـير القرآن المجيد لابن عجيبة)، (تفسير إرشاد العقل السليم لأبي السعود)

أما مـن لا يعرفون لغة العـرب، فيبلَّغون بأيسـر التراجم الصحيحة للقرآن؛ فالقرآن ألفاظ ومعانٍ، وتلك المعاني تخاطب الفطرة بأي لسـان. والوجـدان والعقل يُخاطَـب بالمعاني قبل الألفاظ.

● المجاهدة بالقرآن تحتاج منا إلى اسـتحضار واستقصاء وبحث؛ فالنص الواحد في القرآن تُكرِّر معانيه وتقررها نصوص قرآنية أخـرى، وما لم تظهر معانيه رغـم ذلك، تبينه نصوص السـنة الصحيحة الموضِحـة، فإن لم يَرِد من السـنة ما يكفي للبيان؛ كانت أقوال السـلف – من الصحابـة والتابعين – بياناً إضافياً، كما قرر ذلك ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير.

● ضمير الغائب في قوله: ﴿ **وَجَاهِدْهُم بِهِ** ﴾ يعود على أصناف

الكافرين الظاهرين، فهم المقصـــودون أولاً بجهادنا بالقرآن في الآية. وكل باطل يؤول إلى الكفر من الاعتقادات والأفكار القديمة والمعاصرة، يوجد في القرآن رد عليه، علمه من علمه وجهله من جهله، لقولـــه – تعالى –: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] (نظم الدرر للبقاعي).

● الأمـــر بجهاد الحجة والدعوة يوجَّه أيضاً لأنواع المنافقين المتظاهرين بالإســـلام – وما أكثرهم – مثلما هو موجَّه لأصناف الكافرين الظاهرين في الكفـــر، وكلا الفريقين يجاهَدان – في حال عنادهم – بالحجة مع الشدة، كما في قوله – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

● لا ينبغـــي أن نقلل مـــن أهمية جهاد المنافقـــين بالقرآن، فجهادهـــم – كما قال ابن القيم –: «أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرســـل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشـــاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهم الأعظمـــون عند الله قدراً» وهو «أكبر الجهادين، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، بل ربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال – تعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (مفتاح دار السعادة: ١/٧٠).

● يدخل في جهادنا بالقرآن جهاد أهل الأهواء والبدع الغليظة، وبخاصـــة الرؤوس منهم، وهؤلاء لا أبلـــغ ولا أمضى في الرد عليهم من نصوص الوحي المعصوم، ومن تأمل مناظرات ومساجلات وردود الأئمة من أهل العلم على المبتدعة؛ وجد أن ردودهم في الغالب تتفرع عن معاني نصوص الوحي الذي لا حيلة لهم في ردِّه أو تكذيبه.

● ينبغي أن نكون على ذكر بأن الانحرافات الفكرية المعاصرة المنحرفة عن هدايات الرسل، لا تحصين للمسلمين من إضلالها وإغوائها، إلا بنصوص القرآن الحاسمة، ثم نصوص السنة الثابتة؛ شـــرط أن يكون فَهْم هذه النصوص مأخوذاً عن ســـلف الأمة؛ فالفكر العَلماني في شـــقه الشرقي: (الشـــيوعية والاشتراكية) والفكر العَلماني في وجهه الغربي: (الليبرالية) برأســـماليتها في الاقتصـــاد، وديمقراطيتها في السياســـة، وحرياتها المنفلتة في الاجتماع؛ هذه العلمانية بتلوناتها وتقلُّباتها؛ ليس أجدر بكشـــف زيفها وفضح زيغها أمام المسلمين من القرآن. وكذلك كل الأفكار الوافدة الباطلة وأصول البدع القديمة والمعاصرة؛ في القرآن ردٌّ عليها لمن بحث وتدبَّـــر، لقوله – تعالى –: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨][1].

● كلما كان انتشـــار دعوة من الباطل أكثر، وكان تأثيرها في إضلال الناس أخطر، احتاجت من العلماء والدعاة إلى جهاد أكبر، وتعـــيَّن عليهم الصدع بإبطالها على قدر انتشـــارها، وذلك بتقرير المعاني القرآنية المضـــادة وتكريرها، أما البدع القديمة التي ماتت ولا تجد من يجاهد بها أو لأجلها، فلا حاجة لمزيد الانشـــغال بها (إلا للمتخصصين)؛ فالأعمار لا تتســـع لأن تُنفَق في الرد على كل المقالات التي كان الشيطان قد أوحى بها إلى من يصغون له.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾

وصف الجهاد هنـــا بأنه (كبير) جاء لاعتبارات كثيرة، لا بد أن يستحضرها الدعاة، منها:

● أن جهاد الدعوة لا بد أن يشـــتمل على شـــرطي الإخلاص والصـــواب؛ فالدعوة بلا إخلاص لا تقبل، وهي بلا صواب واتباع لا تجدي. والجهاد بالقرآن لا يكون كبيـــراً إلا إذا كان ظاهراً وباطناً، (تفســـير القرطبي) (تفسير حقي) فلا بد من مجاهدة الباطل بالقلب قبل اللسان أو اليد، كما قال ﷺ: «فمن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك مثقال حبة خردل من إيمان) (رواه مسلم، برقم ٥٠).

● وجهـــاد العلماء والدعاة بالقرآن يكـــون كبيراً حين يكون شـــاملاً للكم والكيف، فيكون شـــديداً في ما يستوجب الشدة، وكثيراً مكرراً في ما يســـتدعي الكثرة والتكرار. (تفسير الألوسي)، ونصوص الجهاد بالقـــرآن في مظانها كبيـــرة وكثيرة في كمِّها وكيفها، ولها قوة دفع خاصة تمكِّن المدافع بها من لجم الخصوم، وجذب المنصفين. (تفســـير ابن عاشور) (تفســـير الظلال). والآية تدل – كما قال الألوســـي –: «على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين، بما يوردون عليهم من الأدلة، وأوفرهم حظاً: المجاهدون بالقرآن منهم».

● جهاد أهل العلم والدعـــوة بالقرآن؛ يكون كبيراً على قدر ما يترتب عليه من آثار؛ فهو قد فُرِض على الرســـول ﷺ، وعلى القائمـــين بالدين بعده لوظائف عظام، يأتي على رأســـها إقامة الحجة على التوحيد، ودحض شبهات الشرك والكفر، والتمكين للحق والســـنة، وإبطال مقولات المبتدعـــة، وتكثير أتباع الحق، وتفريـــق صفوف الباطل، وكل ذلك وعلـــى قدره، تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا الســـفلى. وقد كان جهاد الرسول ﷺ بالقرآن محققـــاً لكل ذلك، فكان جهاداً كبيراً حقاً؛ لأنه كان مواجهة للعالم في عصره، وظل نبراســـاً بعد عصره لكل الهداة المهتدين. (تفسير أبي السعود) (تفسير البحر المحيط).

وقـــد ضمن الله – تعالى – بقـــاء طائفة من أمة محمد ﷺ ســـائرة على نهجه في البقاء على الحـــق علماً وعملاً، تحصيلاً وإظهـــاراً، انتصاراً للقرآن، وجهاداً به، وهو ما أخبر عنه ﷺ في قوله: «لا تـــزال طائفة من أمتي على الحـــق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهـــم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». (مسند أحمد، رقم ٢٢٣٠٢).

(١) وسوف تكون – بإذن الله – في هذه الزاوية منازلات قرآنية للأخطر من هذه الأفكار.

﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

أ. د. ناصر بن سليمان العمر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين فلا نبي بعده ولا شرع باقٍ غير شرعه، ورضي الله عن آله وأصحابه الذين بلَّغوا الدين واستقاموا عليه حتى جاءهم اليقين: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وبعد:

فقد رغب إليَّ أخي الشيخ أحمد الصويان (رئيس تحرير مجلة البيان) كتابة مقال دوريٍّ في المجلة، فتم الاتفاق على كتابة مقال كلَّ شهرين، تحت زاوية (كلمات في المنهج)؛ ذلك أن من أهم معارك الأمة اليوم هي معركة (المنهج)؛ حيث إن الأعداء وجدوا أن معارك القتال تنتهي - غالباً - بانتصار المسلمين ولو بعد حين، مع ما يتكبده الأعداء من خسائر فادحة؛ لذا ركَّزوا على المعركة داخل الصف الإسلامي نفسه بين علمائه ودعاته؛ حيث آتت هذه الخطة أُكُلَها بأقل الخسائر؛ وذلك بتبنِّي مناهج منحرفة تقاوم المنهج الحق، الذي سار عليه سلف هذه الأمة في القرون المفضَّلة، وتقارير (راند) الدورية تكشف عن هذا المخطَّط الماكر.

لذا كان لزاماً على علماء الأمة ودعاتها التصدي لهذه المناهج المضلِّلة؛ حيث وقع في شَرَكها دعاةٌ وطلابُ علم، فتبعهم على ذلك فئام من الدهماء والمثقفين.

وانطلاقاً من هنا سأتحدث - بإذن الله - في كل مقال عن قضية من القضايا، وقد لا يبدو الترابط بينها ظاهراً، لكن في المحصلة النهائية هي معالم رئيسية من معالم السير إلى الله على منهج أهل السنة والجماعة، مما يساهم في بيانه والثبات عليه في ظل هذه الحرب الشرسة والمكر الكبَّار، ولَبْس الحق بالباطل، ممن ضل فأضل وضل عن سواء السبيل.

وأسأل الله التوفيق والسداد وحُسْن القصد.

عنوان المقال جزء من الآية الثامنة والأربعين من سورة المائدة.

قال – تعالى –: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن عباس: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سبيلاً وسُنة. وقال في القاموس: النهج: الطريق الواضح كالمنهج والمنهاج، وقال ابن كثير هو: (الطريق السهل الواضح).

قال ابن كثير – رحمه الله –: «هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «نحن – معاشر الأنبياء – إخوة لعلات، ديننا واحد»[1]– يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمَّنه كل كتاب أنزله، كما قال – تعالى –: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي؛ فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه. وذلك لما له – تعالى – في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة»[2].

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، يقول: «سبيلاً وسُنة، والسنن مختلفة: هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يُحِل الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذي جاءت به الرسل».

الفرق بين الشرعة والمنهاج:

فأمة محمد ﷺ لها شرعة ولها منهاج يخصها، والمنهاج أخص بهذه الأمة من الشرعة؛ فالشريعة قد تتفق كأصل الصلاة والصيام والزكاة ويختلف المنهاج؛ فالصيام كتب علينا كما كتب على الذين من قبلنا، لكن الله أحل لنا ليلة الصيام الرفث، وجعل لصلواتنا من الشروط والأحكام ما لم تكن عند غيرنا، وهكذا كثير من الشرائع المشتركة في أصلها قد يتباين المنهاج الموضوع للأمة فيها عن سائر الأمم، والمقصود أن منهاج هذه الأمة أخص من مناهج غيرها.

والمنهاج الحق الذي يجب أن يدين به المسلم هو (المنهاج الذي كان على هدي السنن النبوية والطريقة الأولى).

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٤٤٣).
(٢) ابن كثير (٣/ ١٢٩).

فإن هذه الأمة افترقت فِرَقاً كما صح الخبر عن الصادق المصدوق ﷺ في حديث أبي هريرة: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة»[1].

قال البيهقي: «ويشبه أن يكون اختلاف هؤلاء وأمثالهم أريد بما روينا في حديث أبي هريرة، والذي يؤكده ما روي في حديث معاوية في هذا الحديث أنه قال: (كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة) وفي حديث عمرو بن عوف (إلا واحدة الإسلام وجماعتهم) وفي حديث عبد الله بن عمرو (إلا واحدة ما أنا عليه وأصحابي)»[2].

«وإنما اجتمع أصحابه على مسائل الأصول؛ فإنه لم يُروَ عن أحد منهم خلاف ما أشرنا إليه في هذا الكتاب؛ فأما مسائل الفروع فما ليس فيه نص كتاب ولا نص سنة، فقد اجتمعوا على بعضه واختلفوا في بعضه؛ فما اجتمعوا عليه ليس لأحد مخالفتهم فيه، وما اختلفوا فيه فصاحب الشرع هو الذي سوغ لهم هذا النوع من الاختلاف؛ حيث أمرهم بالاستنباط وبالاجتهاد مع علمه بأن ذلك يختلف، وجعل للمصيب منهم أجرين وللمخطئ منهم أجراً واحداً، وذلك على ما يحتمل من الاجتهاد ورفع عنه ما أخطأ فيه»[3].

«قال عبد القاهر: للحديث الوارد في افتراق الأمة أسانيد كثيرة، وقد رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة؛ كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأُبَي بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع، وغيرهم، وقد روى الخلفاء الراشدين أنهم ذكروا افتراق الأمة بعدهم فرقاً وذكروا أن الفرقة الناجية منها (فرقة واحدة) وسائرها على الضلال في الدنيا والبوار في الآخرة»[4].

(١) سنن أبي داود (٥٤٩٦)، والترمذي: (٢٦٤٠)، وقال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

(٢) وهذه الزيادة حاول بعض المعاصرين الطعن فيها وهي ثابتة، فلفظ (من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي) رواه الترمذي (٢٦٤١)، وقال هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه، ورواه الحاكم (١/١٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه الطبراني في الأوسط (٨/٢٢) من حديث أنس وقال لم يرو هذا الحديث عن يحيى بن سعيد إلا عبد الله بن سفيان المدني، وياسين الزيات. أما لفظ (وهي الجماعة) فرواه أحمد (٤/١٠٢)، وأبو داوود (٤٥٩٧) من حديث معاوية، وأحمد (٣/١٤٥) وابن ماجه (٣٩٩٣) من حديث أنس وابن ماجه (٣٩٩٢) من حديث عوف بن مالك. وصححه شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣/٣٤٥-٣٥٩) وعلق عليه بتعليق طويل وذكره الكتاني في كتابه نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص٥٧). ومعناه تشهد له الآية: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً).

(٣) الاعتقاد (ص٢٣٣).

(٤) الفرق بين الفرق (ص٥).

ومما سبق نخلص إلى بعض النتائج:

أولاً: قضايا التوحيد والأصول الكلية مما جاءت به الرسل جميعاً، وكذا مكارم الأخلاق ومحاسن العادات على تفاوت بين التشريعات فيها.

ثانياً: لهذه الأمة شرعة ومنهاج اختصها الله به، وهذا من جملة إنعامه - سبحانه وتعالى - على هذه الأمة، وهذا الاختصاص لا يمنع الاشتراكَ في بعض الجوانب.

ثالثاً: بين الشريعة والمنهاج وبعض الأصول الكبرى علاقة، غير أن المنهاج أعم؛ فالمنهاج منه قضايا كبرى ليست من أصول الاعتقاد؛ ولكنها مما اختصت به هذه الأمة وأجمع عليه سلفها، ومسائل الاعتقاد فيها أصول كبرى لكنها مشتركة مقرَّرة في الشرائع كلِّها؛ فمن ضل فيها من أهل الإسلام فقد خالف الحق الذي عند أهل الملل قاطبة، ومن أصاب فيها لا يلزم أن تتعدى إصابتُه إلى كامل المنهاج الذي اختص الله به هذه الأمة، وسار عليه سلفها، رضوان الله - تعالى - عليهم.

وإذا تقرر هذا، عُلِم أن الضلال قد يكون في بعض مسائل الاعتقاد؛ فإن حدث في الأصول فهو ضلال عظيم يزداد بحسب الإيغال في الضلال، وبحسب الأصل.

وقد يكون الضلال كذلك في مسائل المنهاج المختصة بها هذه الأمة.

والمنهاج الذي يعظم خطر الحيدة عنه بين أهل الملة هو هذا المنهاج الذي كان عليه الرعيل الأول.

أما ما اختلف فيه أهل السنة وكانت لهم فيه مناهج مختلفة ككثير من مسائل الفروع، فالصحيح أن المنهاج الذي رضيه الله وشَرَعه واحد منها، وتارة يكون مع طائفة أهل السنة وأخرى مع طائفة أخرى، غير أن العذر لمخالِفه قد يكون قريباً.

أما ما اجتمعت عليه الأمة فلا تجوز مخالفته، وكذا ما اجتمع عليه أهل السنة والجماعة، فهو المنهاج القويم الذي لا تسوغ الحيدة عنه، فإنهم هم الفرقة الناجية المنصورة.

وعلى هذا يمكن أن نقسم المنهاج إلى ثلاثة أقسام باعتبار مخالفته:

الأول: منهاج عام لأهل الإسلام اختلف فيه أهل السنة وغيرهم، فشأن الخلاف في هذا قد يكون واسعاً طالما صدر عن اجتهاد سائغ، ولا ينبغي أن يشنَّع على المخالف فيه.

الثاني: منهاج خاص بالفرقة الناجية والطائفة المنصورة اجتمعت عليه، فمخالفه على خطر، وقد يُعذَر إن كان أهلاً للعذر، مع شناعة مخالفته.

الثالث: منهاج أجمعت عليه الأمة قاطبة كشأن كثير من القطعيات، فهذه المخالَفة فيها قد تُخرِج عن الملة.

أما الأول: فمثل كثير من المسائل الفقهية والفروع العملية، وبعض الفروع العملية التي اختلف فيها الأئمة.

وأما الثاني: فمثل مخالفة أهل الفرق الإسلامية، والبدع المِلِّيَّة لأهل السنة والجماعة من أتباع الصدر الأول.

وأما الثالث: فمثل مخالفة بعض اللبراليين، وأصحاب البدع الكفرية من منتسبي الإسلام.

ومن هنا يُعلَم أن بعض أهل السنة قد يخطئون في مسائل ولا يخرجهم ذلك عن حد أهل السنة في الجملة، وبعض أهل البدعة والفرقة قد يصيبون الحق في مسائل ولا يدخلهم ذلك في زمرة الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

وطائفة أخرى على النقيض من هؤلاء تَعُد كلَّ انحراف عن منهاج السنة مخرِجاً لصاحبه عن دائرة أهل السنة والجماعة إلى إحدى الفرق التي وافقها بانحرافه في تلك المسألة.

والحق التوسط؛ فإن من التزم أصول طائفة مخالفة لما كان عليه السلف الصالح فلا ينبغي أن يُعَد من أهل السنة بالإطلاق الخاص، الذي يشير إلى الالتزام بهدي السلف وما أجمع عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - ولم ينطقوا بخلافه؛ فالذي يلتزم - مثلاً - بمذهب الأشاعرة في الإيمان وفي الصفات وفي القدر ليس من أهل السنة بالإطلاق الخاص وإن كان قد يطلق على أمثال هؤلاء الأشاعرة والماتريدية ونحوهم من الفرق الأقرب مخالفة من غيرهم أنهم من أهل السنة بالإطلاق في مقابل الرافضة والقدرية ونحوهم ممن عظُمَت مخالفتهم من منتسبي الإسلام.

أما من غلط في بعض تلك المسائل ظناً منه أن هذا الذي نحا إليه هو مذهب السلف اجتهاداً غلط فيه لتأثُّره بالبيئة التي نشأ فيها أو لغير ذلك مما يُعذَر به، فلا يخرج عن دائرة أهل السنة والجماعة، وينبَّه على غلطه ومخالفته سبيلَهم، ويُرَد الباطل الذي قاله مع علمنا أنه منا جملة أهل السنة، ما لم يتعدَّ غلطُه إلى جملة الأصول التي تجعله بها الفِرَق الأخرى من جملة أهلها ما دام قائلاً بها.

مع إثباتنا انحرافه عن منهاج الحق في تلك المسائل.

من فوائد وثمرات هذا التقسيم:

أولاً: معرفة ما تجب للمرء من المحبة والنصرة: فأهل السنة بالإطلاق الخاص يجب لهم من الحب والولاء والنصرة أعظم مما يجب لغيرهم؛ فإنه من المتقرَّر أن الحبَ في الله والبغضَ في الله أوثقُ عرى الإيمان، ومن كان إلى منهج الله أقرب وجب له من الحب والولاية ما لا يجب لغيره.

وأما من ابتعد عن السنة ومنهاج الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فيضعف هذا الحب والولاء معه بحسب ابتعاده حتى (ينبتَّ) فلا يبقى له ولاء ولا تكون له في القلب محبة، ككثير من أصحاب البدع الكفرية المغلَّظة.

ثانياً: عدم إخراج فئات من أهل السنة بمخالفات وقعوا فيها أو أخطاء في منهاجهم تلبَّسوا بها جراء نظر واجتهاد مع التزامهم سائر أصول أهل السنة.

ثالثاً: عدم الخلط كذلك بين أهل السنة وغيرهم ممن انحرف عن أصولهم وسلك مناهج غيرهم، فلا يستوي داعي الهدى الذي يمشي على نور من الله، مع غيره وإن كان مخطئاً معذوراً.

رابعاً: معرفة من كان خارج دائرة أهل السنة الخاصة أو العامة، والعلم بأقسام الناس في قربهم وبعدهم عن المنهاج السوي والصراط المستقيم له أثر في تقسيمهم إلى أربعة مجموعات من حيث البرامجُ العمليةُ والدعويةُ، وهذه الفئات هي: صاحب المنهاج المستقيم، وقريب منه من وقع في خطأ لم يبعده، وبعدهما من خرج عن دائرة أهل السنة والجماعة الخاصة بمن ترسَّم هدي السلف واقتفى أثر الصحابة، وأبعد من هؤلاء أصحاب البدع الغليظة كالرافضة وأمثالهم.

فالقسم الأول والثاني: قد يجتمع على مشاريع كثيرة تخدم منهاج أهل السنة.

والثالث: لا يصلح أن يجتمع مع أهل السنة على رفع منهاج السنة، إلا في قضايا محددة، أو في ظروف معينة؛ كأن يكون هؤلاء هم أهل السنة باعتبار من سواهم، أما في المشاريع الإسلامية الأعم في مقابل غير المسلمين فقد تقتضي المصلحة التعاون معهم، ومن ذلك الجهاد بضوابطه حسب ما قرره أهل السنة والجماعة.

أما القسم الرابع: فينبغي أن يُحذَر ويُعلَم أنه لا التقاء معه إلا إن كان التقاءً من جنس الذي يكون مع أهل الملل الأخرى كما قرره السلف.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قواعد التربية الناجحة

(دراسة منهجية في وصايا لقمان الحكيم)

نـــادر محـمـد الـعـريـقـي
Nadder22@yahoo.com

إن الحكيـــم هو الـــذي يتعهد ولده بالتربيـــة والرعاية في الصغر، رجاء أن يجني البر والإحســـان في الكبر. وهناك كثير من النمـــاذج التي حقق فيها الآباء نجاحـــاً ملحوظاً في تربية أبنائهم، ومن أفضل النماذج التي ننصح بها الآباء ليســـتخلصوا منهـــا القواعد المثلـــى في التربية، هي وصايـــا لقمان الحكيم لولـــده؛ تلك الوصايا التي بلغ من قدرها عند الله – تعالى – أن خلَّد ذكرهـــا في أعظم كتاب تلقَّته البشـــرية، وزاد من قدرها أن صاحبها لـــم يكن رجلاً عادياً؛ بل كان رجلاً شـــهد الله له بالحكمة، وهي شهادة عظيمة كونها من أحكم الحاكمين، وجعل اســـم هذا الرجل عنواناً للسورة التي ذكرت فيها هذه الوصايا، والتـــي يتلوها ملايين الآباء في كل جيـــل من هذه الأمة لتكون لهم منهجاً في القيام بالمسؤولية التي أوكلتْ إليهم، والمتمثلة في إعداد الأجيال القادمة لتولِّي زمام الخلافة في الأرض.

ودراســـتنا لهذه الوصايا ليست شـــرحاً لها، فهذا جهد قـــد كفانا إياه المفســـرون أجزل الله ثوابهم؛ وإنما دراســـتنا هي اســـتخراج للقواعد التي قامت عليه هذه الوصايا، والتي – في رأينا – لا تقل أهمية عن شـــرح هـــذه الوصايا بل قد تزيـــد؛ اعتقاداً منَّا أن التربية الناجحة ليســـت مجرد وصايا ومواعظ لا تقوم على أســـاس، يتلقاهـــا الآباء عن أبائهم ثم يلقنونها لأبنائهم؛ بل لا بد أن تكون وصايا قائمة على قواعَد صحيحةٍ ينتهجها الآباء في تنشئة أبنائهم عند الطفولة حتى تؤتي التربية ثمارها، وتتلاءم مع المستجدات والمتغيرات التي طرأت على زماننـــا وزادت فيها احتياجات أبنائنا إلى وصايا أخرى مناسبة تجعلهم قادرين على العيش في زمانهم بفاعلية، والقيام بواجـــب الخلافة التي خُلقوا لهـــا. لكل ذلك كان لا بـــد من ذكر هذه القواعد الضابطـــة والموجِّهة لهذه الوصايا وكشـــفها؛ ليدرك الآباء الحكمة في وصايا لقمان فيضعوها في موضعها المناســـب وفي الوقت المناسب بما يحقق الغاية المنشـــودة والأهداف المقصـــودة من التربيـــة، وقد قيل عن الحكمة: إنها (وضع الشـــيء المناســـب في المكان المناســـب) ويمكن إجمال هذه القواعد في ما يلي:

أولاً: تعهُّـــد الأب ابنَـــه بالنصـــح والتوجيـــه، وهو ما يزال تحت كنفه؛ وبالأخص فـــي المراحل الأولى من العمر التـــي يتهيأ فيها الأبناء لاكتســـاب القيم، وتبدأ فيها وضع البصمات الأولى في تكوين الشـــخصية؛ فالتربية الناجحة ليســـت نظراتٍ خاطفةً، ولقاءاتٍ عابـــرةً ينتظر الآباء أن يجنوا من ورائهـــا ثماراً ناضجة؛ بل هـــي مراحل طويلة، ومجالـــس متعددة، يلتقـــي فيها الآباء بالأبنـــاء ليُراجعوا الماضي فيصلحوا ما فســـد، ويقوِّموا مـــا اعوجَّ، وينظروا في الحاضر والمســـتقبل فيضعوا لَبِنَاتٍ جديدةً من المعارف النافعة، والأخلاق الفاضلة بحســـب حاجات أبنائهم، وهذا ما ذكره الله – تعالى – عن لقمان: ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ** ﴾ [**لقمـــان** : ١٣] فجملة ﴿ **يَعِظُهُ** ﴾ جملة فعلية وهي دالة علـــى الحدوث والتجدد؛ فقد كان لقمـــان يتعهد ابنه بتلك الوصايا بين حين وآخر بحسب الحاجة، وقد ذكر المفسرون في كتبهم بعض هذه المجالس.

ثانيـــاً: انطـــلاق وصايا لقمان مـــن الحكمة: فهي لم تكـــن اعتباطاً، بل كانت عن معرفة وخبرة. قال – تعالى –: ﴿ **وَلَقَـــدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَـــةَ** ﴾ [**لقمان** : ١٢]. وترى في الآيات أن اللـــه قد جعل الحكمة هي المقدمـــة التي ابتدأ بها قبل ذكـــر وصايا لقمان، وهي المقدمـــة المطلوبة من الآباء، قبل أن ينزلوا ميدان التربية، فعليهم أولاً أن يرحلوا إلى مصادر المعرفة المتاحة لتلقي أسس التربية الناجحة، وهي مصادر قد صارت في زماننا متعددة ومتنوعة نذكر منها (الدورات – والكتب – وســـؤال أهل الاختصاص – والاســـتفادة من أصحاب التجارب... وغيرها).

ثالثـــاً: أن يستخدم فيها وســـائل الإقناع المتنوعة: فلا يجعل توجيهاته لأبنائـــه أوامرَ جافةً غيرَ معللةٍ، بل يقرنها بما يغري بالالتزام بها، ومن هذه الوسائل تعليل الأمر وبيانُ سببه، وتقبيح المنكر وتعظيمُ خطره، وتحسين المعروف وذكرُ فضله، وربط هذه التوجيهات بالآخرة، وبمحبة الله ورضاه، وبرقابة الله وحسابه.

• تعليل الأمر وبيان ســـببه: فعندما أوصى لقمان ولده بالإحســـان لوالديه علل الوصية فقال: ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْـــنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ [**لقمان** : ١٤] فَحَمْلُها لولدها تســـعة أشـــهر عانت فيهمـــا ألام الحمل والطلـــق، وإرضاعُها له عامين، كل ذلك يستوجب منه مكافأة الإحسان بالإحسان: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [**لقمان** : ١٤].

• تقبيح المنكر وتعظيم خطره: وعندما نهاه عن الشرك بيَّن

له خطره فقال: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] وذكر له قباحة وشناعة رفع الصوت من غير حاجة فقال: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

• تحسين المعروف وذكر فضله: وعندما أمر ولده بالصبر على مشاق الإصلاح والتغيير ومحاربة الفساد والمفسدين، ذكر له محاسن هذا السلوك وأنه من خلق ذوي العزم فقال: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

• ربط هذه التوجيهات بالآخرة: فعندما أوصى ولده بشكر الله المنعم الأول، وشكر والديه (سبب النعمة) قرن كل ذلك بالآخرة: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

• ربط التوجهات برقابة الله وحسابه: فعندما طلب منه صحبة والديه بالمعروف - وإن كانا حريصين على شركهما بل ويجتهدان في رده عن دينه - قرن ذلك برقابة الله - سبحانه - وحسابه: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٥ - ١٦].

• ربط التوجهات بمحبة الله ورضاه: فعندما نهى ولده عن مظاهر الكبر قرن تَرْك ذلك بمحبة الله ورضاه ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

ثالثاً: وصايا تسعى إلى بناء الشخصية المتوازنة بين الإفراط والتفريط، فلا تجنح إلى طرف على حساب الطرف الآخر فلا طاعة للوالدين في دعوتهما للشرك، وفي الوقت ذاته لا قطع لهذه العلاقة حفظاً للمعروف الذي كان منهما في صغره: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، وإذا مشى فمشيته قصد (بين البطء والإسراع) (بين التبختر والتماوت) ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان: ١٩]، وإذا تكلم فهو يغض من صوته ولا يرفعه إلا بقدر ما يحتاج إليه السامعين ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ و (من) للتبعيض؛ فأحياناً قد يحتاج الإنسان لرفع صوته لبعد السامع أو لثقل سمعه، وإذا فعل الخير فهو يقرن ذلك بالدعوة إليه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [لقمان: ١٧].

التربية بالقدوة الحسنة قبل الموعظة الحسنة، وبالحال قبل المقال، وبالسلوك الحسن قبل الكلام الحسن، وبإصلاح النفس قبل إصلاح الأبناء، كما قال أحد الحكماء لمربي أبنائه: (وليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيك إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنتَ والقبيح عندهم ما استقبحتَ) وفي قصة لقمان افتتح تلك الوصايا بأمرين:

أولهما: وصفه بالحكمة وهي تعني العلمَ كما تعني العملَ بذلك على قدر الاستطاعة.

وثانيهما: أن الله وعظ لقمانَ قبل أن يعظ لقمانُ ولدَه وأمره ونهاه قبل أن يفعل ذلك مع ولده، ودعاه إلى شكر النعمة قبل أن يدعو إليها ولده ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢]، وكل ذلك حتى يكونَ له قدم السبق في العمل بتلك الوصايا فيكون مثالاً للاقتداء فيوافق الحالُ المقالَ، ويكون أدعى للطاعة والامتثال، وكما قيل (حال رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل لرجل).

رابعاً: توجيهات تراعي الأولويات، وَفْق ميزان الشرع، فتقدم ما هو أَوْلى بالتقديم، وتؤخر ما حقه التأخير: فحق الله في التوحيد الخالص، وإفراده بالعبادة أَوْلى بالتقديم من حق الوالدين في الطاعة ولذلك بدأ بحق الله - تعالى - فقال: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، ثم ثنَّى بحق الوالدين فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ ثم أكد هذا المعنى فقال: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

وشُكِر الله لأنه المنعم الأول بتهيئة أسباب الرعاية، أَوْلى بالتقديم من شكر الوالدين الذين هما سبب الرعاية ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

وإصلاح النفس أَوْلى بالتقديم من إصلاح المجتمع ولذلك أوصى ولده بإقامة الصلاة التي هي وسيلة لإصلاح النفس قبل أن يوصيه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي وسيلة إصلاح المجتمع: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

خامساً: توجيهات لا تحذِّر من المساوئ إلا بقدر ما تعرِّف بالمحاسن، ولا تنهى عن المنكر إلا بقدر ما تأمر بالمعروف، ولا ترهِّب من الرذيلة إلا بقدر ما ترغِّب في الفضيلة، فهي ليست تربية سلبية تحذِّر من الشر ثم تترك الدلالة على الخير؛ فالتربية هي التنمية ومن يكتفي بالتحذير من المساوئ والنهي عن المنكر والترهيب من الرذيلة والتخويف من الشر، ثم لا نرى منه تعريفاً بالمحاسن ولا أمراً بالمعروف ولا ترغيباً في الفضيلة ولا دلالة على الخير، هو في الحقيقة يقتصر على الهدم دون البناء؛ والتربية الناجحة تقوم على الهدم والبناء، على التخلية والتحلية، على التطهير والتنمية؛ فهي إزالة وهدم للأخلاق السيئة وتنمية

وبناء للأخلاق الحسنة، وهنا نرى لقمان يجمع بين الأمرين (فهو يحذِّر من الشـــرك ومظاهر الكبر وفي هذا هدم للمساوئ، وهو في الوقت ذاته يدعو إلى طاعة الوالدين وإقامة الصلاة وإصلاح المجتمع؛ وفي هذا تنمية للأخلاق الفاضلة).

سادســاً: توجيهات تقوم على اقتراح البدائل وعلى كشـــف الداء ووصف الدواء؛ فهو يكشـــف المظاهر الســـيئة التي هي عنوان ودليل الرذائل، ويصف البديل عنها من المظاهر الحسنة المؤدية إلى اكتســـاب محاسن الأخلاق، وانظر معي قول لقمان وهو يشخِّص الداء من مظاهره الدالة عليه فيقول: ﴿ **وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [**لقمـــان**: ١٨] وهذه كلها مظاهر تـــدل على أن صاحبها مصاب بداء الكبر، ثم انظر إليه وهو يضع الحلول والوســـائل والدواء للشـــفاء من هذا المرض والظفر بنقيضه فيقـــول: ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْـــيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ** ﴾ [**لقمـــان**: ١٩] فكما أن التبختر في المشيَ، وتصعيرَ الخد، ورفعَ الصوت طلباً للظهور ولفتاً للأنظار كلها دالة على الكبر ووسيلة إليه، فإن القصد في المشي وغضَّ الصوت وسيلة لاكتساب التواضع ودالة عليه.

سابعاً: استخدام كل الوسائل التوضيحية المتاحة التي تتقرب بها المعاني، وتتضح بها التوجيهات؛ وخاصة للناشـــئة الذين ما زالوا يحتاجون إلى الصور المشاهدَة المحسوسَة والمألوفة لتلقِّي المعرفـــة وإدراك المعاني أكثر من حاجتهم إلى المعرفة النظرية، ولقد اســـتخدم لقمان عدة وسائل في تعليم هذه الوصايا، من ضرب الأمثال واســـتخدام الكنايات والتشـــبيهات، فكان مما قال: ﴿ **يَـا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُـن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّـمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**لقمان**: ١٦]، ومنها: ﴿ **وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ** ﴾ [**لقمان**: ١٨]. قال ابن كثير: (وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر)، ومنها: ﴿ **وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَـوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [**لقمان**: ١٩]. وهذه الوســـائل التي اســـتخدمها لقمان في وعظه لابنه (حبة خردل – صخرة – تصعر – صوت الحمير) كلها وســـائل محسوســـة ومشاهدَة ومألوفَة في ذلك الزمان، ولا شك أن المدنية الحديثة، والثورة التقنية، والحضـارة المعاصرة جاءتنا بكثير من الوسائل التي يمكن استخدامها في تقريب المفاهيم وتوضيح المعاني إلى عقول الناشئة.

ثامنـــاً: وصايا شاملة لكل ما يحتاج إليه الأبناء، في حياتهم الفردية، والأسرية، والاجتماعية، بما يجعل كلاً منهم صالحاً في نفسه مصلحاً لغيره، فاعلاً للخير وحاضّاً عليه، متمسكاً بالقيم وطريقاً إليها، عارفاً بحق الله وحق نفســـه وحقوق الناس عامة، وحق المحســـنين إليه خاصة؛ فهي تســـعى إلى إصلاح حاله مع الله بالتوحيد الصافي وإقامة الشعائر، وإصلاح حاله مع نفسه بالتزام مكارم الأخلاق واجتناب مســـاوئها، وإصلاح حاله داخل نطاق الأســـرة بالإحسان إلى والديه، وإصلاح حاله داخل نطاق المجتمع بأن يكون فاعلاً فيه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تاســـعاً: أن تكون وصايا نابعة من حب الآباء لأبنائهم وحرصهم على صلاحهم: ولعلك لمســـت هـــذا في نداء لقمان لابنه فهو لم يناده باســـمه، بل تســـمعه يناديه بكلمة (يا بني!) ويكررها في أغلب وصاياه، وهي كلمة تزول عندها المســـافات، وتتحاضن القلوب، وتتفجر كلُّ معاني العطف والحنان، ويلمس الأبناء في جرســـها دفء الأبوَّة، وتجعلهم أكثر استجابة لوصايا أبآئهـــم وعملاً بها، وهل هناك أجمـــل من أن ينادي الأب ولده بأعظم رابطة تجمع بينهما؟ ويشعر الولد بأن حق هذه الرابطة الحميمة هو الذي دفع والده إلى هذه الوصايا التي فيها صلاحه في دينه ودنياه، في حاضره ومستقبله، في عاجل أمره وآجله.

أخيراً: بعد دراســـتنا لهذه الوصايا رأينا أن من خصائص التربية الناجحة التي أشاد بها القرآن وخلَّدها إلى آخر الزمان، وجعلها ثمـــرة الحكمة التي وهبها الله لعبـــده لقمان وصارت دســـتوراً للآباء لتربيـــة أبنائهم: هي التربية التـــي يتعهد فيها الآبـــاء أبناءهم بالنصح والتوجيه، وينطلقـــون فيها من المعرفة والخبـــرة، ويقترن بها ما يغري بالالتـــزام، وتجمع بين التحذير من المســـاوئ والتعريف بالمحاسن، وتضع البدائل وتكشف الداء وتصف الدواء، وتبدأ بالقدوة الحســـنة قبل الموعظة الحسنة، وتضع كل شيء في موضعه وتزنه بميزان الشرع، وتستخدم كل الوســـائل المتاحة لتقريب المعاني وتوضيح المفاهيم، وتسعى إلى بناء الشـــخصية المتوازنة، وتشـــمل كل ما يحتاج إليه الفرد في حياته العامـــة والخاصة، وتكون نابعة من حب الآباء وحرصهم على إصلاح أبنائهم. وعلى قدر التزام الآباء بالنهج الذي سارت عليه هذه الوصايا يكون نجاحهـــم في التربية، وتكون فرحتهم وســـعادتهم بجني ثمارها في أبنائهم الذين هم أغلى ما يملكون في حياتهم من رجاء البر والإحسان منهم عند الكبر، وأغلى ما يتركون بعد موتهم من بقـــاء الذكر ودوام العمل؛ ففي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطـــع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[1] وصدق رســـول الله ﷺ عندما قال: «ما نحل والد ولده نحلاً أفضل من أدب حسن»[2]؛ أي أن أفضل ما يهديه الوالد لولده إحسان أدبه.

(١) أخرجه مسلم.
(٢) مسند الإمام أحمد.

قصة العلمانية التي لا تعارض الإسلام

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

هل كان يدور بخلد الفقيه المالكي شهاب الدين القرافي (ت٦٨٤ هـ) أن اسمه سيتردد بعد وفاته بقرون في محاولة التلفيق بين النظام السياسي الإسلامي والعَلماني؟

هل كان «القرافي» يريد في حديثه عن تصرفات النبي ﷺ بالإمامة والقضاء ما ذكره بعض المعاصرين عنه أنه دليل على أن «الأحكام الشرعية السياسية تصرفات غير مُلزِمة؛ وإنما هي مرتبطة بالأئمة يقيمونها بحسب الأصلح»؟

لا بأس، لنلملم أطراف هذا الموضوع، ونعيد ترتيب المشهد من جديد، ولنشرح القصة بالكامل؛ لنعرف أين يقع «القرافي» وأين يقع بعض المعاصرين الذين يستشهدون بـ «القرافي» كثيراً.

لدينا إذن ثلاثة أمور:

ماذا قال «القرافي»؟

وماذا فهم بعض المعاصرين منه؟

وما مدى صحة هذا الفهم؟

أما كلام «القرافي» فهو يقرر أن ما صدر عن النبي ﷺ باعتباره إماماً للمسلمين؛ فهو خاص بالأئمة ولا يقوم به عموم الناس، وما صدر عنه ﷺ باعتباره قاضياً فهو للقضاة ولا يقوم به عموم الناس، وما صدر عنه باعتباره تبليغاً وفتوى فهو لعموم الناس، فمثلاً توزيع الغنائم وتجهيز الجيوش فعله النبي ﷺ باعتباره إماماً فلا يسوغ لأحد أن يوزع الغنائم أو يجهِّز الجيوش إلا إن كان إماماً. وليس هذا مثل الفتوى الصادرة عن النبي ﷺ التي تكون لعموم المسلمين، وما فعله النبي ﷺ باعتباره قاضياً فهو حكم قضائي لا يشمل عموم الناس، مثلاً قول النبي ﷺ لهند بنت عتبة: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[1]، هو حكم قضائي فلا يجوز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها إلا بعد حكم القاضي؛ لأن تصرُّف الرسول ﷺ كان باعتباره قاضياً على رأي بعض أهل العلم، وقال آخرون: يجوز للمرأة أن تأخذ بلا إذن قضائي؛ لأن تصرف النبي ﷺ هنا كان إفتاء لها وليس قضاء على زوجها.

(١) أخرجه البخاري: ٢/ ٧٦٩، رقم (٢٠٩٥).

فأحكام الإمامة والقضاء والفتيا كلها قضايا تشـــريع، لكن منها ما هو تشـــريع لعموم الناس يقومون به من دون إذن إمام ولا حُكْـــم قاضٍ، ومنه ما هو تشـــريع خاص بالإمامة لا يصدر إلا عن إمام، وتشـــريع خاص بالقضاء لا يصدر إلا عن قاض، فما صدر عن الرســـول ﷺ باعتباره قاضياً أو إماماً فأحكامها متعلقة بالأئمة والقضاة؛ سواءً كانت واجبة أو مندوبة أو مباحة، وإلا فالأصل هو كونها أحكاماً تشريعية عامة لجميع الناس.

هذه خلاصة نظرية «القرافي» في التصرفات[1].

وأما في عصرنـــا الحاضر فقد فُهم القرافـــي من عددٍ من المعاصرين بشكل مختلف تماماً ، وأصبح رأي «القرافي» يتكرر في بعض الدراسات السياسية بتفسير لا يمت لتنظير القرافي بأي صلة.

ماذا فهم بعض المعاصرين من نظرية «القرافي»؟

يقولون: إن أفعال النبي ﷺ وأقواله الواردة في باب الحكم الدستوري والسياسي ليست ملزمة، بل هي أمور فعلها النبي ﷺ باعتباره إماماً، وبما يحقق المصلحة المقصودة في ذلك الزمان؛ ولهـــذا فالأئمة من بعده يجتهدون في بناء الأحكام السياســـية بحســـب المصلحة التي بنى عليه النبـــي ﷺ تلك الأحكام التي ليســـت ملزمة لهم كأحكام العبادات والمعاملات والمقدرات التي جاء فيها نصوص ملزمة لعموم الناس.

هذه خلاصة تلك الآراء.

فهل هذا هو كلام «القرافي»؟

بالتأكيد: لا.

إذن، أين الخلل؟

الخلل دخل عليهم من محورين:

الأول: عمليـــة النقل الخطيرة التي مارســـوها على كلام القرافـــي؛ فهو يتحدث عن تصرفات محددة من الرســـول ﷺ فجعلوه يقصد كل الأحكام السياسية؟

فالقرافـــي يتحدث عن فعل صدر عنه ﷺ باعتباره إماماً، ولم يقل: كل أحكام السياسة، فهو يتحدث عن أفعال معيَّنة قام بها الرسول ﷺ باعتباره إماماً: كإقامة الحدود وتجهيز الجيوش وقســـمة الغنائم ونحوها، ولم يقل هذا عن كل باب السياســـة؟ وكان يتحدث عن تصرفات، وليس عن كل الأقوال والأفعال في الباب، فهذا تحريف سيئ لكلامه.

كمـــا أن النبي ﷺ له تصرفات باعتبـــاره قاضياً، ولا يقول أحد: إن كل أحكام القضاء اجتهادية مصلحية لا نصوص فيها!

فمثـــلاً حين يقـــول النبي ﷺ: «لن يفلح قـــوم ولَّوا أمرهم امرأة»[2] هل يقول عاقـــل: إن هذا تصرف منه - عليه الصلاة والســـلام - باعتبـــاره إماماً؟ فمن حق الحـــكام أن يحددوا باجتهادهم هل يفلح القوم إن ولَّوا أمرهم امرأة أو لا يفلحوا؟

وحين يقول النبي ﷺ لمن ســـأله: أفـــلا نقاتلهم؟ قال: «لا مـــا صلوا»[3]. هـــل يقول أحد: إن هذا حكـــم للائمة أو للناس فهم الذين يحـــددون اعتبار الصلاة هنا أو عدم اعتبارها؟ وما الحاجـــة لســـؤال الصحابة للنبي ﷺ إذن إن كانت كل شـــؤون السياسة مصلحية بحتة؟

لهذا قال القرافي (فما فعله - عليه السلام - بطريق الإمامة: كقســـمة الغنائم، وتفريق أموال بيت المـــال على المصالح، وإقامة الحدود، وترتيب الجيـــوش، وقتال البغاة، وتوزيع الإقطاعات في الأراضـــي والمعادن ونحو ذلك، فلا يجوز الإقـــدام عليه إلا بإذن إمام الوقت الحاضر؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - فعله بطريق الإمامة وما استبيح إلا بإذنه فكان ذلك شرعاً مقرراً)[4]

فالموضوع عن تصرف معيَّن وليس عن كل أحكام الباب، فهذه عملية نقل قفزت على مفازات عدة حتى تصل إلى هذه النتيجة!

فتصرفات الإمامة هي جزء من السياســـة، وليست هي كل السياســـة؛ فثمَّ أحكام كثيرة شـــرعية هي من صميم السياسة ولا علاقة لها بموضوع التصرفات.

الثـــاني: أن القرافي جعلها أحكامـــاً خاصة بالأئمة، ولم يخرجها عن التشـــريع؛ فهي تشريع حسب تأصيله لكن لا يقوم بها إلا الإمام، وأما هذا الفهم العصري فقد ألغى عنها التشريع بالمـــرَّة فجعلها أحكاماً مصلحية متغيـــرة، وهذا بعيد جداً عن تقرير القرافي؛ فتصرفات الإمامة المختصة بالأئمة منها ما هو واجب على الإمام كإقامة الحدود، ومنها ما هو مندوب أو مباح حســـب كل حكم؛ ولهذا اختلف العلمـــاء في جملة من الأحكام السياســـية ، وما خطر ببال أحد منهم أن كل أحكام السياســـة خارجة عن التشـــريع، ولـــو كان هذا وارداً عندهـــم لما أتعبوا أذهانهم في الحديث عـــن كونها واجبة أو مباحة أو مندوبة أو منسوخة... إلخ؛ لأنها في النهاية ستكون خاصة بعصر الرسول ﷺ ولا تُلزِم أحداً، كما هو هذا الفهم العصري المغلوط!

فهاتان غلطتان حرَّفتا برأي القرافي وقلبتاه رأســـاً فخرج

(١) انظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، للقرافي ٤٥ - ٤٩.

(٢) أخرجه البخاري: ٦/٨، رقم (٤٤٢٥).

(٣) أخرجه مسلم: ٣/ ١٤٨٠، رقم (١٨٥٤).

(٤) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، ص ٤٩.

رأي جديـــد لم يعرفه القرافـــي ولا كان يدور في خلد أحد من عصره، فالقرافي يتحدث عن جزئية معيَّنة في السياســـة وهم جعلوه يتحدث عن كل السياســـة! والقرافي يتحدث عن تشريع وإلزام لكنه خاص بالأئمة والقضاة فأخذوا برأيه بعد أن سحبوا قضية التشريع ووضعوها عند الباب.

فصار رأيهم المحدث يقول: السياســـة ليـــس فيها أحكام وتشـــريعات ملزمة؛ وإنما تقوم على مبـــادئ كلية عامة، تعتمد على المصلحة المتغيرة.

هـــي نتيجة وصلوا إليها عن طريق «**القـــرافي**» ووصل إليها آخرون من مسار مصلحة «**الطوفي**» وغيرهم من جهة مقاصد «**الشاطبي**».

تقـــول هذه النتيجة: إن بالإمكان تجـــاوز كثير من الأحكام الشـــرعية التفصيلية التي يجري عليها الخلاف المعاصر؛ حيث لم تعد ملزِمة كما كان الإسلاميون يفهمونها سابقاً.

سيخطر في ذهنك ســـريعاً بعد قراءة هذا التفسير سؤال مشروع يقول:

ما فرق هذا الكلام عن العَلمانية؟

فالخلاف مع العَلمانية حول النظام السياســـي المعتمِد على تشـــريعات وأحكام ثابتة، وحين تكون أبواب السياسة خارجة عن التشريع فالخلاف إذن على أي شيء؟

وهو سؤال محرج يتطلب جواباً واضحاً عن الفرق الذي يميز هذا الطرح الإسلامي عن الطرح العَلماني، وقد ذكروا في التفريق أمرين:

الفرق الأول: أن أصحاب هذا التفسير يؤمنون بالمبادئ الكليـــة والأصول العامة للشـــريعة، ويؤمنون بقيام الأحكام على المصلحة كما راعتها الشريعة بخلاف الفكر العَلماني.

وهذا فرق غيـــر كافٍ ولا مقنـــع؛ لأن الأصول العامة والمبادئ الكلية تتميز بالعمومية المطلَقَة بما يمكن إدراج كافة التفســـيرات فيها، ولن يكون لدى الفكر العَلماني حساسية من مبادئ العدل والحرية والشـــورى والمســـاواة حين تكون مجـــرد مبادئ كلية عامة، وأما المصلحـــة فالفكر العَلماني إنمـــا يدعو من قديم لأن تعتمد المصلحة بعيداً عن الأحكام التشريعية التفصيلية.

الفرق الثاني: أن العلمانية ليســـت شـــيئاً واحداً ولا فكراً محدداً، فيمكن بمثل هذه الرؤية التقريب والتوافق مع تفسير معيَّن للعَلمانية لا يحمل عداءً للإسلام وأهله؛ فهؤلاء يمكن تبنِّـــي موقفاً قريباً من موقفهم لأن رؤيتهم لا تعارض الإسلام وإنما الخلاف مع العَلمانية المعادية للإسلام.

إذن، ليس ثَمَّة مشكلة كبيرة مع الفكر العَلماني المعتدل الـــذي لا يعادي الدين؛ لأنه في النهايـــة حصل اتفاق على إبعاد أي أحكام شـــرعية ملزِمة من الحكم، وصار الاعتماد على المصلحة المتغيرة؛ فأســـاس الخلاف بين الإسلاميين والعَلمانيـــين هو في الإلزام بأحكام بنـــاءً على رؤية دينية، وحين لا يعتمد النظام السياســـي الإسلامي على أي أحكام شـــرعية محددة فقد حصل الاتفاق والتقـــارب بين الفكر العَلماني والإسلامي.

ربمـــا يفرح بعـــض الناس بهذا التقـــارب على أنه حل وسـط وخيار جديد للعمل الإسلامي المعـــاصر، لكن واقع الأمر – بكل أســـف – أنه ليس خياراً جديداً، بل هو تحويل للنظرية الإســـلامية لتكون متوافقة مع المنظومة العَلمانية التي لم تغير شيئاً من منهجها، بل بقيت في مكانها وجاءت إليها المنظومة الإســـلامية بعد أن حققت الحد الأدنى من الشرط العَلماني المقبول.

يتوهم أن الصراع (الإســـلامي – العلماني) قديماً كان مـــع العَلمانيين المتطرفـــين الذين يعادون الدين ويســـعون لاستئصاله، فيشـــعر بارتياح لأنه استطاع أن يكسب بعض العَلمانيين، وما علم أن الصراع – أساساً – كان مع العَلمانية التي لا تعادي الدين، وأن النزاع – تحديداً – كان في كيفية فـــرض نموذج ديني علـــى الناس، وأمـــا العَلمانية المعادية للدين فهؤلاء خلاف الإســـلاميين معهم لم يكن في النظام السياسي أصلاً، فلا معنى الآن لاستثنائهم لأنهم كانوا من الأصل خارج النزاع!

فقصة العَلمانية التي لا تعارض الإسلام – باختصار – هي ذاتها العلمانية التي حاربها الإسلاميون سابقاً ثم أصبحت مع مرور الأيام لا تعارض الإسلام!

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

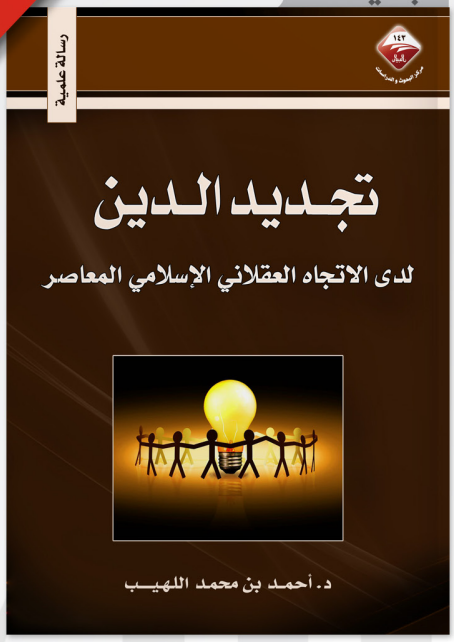

جديد ..

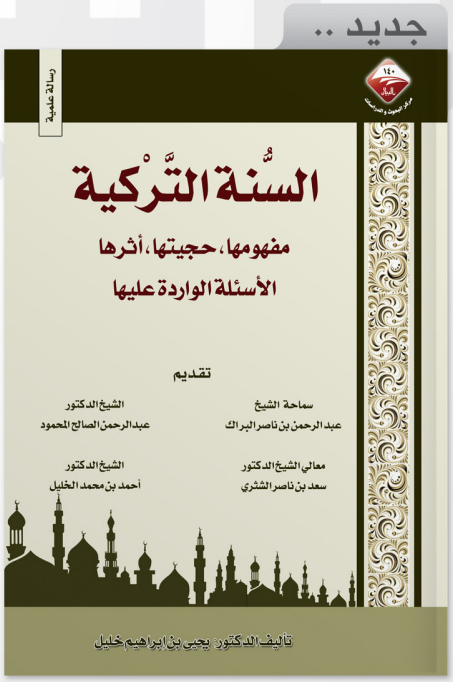

جديد ..

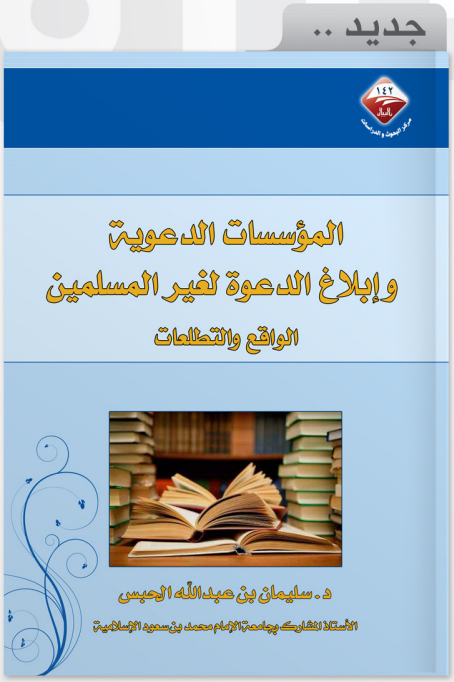

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

التداول الحداثي لنظرية المقاصد

دراسة نقدية (2)

سلطان العميري

تُعَـد هذه الحلقـة امتداداً للحلقة الأولى التي كشـف فيها الباحث عن بعض الإشكاليات المنهجية في النظرة المقاصدية لدى الخطاب الحداثي. في الحلقة الثانية يستمر الباحث في التحليل المنهجي لتلك النظرة، ويقدم مزيداً من الفحص المعرفي لها.

الأمر الثالث: الانتقاء البنائي: فالخطاب الحداثي حين أراد الاعتماد على نظرته المقاصدية وأخذ يبحث عن المسـتند الذي تتأسس عليه تلك المشـروعية، انتقى نوعاً من النصوص الشـرعية التي يظهر فيها مراعاة المصالح بشـكل ظاهر، مثل قوله ﷺ: «لـولا أن قومكِ حديثوا عهد بكفـر لهمدت الكعبة ولبنيتهـا على قواعد إبراهيم»[1]، وسـحب حكمها على جميع الشريعة، وتوصل من خلالها إلى أنه إذا تعارضت المصلحة مع الأحكام الشـرعية القطعية والنص الشرعي القعطي أيضاً في دلالته، فإن المقدَّم هو المصلحة بلا ريب.

وكذلـك انتقى بعضَ العلمـاء ممن ظن أنـه يقول بقوله كـ (الطوفي والشـاطبي) وأخذ يبرزهم علـى أنهم الذين أتوا بحقيقةِ ما جاءت به الشـريعة، وأنهم هم الذين فهموا الشريعة حق الفهم دون غيرهم من علماء الإسلام.

وهذه المنهجيـة متنافية مع المنهجية العلميـة الصادقة، وهي عادةً ما توقع فـي الإحراج المعرفي؛ فإنا لو أخذنا بمنطق الخطاب الحداثـي، فإنه يمكن أن نتوصل إلى نتائج مناقضة لما توصلوا إليه؛ فبنـاءً على الانتقاء يمكن أن يتم التوصل إلى أن الشـريعة لم تراع المصلحة ولم تلتفت إليها، وأنهـا تُلزِم الناس لمجرد الإلـزام فقط لا لشيء آخر، ومن النصوص التي يمكن أن تورَد لتأكيد هذا الرأي، قوله – تعالى –: ﴿لا يُسْـأَلُ عَمَّـا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله – تعالى –: ﴿فَعَّالٌ لِّمَـا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وقوله – تعالى –: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وهذا القول وإن كان خطأً بلا شك إلا أن المنطق الانتقائي الذي مارسه الخطاب الحداثي يقتضيه ويؤدي إليه ويفتح الباب أمامه على مصراعيه.

وقد حذَّر القرآن نفسُـه من الانتقائية في الاستدلال وبيَّن أنهـا من أخلاق الظالمين الذين لا يريـدون الوصول للحقيقة؛ حيث يقول اللـه – تعالى –: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْـضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْـضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِـكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَـدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِـلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]. فالإيمان بالنصوص الشـرعية وبمـا تضمنته من دلائل وأحكام ومبادئ لا يتحقق مع الأخذ ببعضها دون بعض.

وبيَّن القرآن أيضاً أن من صفات المنافقين أنهم لا يحتكمون إلى النصوص الشرعية إلا إن ظنوا أنهم سيجدون فيها ما يريدونه وما يحقق لهم مصالحهم فقط؛ حيث يقول الله – تعالى –: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُـولِ وَأَطَعْنَا ثُـمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْـدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُـمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٧ – ٤٩].

وقد حذر عدد من العلماء في القديم والحديث من العملية

(١) أخرجه: مسلم، رقم (٣٣٠٨).

الانتقائيـــة مع النصوص، ومن هؤلاء ابن حزم حيث يقول: «فلا تأخـــذ بعض الكلام دون بعض فتفســـد المعارف، وأحذرك من شـــعب قوم في هذا المكان إن ناظروا أطبقوا على آية واحدة أو حديث واحد، وهذا سقوط جديد وجهل مفرط»[1].

والمنهجيـــة العلمية تأبى هذا كلَّه، وتوجب على الباحث عن الحقيقـــة أن يجمع كل ما يتعلق بالقضية التي يريد دراســـتها وتحليلها، ويراعـــي كل ما ورد فيها من أدلـــة، حتى يصل إلى النتيجة المطلوبة بشكل صحيح وواضح.

الأمر الرابع: الاختلال في البدائل: فالخطاب الحداثي حين ذهب إلى افتراض التعارض بين المصلحة والنص الشرعي أو إلى فقدان التشريعات التفصيلة لقيمتها لم يأتِ بمثال واحد سالم من المعارضات، فكل ما ذكره من بدائل وحدده من مصالح وحَكَمَ بتقدميها على النص الشرعي يَرِد عليه من الاعتراضات والتســـاؤلات شيئ كثير، فضلاً عن أن الطريقة التي سلكها في تحديد ما يـــراه من مصالح لم تكن مبنية على أســـس علمية صحيحة، وليســـت قائمة على المقارنات المستوعبة التي تراعي جميع الملابســـات المحيطة بالقضية وبالحكم الشـــرعي، وهي مع ذلك تتصف بضيـــق الأفق في تحليل الواقع والممارســـات الإنسانية.

وقد قام عدد مـــن الباحثين باســـتعراض أمثلة كثيرة من الأحكام التـــي دعا الخطاب الحداثي إلى إلغائها بناءً على أنها معارِضـــة للمصلحة التي توجبها الحالة الاجتماعية في العصر الحاضر: كالصوم في رمضان، وكأنصبة الزكاة، وحجاب المرأة، وإقامة الحدود، وبيَّنـــوا كيف أن كل هذه الأحكام لا تتنافى مع المصلحـــة؛ وإنما تحققها على أكمل وجه، وكشـــفوا عن مقدار الاختـــلال في البدائل التي قدمها الحداثيون عن تلك الأحكام، وأبانوا عن الإشكاليات العميقة التي تعترض طريق ما قدموا.

ولو قمنا باســـتعراض مثال واحد وهو «حد الســـرقة» فإنَّا نجد أن دعوة الخطاب الحداثي لاستبداله بالسجن لأنه يحقق المصلحـــة منه غيـــر صحيحة؛ لأنَّا نجد في قطع يد الســـارق مصالح كبرى تحقق للمجتمع فوائد عظيمة لا يحققها السجن؛ فإن مجرد الإعلان عن إقرار عقوبة القطع يؤدي إلى زجر عدد كبير من الســـراق بخلاف ما لو أعلن عن عقوبة السجن فقط، وكذلك فإن عقوبة القطع إراحة للمجتمع من تكاليف حراستهم وإطعامهم ودوائهم في الســـجن، ثم إن قطع يد الســـارق فيه تعطيل لجزء منه أما حبس السراق لسنوات ففيه تعطيل لمنافع أكثر مما لو قطعت يده، يضاف إلى ذلك أن الســـجن يشكل في كثير من الأحيان مدرسة ممتازة لتعليم الإجرام والفساد[2].

الأمر الخامس: المناقضة لجوهرية الديـن: فالنظرة المقاصدية التي اعتمدها الخطاب الحداثي تؤدي بالضرورة إلى إزالة مرجعية الشريعة في الحياة؛ فبدل أن تكون الشريعة هي الحاكمـــة على حياة الناس تكون تابعة لها في مصالحا، فتتغير أحكامها بتغيُّـــر مصالح الناس وتتبـــدل بتبدُّلها، وهذا الحال متنافٍ بصـــورة قاطعة مع حقيقة الديـــن ومتناقض مع هدفه الأصلي، فإن الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الدين وتتأســـس عليها فكرة التدين هي تنظيم حياة الإنســـان وضبط تصرفاته، فالأديان كلها – حتى الوضعية منها – تنخرط في هذا الهدف؛ بحيث يكون الإنسان خاضعاً لتعاليم الدين ومنضماً لحياته وَفْقاً لأحكامه، ولكن الخطاب الحداثي قلب القضية في الإســـلام، فجعل أحكام الإسلام خاضعة لحياة الإنسان، تتكيف بتكيفاتها المتغيـــرة، فإذا لم يكن في هـــذه العملية إلغاء للدين ونســـف لمرجعيته وإزالة لهيبته فكيف يكون ذلك إذن؟

ويشـــرح أبو الحســـن الندوي اللوازم التي تترتـــب على الدعوة الحداثيـــة في المقاصد ويكشـــف عن الشـــناعات المعرفية والدينية الناتجة عنها في أســـلوب أدبي راقٍ فيقول: «باعتباري مريداً وتابعاً لديـــن لا يمكنني أبداً أن أقبل وضعاً يســـتجيب فيه هذا الدين لكل تغيُّر، ولا يمكن أن توافق أنت على ذلك أيضاً؛ لأن الدين ليس مقياس حرارة يقتصر عمله على تســـجيل درجة الحرارة، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح... لا يمكـــن تعريف الدين بهذه العبارات ولا يمكن أن يصيـــر إلى أداة آلية غريبة، وليس بيننا واحد يريد من القرآن أن يتحول إلى سجل للمخترعات والمكتشفات الغربية، وإن ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمل هذا الوضع فكيف بدين منزل؟

الدين يتقدم مـــع الحياة يداً بيـــد ولا يواكبها فقط كتابع لهـــا ... ووظيفته هو أيضاً أن يميز بين تغيير ســـليم وآخر غير سليم، ونزعة هدامة وأخرى بنَّاءة»[3].

وعند التأمل في العملية المقاصدية التي مارســـها الخطاب الحداثي مع تعاليم الإســـلام فســـنجد أنها ستؤدي – حتماً – إلى احتقار الشـــريعة الإســـلامية وذهاب هيبتها، وتنتهي إلى مســـاواتها بأدنى الخطابات منزلة وأقلها قدراً؛ وذلك أن القول بأنها تتبدل وتتطور مع تبدُّل المصالح وتطورها لا يجعل لها ميزة

(١) التقريب لحد المنطق، ابن حزم (٢٨١).

(٢) الاجتهاد، النص الواقع المصلحة، أحمد الريسوني (٣٨ – ٤٩).

(٣) الإسلام في عالم متغير، أبو الحسن الندوي (٥٧).

على غيرها ويزيل عنها العظمة والبراعة والقدسية والكمال والهيبة والاحترام؛ لأن أي طالب في أي مرحلة يستطيع أن يضع مسودة قانون تسير مع تطور الأزمنة والقوانين[1]، وتتكيف معها كيف سارت، وتتماشيا مع الواقع ومتطلبات الناس اليومية.

وما انتهى الخطاب الحداثي في التأويل المقاصدي حتى يصير حال الشريعة الإسلامية كهذا الحال؛ فأي عظمة تبقى وأي براعة تظهر، وأي روعة تستمر؟ وهذا أمر غير مقبول عند أي مسلم يعتز بدينه ويفتخر بشريعته.

الأمر السادس: أن الخطاب الحداثي تعاطى مع التشريعات الإسلامية بسطحية بالغة: فهو لم يراعِ الطريقة المركَّبة التي تعاملت بها الشريعة في تشريع تلك الأحكام، ولم يقف مع التفصيلات الدقيقة التي تكشف عن فلسفة الإسلام وعن عمق تدابيره، ولم يراع أيضاً الاعتبارات الواقعية لاختلاف تفاصيل الأحكام وتنوعها وتشعبها.

فالمستقرئ لتفاصيل الشريعة الإسلامية وأحكامها وضوابط شعائرها وشروطها، يجد أنها شرحت الكيفيات التي يتحقق بها الانقياد والتعبُّد لله بشكل تفصيلي؛ فالصلاة لها هيئة مخصوصة محددة، والوضوء له صفات محددة، والزكاة لها أوصاف وشروط محددة، والكفَّارات لها أنصبة محددة، وكذلك الحال في كثير من التشريعات التفصيلية، وشددت الشريعة على الالتزام بها، ووصفتها بأنها حدود الله ومحارمه، وحذرت من التفلُّت منها أو الافتيات عليها، وحددت لها أوقاتاً وصوراً محددة بشكل قاطع، وأمرت بالالتزام بها في أحلك الظروف وأشدِّها، كما هو الحال في الحفاظ على الصلاة في أوقاتها حال الحرب، ووجَّهت اللوم الشديد على من تعدَّاها أو تجاوزها، ورُتِّبَت العقوبة الشديدة على من خالفها، ولما طُلِب من النبي ﷺ أن يتنازل عن بعض الحدود لمصلحة القبيلة رفض بشدة وغضب غضباً شديداً، وقال: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2]. والشريعة مع كل تلك التأكيدات لم تُلمِح إلى أنها إنما جاءت بتلك التشريعات مراعاة لظروف العصر، بل أكدت في نصوص كثيرة إلى أن تشريعاتها ملزمة إلى يوم القيامة.

وكل هذه التشريعات التفصيلية منطوية تحت كليات مقاصدية، تكوِّن نسيجاً متكاملاً، وتكوِّن منظومة تشريعية منسمجة ومطردة عبر العصور، وقد كشف الشاطبي - مهندس المقاصد - عن هذه الحقيقة التكاملية فقال: «إذا ثبتت قاعدة كلية في الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات، فلا ترفعها آحاد الجزئيات كذلك نقول: إذا ثبت في الشريعة قاعدة كلية في هذه الثلاثة أو في آحادها، فلا بد من المحافظة عليها بالنسبة إلى ما يقوم به الكلي وذلك الجزئيات؛ فالجزئيات مقصودة معتبرة في إقامة الكلي أن لا يتخلف الكلي فتتخلف مصلحته المقصودة بالتشريع»[3].

وحذر من الأخذ بالكليات المقاصدية دون اعتبار الجزئيات التشريعية، وكأنه يقصد الخطاب الحداثي فيقول: «من الواجب اعتبار تلك الجزئيات بهذه الكليات عند إجراء الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ إذ محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها، فمن أخذ بنص - مثلاً - في جزئي معرضاً عن كليه فقد أخطأ، وكما أن من أخذ بالجزئي معرضاً عن كليه فهو مخطئ، كذلك من أخذ بالكلي معرضاً عن جزئيه»[4].

فمن المستبعَد عقلاً بعد ذلك أن يكون تشريع تفاصيل العبادات والحدود والأحكام إنما جاء لمجرد الانسجام مع السياق التاريخي والاجتماعي في عصر النبوة فقط، وأنها تتغير بتغير السياق وتبدُّله كما يصور ذلك الخطاب الحداثي، ومن المستبعَد عقلاً ألا يكون لتلك التحديدات قيمة تشريعية في نفسها وإنما جاءت لتحقيق مقاصد معيَّنة متى ما تحققت بدونها فإنه لا داعي للالتزام بها كما توهم النظرية الحداثية في المقاصد.

فإذا جاز أن تتغير تلك التشريعات وتصبح تابعة للمصلحة وللسياق التاريخي، فإنه يجوز في العقل أن يغير المقصد الأول في الشريعة وهو إفراد الله بالعبادة؛ إذا لا مانع يمنع من ذلك في العقل، ويجوز في العقل أيضاً أن تخالف الشريعة ما هو مقرر في العقل، وكل هذه الأمور غير مقبولة عند المسلم المطلع على حقيقة دينه.

وإذا جاز أن تتغير التشريعات التفصيلية لأجل مخالفة المصالح الطارئة في حياة الإنسان، فمعنى ذلك أنه يجوز في العقل إبطال جملة الشريعة؛ لأنه إذا جاء أن تأتي الشريعة بما يخالف المصلحة في بعض أحكامها فإنه لا يوجد مانع يمنع من حدوث ذلك في كل الشرائع والأحكام؛ إذ هي متساوية في المأخذ الشرعي؛ لأن كل أحد يمكن أن يقدم ما يراه مصلحة

(١) انظر: ضوابط المصلحة، البوطي، ص (٣٠).
(٢) أخرجه: البخاري، رقم (٣٤٧٥).
(٣) الموافقات، الشاطبي: (٢/ ٩٦).
(٤) الموافقات الشاطبي: (٢/ ١٧٤).

على أي حكم شرعي.

وقد أشار الشـــاطبي إلى قريب من هذا المعنى حينما بين أن أحكام الشريعة لا تَبطُل بالعقل، وأن النقل لا يكون تابعاً له، فقال مستدلاً على ذلك: «إنه لو كان كذلك لجاز إبطال الشريعة بالعقل، وهذا محال باطل، وبيان ذلك أن معنى الشـــريعة أنها تحدُّ للمكلَّفين حدوداً في أفعالهم، وأقوالهم، واعتقاداتهم، وهو جملـــة ما تضمنتـــه، فإن جاز للعقل تعدِّي حـــد واحد، جاز له تعدي جميع الحدود؛ لأن ما ثبت للشـــيء ثبت لمثله، وتعدي حد واحـــد هو معنى إبطاله؛ أي: ليس هذا الحد بصحيح، وإن جاز إبطال واحد جاز إبطال الســـائر، وهذا لا يقول به أحد لظهور مُحاله»[1]، فتقديم المصلحة على النص بالصورة التي دعى إليها الخطاب الحداثي إذن يستحيل أن يكون مقبولاً عند المسلم لأن ذلك سيؤدي إلى إبطال كل الشريعة.

والخطاب الحداثي تبنَّى قـــولاً يثير كل تلك اللوازم، وأنكر على المسلمين عدم أخذهم بما توصل إليه، وشن حملات شديدة علـــى الفقهاء والأصوليين الذين لم يتوصلوا إلى ما انتهى إليه، وهو مع ذلك لم يقدم الجواب المقنع عن تلك اللوازم الشـــنيعة، ولم يحـــاول الخوض فيها، وإنما أعرض عنهـــا وأغفلها وكأنه ليس لها وجود.

الأمر السـابع: يجد القارئ للمنتَـج الحداثي فقداناً للمصداقيـة في التعامـل مع النظرة المقاصديـة: لأنه إذا كان المقصد من حدِّ الســـرقة الحفاظ على أموال الناس، فإن هذا يعني أنه إذا ازداد الفســـاد في المجتمع وازدادت معدلات السطو على الممتلكات أن يزداد مقدر العقوبة لا أن يغير شكلها ويخفف منها، وكذلـــك إذا كان المقصد من حدِّ الزنى الحفاظ علـــى أعرض الناس، فإن هذا يعني أنه إذا ازداد الفســـاد في المجتمـــع وازدادت معدلات العلاقة المحرَّمـــة أن يزداد مقدار العقوبة لا أن يغيَّر شكلها ويخفف منها، وكذلك إذا كان المقصد من الصلاة الســـمو الروحي، فإن هذا يعني أنه: إذا ازداد تعلق الناس بالماديات وازدادت معـــدلات الجفاف الروحي أن يزداد مقـــدار العبادة لا أن يدعى إلـــى التقلل منها، وإذا كان المقصد من الزكاة تحقيق العدالة وتقســـيم الثـــروة، فإن هذا يعني أنه إذا ازداد شـــجع الأغنياء أو ازدادت حاجة الفقراء أن نزيد في أنصبة الزكاة.

والمســـتقرئ للخطاب الحداثي يجـــد تطبيقاته المقاصدية كلُّها تميل إلى إلغاء الأحكام الشـــرعية والتخلص منها والتفلت من الالتزام بها، ولم نرَ أحـــداً من أصحاب الخطاب الحداثي ينادي بناء على النظرة المقاصدية لديه بزيادة في العقوبة لكون الحالة المجتمَعية تتطلبها، ولم نـــرَ أحداً منهم يدعو إلى مزيد من العبادات والصلاة والصيام لكون الناس يعانون من الجفاف الروحـــي في هذا العصر؛ وإنما – بالعكس – لا ترى إلا مطالبة بالتقلل منها وحثاً على التخلص من تكاليفها.

وهذا كله يؤكد على أن الخطـــاب الحداثي ليس جاداً في احتفائه بنظرية المقاصد؛ وإنما هو من باب التوظيف والاستثمار فقط.

الأمـر الثامـن: الوقـوع في التناقض المنهجـي: فمن المقرر لدى علماء المنطق والمنهجيات العملية: أنه لا يكفي في بنـــاء القول والإقناع به مجرد ادعـــاء الصحة له؛ وإنما لا بد من أقامة الأدلة الصحيحة عليه، مع الإجابة عن اللوازم التي تنافي القول وتُحدِث التناقض فيه، وتثير الأسئلة الملحَّة عليه، وتمنـــع الأخذ به والاقتناع بصحتـــه، والخطاب الحداثي قرر أصـــولاً تتنافى مع القول بأن الشـــريعة لها مقاصد لا بد من اعتبارها والأخذ بها وتحكيمها، ومن أجلى صور التناقض: أن بعض الخطاب الحداثي لا يفتأ يكرر صباح مساء أن نصوص الشـــريعة ليس لها معنى ثابـــتٌ ولا معنى كامن فيها، وأنها لا تؤدي إلى معنى محدد، وأن القراءة الحديثة ليســـت بحثاً عن مقاصـــد قائل النص؛ وإنما هي بحث عما يفهمه القارئ منه، وحكم بمـــوت المؤلف والقائل، فـــإذا كان الأمر كذلك فكيف يقـــال: إن نصـــوص الشـــريعة تدل على مقاصـــد لا بد من اعتبارها في الأحكام التفصيلية؟! وكيف يقال: إنها متضمنة لحِكَـــم ومصالح كلية هي المتحكمة فـــي أنظمتها، أليس هذا تناقضاً منهجياً تنفر منه العقول؟

فهـــذه الأمور تكشـــف للقارئ الكريم عـــن مقدار الخلل المنهجي فـــي تعامل الخطاب الحداثي مـــع نظرية المقاصد، وتقدم لـــه مبررات منهجية وعقلية يســـتطيع من خلالها أن يحكم على الممارســـة الحداثية لنظرية المقاصد بحكم رشيد مبني على أسس منهجية وعلمية رفيعة، ويستطيع أن يتوصل إلى الحكـــم على طريقتهـــم بالاختلال المعرفـــي، المناقضة للحقيقة الشـــرعية والبعد عن المنهجية الصحيحة التي تقدم فكراً ناضجاً بنَّاءً.

(١) الموافقات، الشاطبي: (١/ ١٣١).

في حوار مع البيان

الشيخ الدكتور حارث الضاري:

المقاومة العراقية

البدر المنير في سماء العراق المظلمة

حوار: حارث الأزدي

أكد الشيخ الدكتور (حارث سليمان الضاري) أن المقاومة العراقية هي البدر المنير في سماء العراق المظلمة على مدى ٩ سنين، مشيداً بدور المقاومة التي صنعت هذا النصر العظيم؛ فهي التي رفعت رأس العراقيين عالياً وجعلتهم يشمخون بما حققه أبناؤهم المقاومون.

وأوضح الشيخ في حوار خص به مجلة البيان أن الاحتلال الأمريكي لم يترك العراق كلياً؛ فلديهم ٣٠٠٠ آلاف عسكري تم تدريبهم في الولايات المتحدة كقوات خاصة وأعادتهم إلى العراق؛ ليقوموا بمهمات خاصة وهم يمتلكون الأسلحة اللازمة للقيام بالواجبات الموكلة إليهم في مساندة القوات الأمنية الحكومية، مبيناً أن الانسحاب الأمريكي من العراق هو انسحاب جزئي وليس تاماً كما أعلن رئيسهم، فالأمريكان لم يتركوا العراق تماماً؛ حيث إن لهم عدداً يمكن وصفه بالكافي لحراسة مصالحهم وحلفائهم في العراق.

ووصف الشيخ الضاري دعاة الفدرالية بأنهم القابضون أثمان خياناتهم وأن مشروع الفدرالية الذي جاء به بايدن (نائب الرئيس الأمريكي) هو خسارة لكل العراقيين لما سيؤدي إليه من إمارات دكتاتورية عائلية تريد أن تبني لأنفسها مجداً، ولو على بؤس وشقاء أبناء العراق.

وفي ما يلي نص الحوار:

البيان: ما هي رؤيتكم في هيئة علماء المسلمين لإعلان الانسحاب الأمريكي من العراق؟

الشيخ حارث الضاري: الانسحاب الأمريكي من العراق هو انسحاب جزئي وليس تامّاً كما أعلن رئيسهم؛ فالأمريكان لم يتركوا العراق تماماً؛ إذ لهم عدد يمكن وصفه بالكافي لحراسة مصالحهم وحلفائهم في العراق؛ فلديهم ٣٠٠٠ آلاف عسكري تم تدريبهم في الولايات المتحدة كقوات خاصة وأعادتهم إلى العراق؛ ليقوموا بمهمات خاصة وهم يمتلكون الأسلحة اللازمة للقيام بالواجبات الموكلة إليهم في مساندة القوات الأمنية الحكومية. كما أن هناك قرابة ٣٥٠٠ عسكري ستُعهَد إليهم مهمة حماية الأجواء العراقية، فضلاً عن ١٦٠٠٠ ألف أمريكي منهم رجال المخابرات ومنهم من القوات الخاصة، لحراسة السفارة الأمريكية والقنصليات في المحافظات. وأيضاً ليقوموا بمهام التدريب والمساندة والمساعدة والاستشارة وما إلى ذلك. ومن هنا نقول: إن الانسحاب ليس تاماً كما يدَّعون! نعم، انسحبت أغلب قواتهم والحمد لله، وهذا بفضل الله ثم بفضل المقاومة، ويعد إنجازاً كبيراً للشعب العراقي ومقاومته الباسلة.

البيان: بماذا تفسرون إعلان الرئيس الأمريكي الانسحاب من العراق، وهل مردُّ هذا إلى الجهل أم الخداع؟

الشيخ حارث الضاري: هو يتجاهل أو يريد أن يتجاهل؛ ليغطي جرائم الأميركيين في العراق، وليبرر انسحاب قواته من العراق أمام خصومه ومعارضيه؛ وإلا فهو أعرف بما يجري في العراق؛ فله عيون كثيرة؛ له عسكره، ومخابراته وعملاؤه، وله أيضاً زُمَر من أصحاب العملية السياسية الذين يتعامل معهم أو تتعامل معهم سفارته ومخابراته ومخابرات الدول الأخرى. وهو مطَّلع بلا شك على ما تكتبه وما تنشره وسائل الإعلام نقلاً عن لجان حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية ومنظمة «هيومن رايتس» المعنية بحقوق الإنسان وغيرها مما يجري في العراق من انتهاك واسع ومنظم لحقوق الإنسان العراقي على يد قواته وعلى يد الأجهزة الأمنية للحكومة التي يقوم بدعمها؛ فالرئيس الأمريكي متجاهل وليس بجاهل؛ وبذلك يُعَد كاذباً ومزيفاً وغير صادق مع شعبه ولا مع العالم، ومن ثَمَّ فهو كسلفه (بوش) في الخداع وتزييف الحقائق.

البيان: ما أهمية خطوة الانسحاب بالنسبة للسياسة الأمريكية في هذه المرحلة؟

الشيخ حارث الضاري: في تقديري لم تكن ورقة مهمة؛ فقد استخدمها أوباما سابقاً في الانتخابات، حينما قال سأسحب القوات الأمريكية سحباً مباشراً بعد تعييني رئيساً، وها هو الآن وبعد نحو عامين من تعيينه رئيساً للولايات المتحدة يعلن الانسحاب، ومع هذا فالانسحاب لم يكن كلياً وإنما هو جزئي ولم يخرج الاحتلال كاملاً من العراق كما سبق أن ذكرت في الإجابة عن السؤال الأول؛ فلذلك لا يُعَد هذا الانسحاب في تقديري ورقة ناجحة كما كانت يوم استخدمها عند ترشيحه لانتخابات الرئاسة.

(المقاومة هي التي صنعت هذا النصر العظيم وهي التي رفعت رأس العراقيين عالياً).

البيان: ما حقيقة الدعوة إلى الفيدرالية في العراق، ومن يقف وراءها؟

الشيخ حارث الضاري: ليست الدعوة إلى الفدرالية جديدة؛ فهي تعود إلى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ولكن تجددت الدعوة إليها بعد احتلال أمريكا للعراق من شركاء العملية السياسية الذين اتفقوا على (فدرلة) العراق وتقسيمه في مؤتمراتهم سنة ٢٠٠١م ، وسنة ٢٠٠٢م في صلاح الدين، ثم بعد ذلك في مؤتمر لندن عام ٢٠٠٢م؛ حيث اتفقوا جميعاً على (فدرلة) العراق سعياً من بعض الأطراف إلى تقسيمه في النهاية، والأمريكيون هم وراء التقسيم؛ فالكل سمع بمشروع بايدن الذي ما يزال صاحبه يتابعه بجد ونشاط، وإن أظهر في بعض المراحل تراجعه أو تأجيله أو تجميده. فأمريكا مهتمة بالتقسيم؛ لأن التقسيم مطلب بريطاني ومطلب صهيوني ومطلب لبعض الأمريكيين من رجال الإدارة السابقة وغيرهم في الحزب الجمهوري، وكذلك الحزب الديمقراطي، وهو أيضاً مطلب لإيران ولبعض الدول المجاورة الأخرى ومطلب داخلي للقيادات السياسية الكردية والقيادات السياسية

الشيعية، لكن من المؤسف أن يطالب به أناس رفضوه في البداية، أو رفضوا الدستور الذي يشرعه ثم أقروا به بعد ذلك، ومن المؤسف أيضاً أن يطالب بالفدرالية أناس ما كنا نظن أن يجرؤوا أن يقولوا هذا مع علمهم أن التقسيم هو مشروع لأعداء العراق.

> (التقسيم ليس علاجاً؛ وإنما هروب وإنشاء لإمارات يرأسها الفاشلون الذين كانوا ولا يزالون أدوات وخدماً للمالكي ولمن قبله «الجعفري»).

بعد ذلك نقول: هل التقسيم علاج لما في العراق؟ التقسيم ليس علاجاً؛ وإنما هو هروب وإنشاء لإمارات يرأسها الفاشلون الذين كانوا ولا يزالون أدوات وخدماً للمالكي ولمن قبله (الجعفري)، وثمة آخرون خدم للخدم، لخدم أمريكا وإيران، هؤلاء البائسون عندما علموا أن المالكي يتجه إلى تركهم وإلى إقصائهم وإلى الاعتماد ربما على غيرهم طالبوا بالفدرالية بحجة إقصاء (أهل السنة) أو إيذاء (أهل السنة) أو حماية (أهل السنة) الذين همشهم المالكي ولم يعلموا أن العراقيين جميعهم مهمشون (سنة، وشيعة، وحتى الأكراد) واليوم كثير من الأكراد في الشمال ليسوا أقل بؤساً من بؤس إخوانهم العراقيين في الوسط وفي الجنوب، أما علمت أن هذه الفدراليات اجتمع هؤلاء الدعاة لها وقسموها في ما بينهم؛ فهم لم يقسِّموا العراق وإنما قسَّموا (أهل السنة) علماً أن الفدرالية إجمالاً هي خسارة لكل العراقيين؛ خسارة للسنة وخسارة للشيعة وخسارة حتى للأكراد؛ لأنها ترمز إلى إمارات دكتاتورية عائلية تريد أن تبني لأنفسها مجداً، وكما يقول العراقيون: (حلوة الإمارة ولو على الحجارة)، بل ولو على بؤس وشقاء أبناء العراق سنة وشيعة.

أقولها بصراحة: هؤلاء قبضوا أثمان تقسيم العراق، وموته ودفنه وإلغائه من عدة جهات؛ قبضوها نقداً وعدّاً، بعد أن رتبوا أحوالهم في الخارج و(أمَّنوا مستقبلهم) كما يقول بعضهم في الخارج؛ لذلك هم لا يسألون عمن في الداخل، ولم يسألوا عن العراق وولا عن شعبه وإن تباكى بعضهم على العراقيين وعلى الأهل كما يقول بعضهم: (أهلنا، وأهلنا)؛ فهل يعترف هؤلاء بأهلهم الذين عاشوا على رقابهم وباسمهم نحو تسع سنين ولم يقدموا لهم شيئاً إلا الخيبة والفشل والدمار.

البيان: المتابع للشأن العراقي يلاحظ باستغراب رفض المالكي للفدرالية! لماذا يرفض المالكي الفيدرالية برأيكم؟

الشيخ حارث الضاري: المالكي كاذب في ادعائه الحرص على وحدة العراق وعدم تقسيمه، والدليل على ذلك: أن حزبه حزب الدعوة كان ممن اشتركوا في المؤتمرات التي ذكرتُها سابقاً وممن اتفقوا على الفيدرالية وتعهدوا بها لجهات أجنبية خارجية، ثم لما جاء الاحتلال وشارك حزب الدعوة كان المالكي هو من المتصدرين من رجال حزب الدعوة وكان يرأس الائتلاف الرسمي الحكومي في مؤتمر الوفاق العراق في سنتي (٢٠٠٥ – ٢٠٠٦م) في القاهرة، وكان هو المتكلم باسم الجميع، وكان يدافع عن العملية السياسية ويدافع عن الدستور، وهو من أشد المدافعين عن الدستور والمتمسكين به؛ لأن الدستور خدمه وأعطاه كثيراً من الصلاحيات، فهو متمسك بهذا الدستور الذي نص على الفدراليات والتقسيم. وهو يدَّعي الوطنية ويدَّعي الإخلاص وعدم الطائفية والحرص على العراق وهو من كل هذا بريء؛ لأنه يأتمر بأمر أمريكا وبأمر إيران ولم يعمل للعراق شيئاً ولا للعراقيين؛ فهو يخشى من الأقاليم لأسباب عديدة، منها: مخافة أن تتفلت محافظات في الجنوب أيضاً وتنشأ أقاليم ومن ثَمَّ تتبدد سلطته وتضيع قبضته على العراق كله، هذا العراق الذي أسلمته مقاليد حكمه أمريكا وأكدتها له إيران.

البيان: بكلمات موجزة شيخنا الفاضل! ما الذي يجري اليوم في العراق؟

الشيخ حارث الضاري: ما يجري في العراق اليوم هو امتداد لما جرى في السنوات السابقة، وكان البعض يتوقع أن الأوضاع ربما تتحسن بعض الشيء أو أن السياسيين (أو ممن يسمَّون بالسياسيين العراقيين من أرباب العملية السياسية) يتعقلون أكثر فأكثر ليكونوا مقبولين أو لينظر إليهم الشعب العراقي نظرة تختلف عن النظرة السابقة، وإذا بهم – وهذا ما كنا نتوقعه – ينتقلون بالأوضاع من سيئ إلى أسوأ ومن شر إلى شرٍّ منه، ومن بؤس إلى بؤس؛ إذ رأينا المالكي بعد إعلان أوباما الانسحاب وقبل أن يعلنوا إتمام انسحابهم

يقوم بحملة من الاعتقالات والاغتيالات والمطاردات لكثير من أبناء العراق على مختلف توجهاتهم رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً، من البصرة إلى الموصل ومن القائم إلى العمارة شرقاً، نراه يقوم بهذه الحملة المسعورة ولم يتوقف إلى اليوم، واعتقل حتى المرضى والأطفال. قتلت قواته الأمنية كثيراً من العراقيين، من عسكريين ومدنيين من جميع الجهات والفئات العراقية التي يُعتقَد أنها ليست له أو أنها معارضة له أو حتى المشاركة له في الحكم، وإذا به يوالي تصريحاته التي يعبِّر فيها عن إصراره على إقصاء الغير وعلى تقليص حجم الخصوم وعلى الإزباد والإرعاد والوعيد والتهديد لكل من يخالفه أو لا يسير في نهجه منذ ذلك الإعلان وإلى يومنا هذا. وقد أعاد اليوم أيضاً نغمة التكفير والإرهاب بعد التفجيرات الأخيرة الدامية التي حدثت في بغداد وفي مدن عراقية أخرى في كثير من المحافظات. ولا يختلف اثنان – إلا من كان له مصلحة مع هذا النظام أو يؤيدهُ – أن ما جرى ولا يزال يجري من افتعالات أمنية ومن تفجيرات واغتيالات وما إلى ذلك؛ ما هي إلا بتدبير المالكي وسلطاته الأمنية وأجهزته التي تخدمه وتخدم حزبه وتخدم المشروع الذي أوكل إليه المحافظة عليه (مشروع الاحتلال) وكذلك المصالح الإيرانية.

البيان: هل تخشون من التشظي الطائفي والعرقي في عراق اليوم، بين أهل السنة والشيعة من جهة وبين العرب والأكراد من جهة ثانية؟

الشيخ حارث الضاري: أنا بكل تأكيد أقول: لا يوجد انقسام طائفي الآن بالذات على المستوى الشعبي؛ نعم ربما كان هناك من روَّج لهذا في بداية الاحتلال ووجد شيئاً من القبول لترويجه بحكم ظروف تلك المرحلة؛ لكن الآن وبعد أن عرف أبناء شعبنا من الشمال إلى الجنوب، شيعة وسنة، وعرباً وأكراداً وتركماناً وغيرهم أن أعداءهم هم أمريكا وإيران والقوى المتحالفة معهما في الداخل المتمثلة بأرباب العملية السياسية الذين يساهمون – علموا بذلك أم لم يعلموا – في صناعة المشروع الأمريكي لتدمير العراق وتقسيمه واستعباده وإلغائه من خريطة منطقة الشرق الأوسط، فإنه لا يوجد انقسام طائفي كما يشاع؛ فالسنة والشيعة والأكراد يعرفون أعداءهم الآن ويعرفون مصلحتهم، وهي تكمن في وحدة العراق وفي الاتفاق الشعبي في التسامح والتلاقي والوحدة من أجل تحرير العراق وعودته إلى أهله. والانقسام الطائفي الحقيقي الآن هو بين أصحاب العملية السياسية، فهؤلاء الذين استخدموا الطائفة غطاءً لأعمالهم ولمصالحهم، فلا يوجد انقسام طائفي شعبي حقيقي؛ وإنما يوجد انقسام سياسي بين أطراف أو بين دمى العملية السياسية؛ فهم عندما يختلفون على قضية من القضايا أو إذا أراد أحدهم أن يقصي الآخرين أو أقصي من قِبَل الآخرين فإنما يلجأ إلى إثارة هذا الموضوع، فالسنة والشيعة كلهم بِرَاء من أرباب العملية السياسية الذين رهنوا العراق للأجنبي وخدموا الأجنبي على حساب بلدهم وأبناء شعبهم.

وسيستمر هؤلاء على هذا النهج من إثارة الشحن الطائفي، وسيبتكرون الوسائل الكثيرة لإبقاء الجو العراقي مشحوناً بكل الاحتمالات وبكل الأحداث ظناً منهم أن هذا سيعطيهم وقتاً، وسيعطيهم أملاً في الاستمرار أكثر حتى يصلوا إلى نهاية هذه المرحلة الانتخابية، ويشاركوا في المرحلة الانتخابية القادمة؛ فآمالهم بالبقاء كبيرة على الرغم من سوء أفعالهم، وعلى الرغم من كره الشعب العراقي لهم وإظهاره العداوة لهم فهم سيبتكرون كثيراً من الوسائل التي تبقي الجو في العراق مضطرباً ومشحوناً بكل الاحتمالات.

(إذا كانت الأسباب الدافعة على الثورة لبعض الشعوب العربية هي ظلم بعض الحكام لها، فإن ما يعانيه العراقيون من ظلم هو أكثر بكثير مما فعله كل الحكام العرب الذين ثارت عليهم شعوبهم).

البيان: ما دور المقاومة العراقية في ظل هذه الأوضاع الصعبة والمتداخلة؟

الشيخ الدكتور حارث الضاري: المقاومة هي البدر المنير في سماء العراق المظلمة على مدى ٩ سنين، المقاومة هي التي صنعت هذا النصر العظيم وهي التي رفعت رأس العراقيين عالياً وجعلتهم يشمخون عالياً بما حققه أبناؤهم المقاومون الذين واجهوا أعتى قوة عالمية وأرغموها ومرغوا أنفها في التراب وألحقوا فيها ما ألحقوا من الخسائر التي ذكرها الأعداء قبل الأصدقاء، المقاومة هي عز العراقيين وهي شرفهم، وهي التي ذادت عنهم وعن العراق؛ ولذلك هؤلاء الذين يدعون إلى التقسيم يريدون أن يهربوا من استحقاقات تحرير العراق؛ لأن من استحقاقات تحرير العراق على يد المقاومة محاسبةُ المقصرين والعملاء والمتعاملين مع الاحتلال الذين وصلوا بالعراق إلى هذا الوضع المأساوي الذي يشهده العراق، والذي أصبح فيه في مؤخرة الدول البائسة والفقيرة وغير المستقرة في العالم.

سيبقى دور المقاومة كما كان في السنين التسع الماضية حتى يتحرر العراق من بقايا الاحتلال، وحتى يتحرر من التدخلات الخارجية من شؤونه، وحتى تنتهي مشاريع الاحتلال وفي مقدمتها الدستور والعملية السياسية البائسة ونتائجها التي أبادت شعب العراق ووصلت به إلى هذه المستويات المعروفة لنا ولكم وللمراقبين من البؤس والشقاء والدمار.

البيان: هل هناك علاقة تأثر وتأثير بين الشعب العراقي وبقية الشعوب العربية في الثورات ضد الدكتاتوريات؟

الشيخ حارث الضاري: بالتأكيد تأثر الشعب العراقي فعلاً، لولا بطش المالكي وشركاؤه في العملية السياسية، الذين هبُّوا كلهم لإخماد هذا الحَراك الشعبي الذي بدأ يوم ٢٥ شباط من العام الماضي، وإنهاء الثورة الشبابية والانتفاضة الشعبية التي عمَّت ١٦ محافظة من محافظات العراق؛ واستشهد في اليوم الأول من هؤلاء الثائرين المنتفضين ٢٥ شهيداً، كما جرح المئات واعتقل المئات ولا زالوا يطارَدون. ومع الأيام استطاع المالكي بأجهزته الأمنية وإغراءاته المالية لضعفاء النفوس من بعض رؤساء القبائل والسياسيين تهدئة الشوارع. وساعده في ذلك دعاة الأقاليم؛ حيث انتشروا في كثير من المحافظات وطلبوا من الوجهاء ومن رؤساء القبائل ومن علماء الدين (أو من يسمَّون بعلماء الدين)، طلبوا منهم بذل الوسع في تهدئة الشارع الثائر ما أمكن؛ لأن المظاهرات قد لا تكون في صالح العملية السياسية وإنما قد يستغلها بعضهم لكذا وكذا كما قالوا. لذلك أقول: دعاة الإقليم أو الإقليمية لو كانوا صادقين في أن الدافع الأساسي لهم هو مصلحة أهلهم أو ناخبيهم أو شوارعهم كما يزعمون، لتركوا هذه الشوارع تتظاهر وتعتصم وتثور حتى تصل في النهاية مع غيرها من المحافظات الأخرى إلى تحقيق التغيير. ومن هنا أقول: تأثر العراقيون بالحَراك الشعبي العربي أو بما يسمى بالربيع العربي، كما أن الربيع العربي تأثر من قبل بفعل المقاومة العراقية الجبار الذي أعطى الشعوب العربية قناعة بأن الشعوب إذا صمدت تستطيع أن تفعل كل ما تريد.

البيان: كيف يمكننا المقارنة بين الواقع العراقي الحالي، وبين ما تعانيه شعوب المنطقة التي ثارت ضد الظلم؟

الشيخ حارث الضاري: إذا كانت الأسباب لبعض الشعوب العربية والدافع لها على الثورة هو ظلم بعض الحكام لها؛ فإن ما يعانيه العراقيون من ظلم هو أكثر بكثير مما فعله كل الحكام العرب الذين ثارت عليهم شعوبهم، وما جرى في العراق يعدل في تقديري ٨٠ ٪ مما جرى من ظلم ومظالم وإقصاء من قِبَل

هؤلاء الحكام، كما أن العراقيين ليسوا أقل حاجة إلى الحرية وإلى الكرامة وإلى امتلاك الإرادة وحكم بلدهم بأنفسهم بلا وصاية وبلا احتلال وبلا استعباد.

البيان: نشهد ارتباكاً وخوفاً واضحاً يعتري المنخرطين في العملية السياسية في ظل الاحتلال في العراق، تُرَى ما السبب؟

الشيخ حارث الضاري: لهم أن يخافوا ولهم أن يرتبكوا؛ لأنهم قتلة وسرَّاق ودلالون للأجنبي وللغريب على بلدهم وعلى أبناء جلدتهم؛ فقد ارتكبوا من الجرائم ما لا يحصى وما لا يُعَد وارتكبوا من الآثام شيئاً كثيراً، أكلوا وشربوا ونهبوا وكذَّبوا وتمالؤوا على العراق وأبنائه وعلى مقاومته؛ لذلك لهم أن يخافوا لأن الشعب أحصى عليهم كل هذا ولأن الشعب يريد أن يثور عليهم وسيثور عليهم في الوقت المناسب بعون الله تعالى، وسيُطِيح بهم كما أطاحت الشعوب الأخرى بغيرهم من الظلمة.

البيان: فضيلة الشيخ! كلمة أخيرة عن العراق، هل تراه سيعود قوياً مؤثراً في المنطقة بعد زوال الاحتلال بشكل كامل؟

الشيخ حارث الضاري: هذا هو العراق في كل تاريخه قبل الإسلام وبعد الإسلام؛ كلما غُزي من قِبَل أعدائه الخارجيين يبقى صامداً بعد كل ما يجري فيه من خراب ودمار وقتل وتشريد وتهجير، ولعلك تلاحظ أن أغلب المشاهد الحالية في العراق قد جرت على العراق والعراقيين قبل الإسلام وبعد الإسلام. ويهمنا هنا الحديث عما جرى بعد الإسلام؛ فقد تعرَّض العراق لأربعة احتلالات كبيرة عدا التدخُّلات والاحتلالات الجزئية.

الاحتلال الأول كان من قِبَل البويهيين الذين احتلوا العراق وحكموه فترة ثم نهض العراقيون وغيرهم من أبناء الأمة الذين انتصروا لهم واستجابوا لدعواتهم وشاركوهم في تحرير العراق، فعاد العراق موحداً. إلا أن أهله كانوا لا يفكرون في التقسيم والتمزيق؛ لأن التقسيم والتمزيق يعد خيانة عظمى وإثماً شرعياً.

وحينما ذهب البويهيون بعد ذلك بفترة جاء التتار بقيادة هولاكو فدخل بغداد وفعل ما فعل مما حكاه التاريخ مما يُدمي القلوب، ثم بعد ذلك تنادى المسلمون من عراقيين وغيرهم من سوريين ومصريين وفلسطينيين وغيرهم؛ لمواجهة هذا الخطر الداهم فمزقوا التتار شرَّ ممزق حتى انتهت موجتهم الكبيرة في دار الإسلام والمسلمين بين العراق والشام، وانتهى التتار إلى اليوم؛ فمنهم من أسلم ومنهم من قُتِل ومنهم من أقام في كثير من الدول في منطقة الشرق الأوسط وفي غيرها.

ثم جاء غيرهم وغيرهم حتى جاء البريطانيون عام ١٩١٤م؛ حيث أرادوا أن يحتلوا العراق وصُدوا منذ سنة ١٩١٤م حتى سنة ١٩١٦م وقُتِل كثير من قواتهم وحوصروا الحصار المعروف في الكوت (محافظة واسط)؛ حيث حوصر (١٥٠٠٠) ألف عسكري بريطاني ومات كثير منهم جوعاً واستسلم الباقون، ثم أعادوا قوَّتهم وعدَدَهم وعُددهم في سنة ١٩١٦م واستمروا حتى احتلوا بغداد عام ١٩١٧م وبقوا في العراق إلى سنة ١٩٢٠م، وهم يَعِدُون العراقيين بأنهم جاؤوا محررين لا فاتحين؛ ولكنهم فعلوا الفعل عينَه الذي فعله الأمريكيون حين قالوا: جئنا نحرركم من صدام أو من النظام السابق، وبئس هذا التحرير وبئس ما ادَّعوا. وبعد مضي ثلاث سنين طالبهم العراقيون بالرحيل فأبَوا وثاروا عليهم من الشمال، من زاخو والعمادية ودهوك والموصل وحتى الجنوب مروراً بالوسط والشرق والغرب، في ديالى وكربلاء والنجف والناصرية والبصرة وبغداد والأنبار، كل هذه المناطق ثارت على الاحتلال البريطاني وأرغمته على تحقيق بعض المطالب لهم.

لن يطالب العراقيون لا سُنة ولا شيعة ولا عرباً ولا أكراداً بعد رحيل الاحتلال بتقسيم العراق، علماً أن الشعب العراقي كان لا يتجاوز عدده ٣.٠٠٠.٠٠٠ أو حتى ٣.٥٠٠.٠٠٠ نسمة، واليوم عندما وصل الشعب العراقي إلى ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ – وأكثرهم مثقفون وأغلبهم من أصحاب الغيرة، وكلهم عرب ومسلمون – نجد بعض من جاء مع الاحتلال أو من شارك في مشروعه بعد مجيئه من الداخل؛ يطالبون بتقسيم العراق وما دروا، أو لعلهم يدرون، بل هم يدرون أن التقسيم هو أحد أهداف أمريكا بعد احتلال العراق وتسريح جيشه وتدميره، فهو المطلب المهم بعد انسحاب الاحتلال الأمريكي وحلفائه في العراق. فتباً لهؤلاء الدعاة، وهؤلاء لا يمثلون السنة، كما أن دعاة الأقاليم في الجنوب لا يمثلون الشيعة؛ ولذلك أقول: الشعب العراقي بأجمعه بسنته وشيعته بعربه وأكراده وتركمانه ومسلميه ومسيحييه بِرَاء من هؤلاء؛ لأنه لا يثق بهم ولأنهم لم يعملوا شيئاً يُذكرون عليه بخير لبلدهم وشعبهم.

إِلَهَنَا...!

شعر: أسامة المحوري
Osamh12@maktoop.com

تعطي وتُنعمُ - ربنا - وتجودُ ... وبُحُورُ فضلِك ما لهُنَ حدودُ
أسقيتَ روضَ الحقِ في أرواحِنا ... فنما اليقينُ وأزهرَ التوحيدُ
لولاك ما أمَّت ركائبُنا الهدى ... ولَمَا أطلَّ صباحُنا المنشودُ
فدرُوبُنا من غير نورِك لُجةٌ ... وقلوبُنا من دونِ ذِكْرك بيدُ
جلَّيتَ أيات النجاةِ لأمةٍ كادتْ ... عن الدربِ السَّوي تحيدُ
حَيرى يطوفُ الوهمُ في خلجاتها ... ويغيبُ عن ألبابِها المقصودُ
أنت الذي أجليتَ من أفاقها ... سُحُبَ الظلامِ، فأشرقَ المحمودُ
فإذا الوجوهُ بشارةٌ ونضارةٌ ... وإذا الوجودُ بلابلٌ ونشيدُ
تزهو الحياةُ إذا رضيتَ إلَهَنَا ... ويطيبُ فيها الحبُ والتغريدُ
لك تُسلِم اليومَ القلوبُ زمامَها ... وإليك تأوي - ربنا - وتعودُ
ونَدورُ في فَلَكِ الحياة وحسبنا ... أنَّا لرب العالمين عبيدُ

[المسلمون.. والعالم]

الشعب اختار هويته الإسلامية واستقلال إرادتها السياسية
محمد جمال عرفة

فتنة الحوثي مع دماج بين الماضي والحاضر
د. محمد بن موسى العامري

التدخل الأجنبي في الثورات العربية
أ. د. علاء الدين الأمين الزاكي

حصاد الثورة الليبية
د. علي رحومة المحمودي

الحركات الإسلامية... ولعبة الزعيم
طلحة محمد المسير

فلسطينيو العراق بين المطرقة والسندان
أيمن الشعبان

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

الشعب اختار هويته الإسلامية واستقلال إرادتها السياسية

مصر: الفوز بأغلبية البرلمان يطرح تحديات أخطر على التيارات الإسلامية

محمد جمال عرفة

بإجراء المرحلة الثالثة من الانتخابات البرلمانية المصرية وظهور ملامح تركيبة البرلمان، بدأت تتضح معالم أول برلمان في مصر بعد «ثورة ٢٥ يناير» بعد فوز التيارات والأحزاب الإسلامية المختلفة بقرابة ثلثي المقاعد تقريباً، وظهرت طبيعة مزاج التصويت العام للمصريين في هذه الانتخابات.

فالمزاج العام للمصريين في هذه الانتخابات كما أشارت نتائج المراحل الثلاث للانتخابات، هو السعي نحو الهوية الحضارية الإسلامية، والبحث عن منهج حكم جديد بعدما جرَّب المصريون والعرب الأفكار الاشتراكية والليبرالية ولم يجربوا بَعْدُ النموذج الحضاري الإسلامي للحكم.

فعلى الرغم من إرجاء انتخابات ٢٦ مقعداً وَفْقاً لأحكام قضائية، والإعادة على قرابة ٣٠ مقعداً في المرحلة الثالثة والأخيرة، فقد أظهرت نتائج (٤٧٠ مقعداً) من مقاعد البرلمان الـ ٤٩٨ – حتى ساعة كتابة هذا التقرير – فوز حزب الحرية والعدالة «الإخوان المسلمين» بالأكثرية في البرلمان بـ (٢٠٧ مقاعد) وهي مرشحة لأن تصبح (٢٣٠ مقعداً) على الأقل بعد التصويت على الإعادة على (٣٠ مقعداً) أخرى. ويليه حزب «النور» سلفي التوجه الذي حصد (١١١ مقعداً)، ثم حزب «الوفد» الليبرالي (٤٥ مقعداً) وهو الذي حقق مفاجأة وأطاح بتحالف «الكتلة المصرية» الذي يضم أحزاب: «المصريين الأحرار» الليبرالي و «المصري الديمقراطي» و «التجمع» اليساري وقد فاز هذا التحالف بحوالي (٤٣ مقعداً).

وحصلت أحزاب إسلامية تابعة للجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد وتيارات أخرى على مجموع مقاعد بلغت (٦٧ مقعداً)، ومجموعة أحزاب ثورية وصغيرة أخرى (٥٤ مقعداً)، وحزب الوسط (إسلاميون إخوان منشقون على الجماعة الأم) (١١ مقعداً).

ومن الأرقام الملفتة للأنظار فوز (١٩) مرشحاً ممن يطلَق عليهم (الفلول) نسبة إلى نواب الحزب الوطني المنحل السابق الذين انضموا إلى أربعة أحزاب جديدة، و (٩) مرشحين من تحالف (الثورة مستمرة) وغالبيتهم من شباب الثورة.

أيضاً من المهم الإشارة إلى أن قائمة حزب الحرية والعدالة (التحالف الحضاري) فازت بهذه المقاعد الـ ٢٣٠ كتحالف يضم ١١ حزباً، فبحسب منسِّق «التحالف الديمقراطي من أجل مصر» الذي يقوده حزب «الحرية والعدالة» الدكتور وحيد عبد المجيد فإنه سيكون نصيب التحالف – على الأرجح – في حدود (٢٣٠ مقعداً)، منهم نحو ٢١٠ من حزب «الحرية والعدالة» والباقون من مختلف أحزاب التحالف، وهي نسبة لا ترتقي إلى نصف مقاعد البرلمان (٢٤٩) على الرغم من أن التحالف كان يستهدف الفوز بـ (٢٦٠ مقعداً) «لكن القفزة غير المتوقعة لتحالف حزب النور غيَّرت الخريطة الانتخابية لكل القوى».

أما الناطق باسم حزب «النور» فتوقع أن يفوز حزبه بـ (١٢٠ مقعداً) في البرلمان الجديد «بعد حسم المقاعد الفردية التي يُتَنَافَس على (٢٤ مقعداً) منها في جولة الإعادة الأخيرة» ليشكل ثاني أكبر كتلة في البرلمان ويصبح رمانة الميزان في أي تحالفات حزبية في البرلمان ولا يمكن تجاهله في حسابات تشكيل لجان البرلمان الجديد أو تشكيلة أي حكومة مقبلة.

دلالات الفوز:

أبرز دلالات مؤشرات هذه الانتخابات، هي:

أن من يشيعون الخوف بين المصريين من حكم الإسلاميين، خسروا هذا الرهان الخاسر أصلاً، وأظهر التصويت أن هذا الخوف غير مبرر لأن أجواء المرحلة الجديدة تختلف تماماً عن أجواء الأنظمة السابقة، والشعب المصري تحرَّك وخرج للشارع وصوَّت بحرية عندما اتيحت له الفرصة وأصبح هو الرقيب على الحياة السياسية.

وعلى الرغم من حالة التفزيع التي قام بها خصوم التيار الإسلامي فإنه يرى خبراء سياسيون أن امتلاك حزب الحرية والعدالة أغلبية في البرلمان وفوز حزب النور بالمركز الثاني – وهما حزبان تشكَّلا منذ عدة أشهر فقط – يُعدُّ ميزة جعلت منهما ما يشبه العمود الفقري الشرعي الثابت والصلب للأغلبية داخل البرلمان، وأُنقِذ البرلمان والحكومة من التفتت والعشوائية التي قد تجهض التجربة الحضارية كلها بسبب الخلافات والمطامع السياسية لكل فصيل سياسي مشارك في الحكومة.

أيضاً من دلالات هذه الانتخابات أنها أثبتت أن الأغلبية الصامتة تحركت وبنسَب تفوق بأربعة أضعاف من كانوا ينتخبون سابقاً وتذهب أصواتهم هدراً بالتزوير (نسبة التصويت قرابة ٦٠ – ٧٠ ٪)، وهو تحرُّك حسم الصراع لصالح الأغلبية الصامتة، وأنه على النقيض مما كان يقوله مسؤولون في نظام حكم الرئيس المخلوع حسني مبارك من أن شعب مصر غير مؤهل أو غير ناضج للديمقراطية! لقد أثبت المصريون قدرتهم على تقديم نموذج حضاري حقيقي ذاتي، بل تحدَّوا كلَّ الصعاب ومؤامرات تأجيل الانتخابات عبر العنف المفتعل هنا وهناك، وجاء الإصرار على الانتخابات والتصويت الكثيف فيها ليسحَب البساط من تحت أقدام التحرير أو القوى التي كانت تفضِّل تأجيل الانتخابات خشية فوز الإسلاميين بها.

خريطة التحالفات المحتملة، وسيناريوهات المستقبل:

لأنه لم يَفُز أي حزب أو تحالُف بالنسبة الغالبة للسيطرة على البرلمان أو فرض قرارها في غالبية قوانينه وحتى الحكومة المقبلة - وهي نسبة (٥٠ ٪ + ١) - فسوف يُفرَض على البرلمان المقبل عدة سيناريوهات تتعلق بالتحالفات؛ سواء في ما يخص قرارات البرلمان أو تشكيل الحكومة المقبلة، وإن كان التحالف الحضاري الذي يقوده الحرية والعدالة فسيكون هو محور هذه التحالفات كلها؛ لأنه حصل على (٢٠٧ مقاعد) (يتوقع أن تزيد إلى ٢٣٠ أو ٢٣٢ مقعداً).

ويقول خبراء ومحللون سياسيون: إن هناك عدة تحالفات افتراضية يمكن أن تشكِّل أغلبية برلمانية أبرزها ستة سيناريوهات:

الأول: تحالف بين الحرية والعدالة، وأحزاب إسلامية (غير حزب النور)، وهي: البناء والتنمية، والأصالة، وعدد آخر من الأحزاب الصغيرة والمستقلين، حيث سيصل عدد المقاعد إلى (٢٧٤ مقعداً).

الثاني: تحالف «الحرية والعدالة» مع «تحالف النور الإسلامي» وهو ما يعني سيطرة الكتلتين الإسلاميتين على عدد مقاعد قد يصل إلى (٣٤٥ مقعداً) (حالياً ٣١٣ مقعداً) بواقع (٢٠٧ مقاعد) للتحالف الحضاري و (١٠٦ مقاعد) للتحالف الإسلامي.

الثالث: تحالف «الحرية والعدالة» (٢٠٧ مقاعد)، مع الوفد الذي يمتلك ٤٥ مقعداً، ويصل إجمالي المقاعد إلى ٢٥٢ مقعداً.

الرابع: تحالف «الحرية والعدالة» (٢٠٧) مع «الكتلة المصرية» الليبرالية - وهي قائمة مدعومة من الكنيسة - تمتلك (٤٥ مقعداً) ليصل عدد المقاعد إلى (٢٥٢ مقعداً).

الخامس: «الحرية والعدالة» مع «الثورة مستمرة» والأحزاب الصغيرة والمستقلين؛ ففي هذه الحالة يصل عدد المقاعد إلى (٢٦١ مقعداً).

السادس: وهو تحالف يبدو مستحيلاً بين جميع الأحزاب والتحالفات الأخرى في مواجهة «الحرية والعدالة»، وهو الأمر المستحيل حدوثه؛ إذ من المستبعد - على سبيل المثال - تحالف الكتلة الليبرالية مع النور؛ إلا أنه لو حدثت المعجزة وتم هذا التحالف فسيكون عدد مقاعده (٢٨٠ مقعداً).

تحديات الإسلاميين

مع قرب انتهاء تشكيل أول برلمان مصري حقيقي منذ عهد الفراعنة اتضحت إلى حد كبير خريطة القوى السياسية الممثلة في مجلس الشعب الجديد، ومع اقتراب يوم افتتاح برلمان الثورة يوم ٢٣ يناير والذكرى الأولى للثورة يوم ٢٥ يناير تبرز تحدياتٌ كثيرة وسيناريوهات عديدة متوقعة لمستقبل مصر.

فبانتهاء المرحلة الثالثة للانتخابات أصبح على الجميع أن يتكاتف لحل مشاكل مصر والعبور بالثورة إلى مرحلة بناء الدولة والاستقرار.

داخلياً: هناك ثلاثة تحديات كبرى ستواجه البرلمان المقبل والإسلاميين خصوصاً:

أولها: التحدي الاقتصادي أو (التركة الثقيلة): وهي من السلبيات التي خلَّفتها الحكومات السابقة مدة أكثر من نصف قرن واختلال برامج التنمية بين المدن الكبرى والمناطق الريفية.

ثانياً: التحدي السياسي: بإنهاء علاقة الاستبداد التي غلبت على العلاقة بين الحاكم والمحكوم طوال الأعوام الماضية، وتحديد هدف قومي يتجمع حوله المصريون، وأن يكون هذا البرلمان معبِّراً عن كل قوى الثورة بما فيهم من لم يوفَّقوا بالفوز في الانتخابات.

ثالثاً: هناك التحدي الأمني: بالتغلب على الانفلات الأمني من ناحية وإعادة العلاقة الطيبة بين المواطن والشرطة على أسس من الاحترام المتبادل.

خارجياً: هناك أيضاً تحديات كثيرة ستواجه هذا البرلمان:

أولها: عودة مصر لدورها الريادي في المنطقة العربية بعدما انسحبت وانطفأ دورها.

ثانيها: تحدي الاستقلال الوطني والتصدي للهيمنة الأمريكية والغطرسة الصهيونية، وتحديد طبيعة العلاقة مع تل أبيب.

نـــمـــاء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظماً.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

حصاد الثورة الليبية

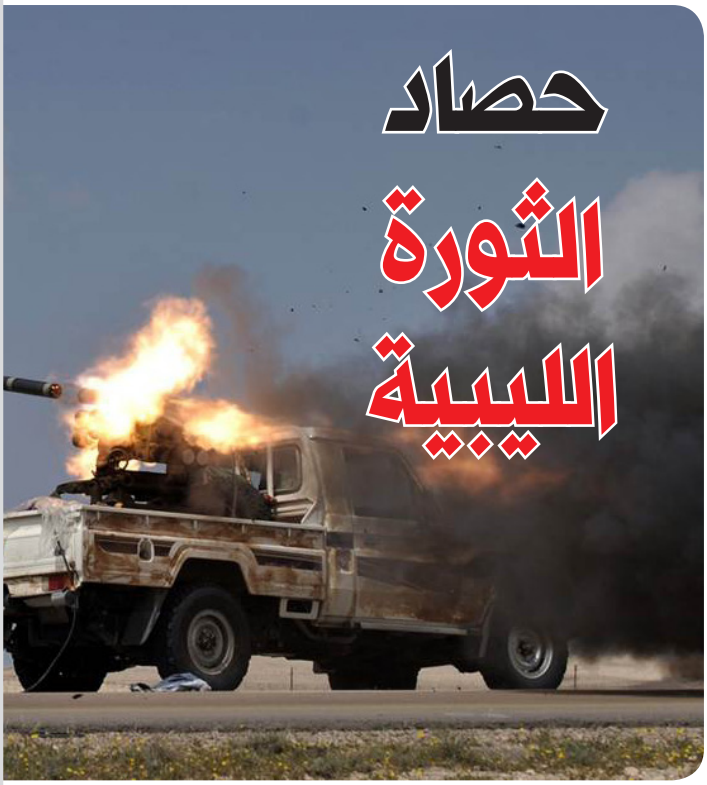

د. علي رحومة المحمودي
almahmoudi@yahoo.com

لا يختلف عاقلان في أن الثورة الليبية لها خصوصيتها التي تميزها عن غيرها من الثورات؛ فقد خاض الشعب الليبي حرباً لا هوادة فيها من أجل حريته وكرامته، وقد كلَّفته هذه الحرب آلاف الشهداء والجرحى والمفقودين، ناهيك عن التدمير والخراب الذي لحق بطول البلاد وعرضها، فحريٌّ بنا أن نتأمل في هذه الثورة وما نتج عنها لاستخلاص العِبَر وتصحيح المسار. ومما ينبغي الإشارة إليه: أن هذا التقرير مجرد قراءة في المشهد الليبي من وجهة نظري، وقد تطرَّقت فيه لبعض القضايا التي قد تبدو لغير الليبيين أنها ليست بتلك الأهمية، كقضية الاستعانة بالتحالف الغربي، أو التطرق لبعض جرائم القذافي أو نحو ذلك؛ إلا أن حقيقة هذه الأمور تُعَدُّ من الأهمية بمكان بالنسبة للداخل الليبي.

أولاً: لمحة عامة عن الشعب الليبي:

على الباحث الذي يهمه الشأن الليبي أن يكون على بيِّنة من تركيبة هذا الشعب، من حيث معتقدُه، وتقاليدُه، ونحوُ ذلك؛ إذ الغفلة عن هذه القضية سوف تؤدي في النهاية إلى تحليل خاطئ، أو غير واقعي على أحسن تقدير، ويمكن حصر النقاط المهمة المتعلقة بهذه القضية على النحو التالي:

١ - الشعب الليبي شعب مسلم سُني على مذهب الإمام مالك في عمومه[١]. والفتوى الشرعية لها تأثير كبير على عموم الناس؛ لا سيما إذا كانت هذه الفتوى من علماء لهم مكانتهم العلمية ومواقفهم الصادقة والثابتة.

٢ - السمة العامة التي يتسم بها الشعب الليبي هي سمة البداوة والبساطة: فالشعب الليبي في عمومه عبارة عن مجموعة من القبائل المتوزعة هنا وهناك[٢]، وهذه القضية لا يسع المهتم بالشأن الليبي الغفلة عنها إطلاقاً؛ فكل المشاريع السياسية والثقافية والدعوية ونحو ذلك من التي يُراد إقامتها في ليبيا يجب أن تحسب لهذه القضية حسابات دقيقة.

٣ - مما يتميز به الشعب الليبي أيضاً نفوره من الأجنبي؛ سواء كان هذا الأجنبي غربياً أو عربياً؛ فإذا شعر الناس أن هذه البلاد أو تلك جاءت إلى بلادهم لتنهب خيراتهم، أو لتتدخل في قرارتهم أو نحو ذلك، نفروا منها، وربما استعدوا لقتالها إن لزم الأمر. وهذا الأمر تغفل عنه (أو تتغافل) دولة قطر في سياساتها العامة نحو ليبيا هذه الأيام، وقد يكلِّفها كثيراً وهي لا تشعر.

ثانياً: عهد القذافي:

يعجز الإنسان في عجالة كهذه أن يحيط بجرائم القذافي نحو شعبه، ونحو الشعوب الأخرى، وقد ظهر لكافة الناس بعضٌ من تلك الجرائم في الأحداث الأخيرة،

(١) يوجد أقلية من إخواننا الأمازيغ تنتهج المنهج الإباضي، ولكن دون تعمق في المذهب أو التزام به.

(٢) الحديث هنا عن العموم، وإلا فإنه يوجد بعض الناس لا ينتمون إلا قبائل معينة لا سيما في العاصمة طرابلس، ولكن هؤلاء – للأسف – كثير منهم متعصب لأهل مدينتهم أكثر من تعصُّب أولئك لقبيلتهم!

وحتى يكون القارئ على بينة من تلك الجرائم سأذكر بعضها على وجه الإجمال:

١ – صادر القذافي أموال الليبيين وممتلكاتهم تحت مقولة: (من أين لك هذا؟)، وتحت مقولة: (البيت لساكنه)، وتحت مقولة: (شركاء لا أُجَرَاء). ونهبت ما تُسمَى باللجان الثورية البيوتَ والمصانعَ والشركاتِ الخاصة.

٢ – تحت مسمى الثورة الثقافية أحرق القذافي جميع الكتب والمؤلفات التي تخالف فكرَه ومعتقَدَه، وقام بتصفية وقتل النخب الفكرية والسياسية في الميادين العامة بل في الجامعات والكليات العلمية.

٣ – لم يتنعم الشعب الليبي بثرواته على الإطلاق طيلة حكم القذافي، وقد كانت خزائن الشعب وأمواله ونفطه حكراً على القذافي وعائلته والمقربين من زبانيته.

٤ – ذهب كثير من أبناء الشعب الليبي ضحية الحروب والمعارك التي أشعلها القذافي مع الشعوب الأخرى، كما في حرب تشاد، وأوغندا، ولبنان، ولم يسلم من طيش القذافي وجنونه حتى الأشقاء من مصر وتونس.

٥ – كل الشعب الليبي كان حمى مستباحاً للقذافي وزبانيته؛ فلا يستطيع أي أنسان أن يأويَ إلى بيته وهو آمن، فقد تتعقبه الزبانية بالسلاسل والأغلال وتخفيه في مكان لا يعلم به إلا الله، ولا يجرؤ ذووه حتى على السؤال عنه، وقد يُمضي سنوات عديدة على هذا الحال، وقد كان القذافي يتوعد معارضيه في الخطابات الرسمية وعلى مرأى ومسمع الجميع فيقول: (إذا وجدتموهم فارموهم بالرصاص في الطرقات).

٦ – قاد القذافي حملةً شعواء ضد التدين والاستقامة، ولم يتردد الهالك في إنكار السنة النبوية، وانتقاص نبينا ﷺ وصحابته الكرام في غير مناسبة، ناهيك عن قتله وسجنه للشيوخ والعلماء وطلبة العلم.

٧ - أما الفساد الإداري والتعليمي والاقتصادي ونحو ذلك فحدِّث ولا حرج؛ فقد أجمع جميع العقلاء في ليبيا على أن الفساد ممنهج ومقصود في جميع الأصعدة.

أما القضية التي من أجلها قامت ثورة ١٧ فبراير، فهي القضية الشهيرة التي عُرفت بقضية (سجن أبو سليم)؛ حيث إن القذافي أمر زبانيته – وعلى رأسهم المجرم عبد الله السنوسي – بقتل ألف ومائتين وتسعة وستين نزيلاً من نزلاء السجن، وقد استغرقت هذه المذبحة بضع ساعات فقط حتى أتوا عليهم جميعاً.

ملاحظة يجب الوقوف عندها:

من الأمور التي لا يتطرق لها الإعلام ومن يُطلُّون علينا في القنوات الفضائية: أن هؤلاء القتلى الذين سقطوا في هذه المذبحة هم جميعاً من التيار الإسلامي، بل تحديداً من التيار السلفي الذين اتخذوا الكتاب والسُّنة منهجاً ودليلاً، فلم يكن من هؤلاء الشهداء الأبرار ليبرالياً أو شيوعياً أو قومياً أو نحوهم، بل لم يكن منهم حتى من أبناء التيارات الإسلامية الأخرى، بل كلهم جميعاً كانوا على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف رحمهم الله، وقد كان لنا منهم إخوة وأصدقاء وجيران علم الله أنهم كانوا صفوة الناس خُلُقاً وديانة وعلماً وأدباً، نحسبهم كذلك والله وحسيبهم.

ثالثاً: الثورة على القذافي:

بعد أن اعترف القذافي وابنه (سيف الإسلام) رسمياً بهذه المجزرة الرهيبة، خرجت بعض العائلات في مدينة بنغازي للاعتصام والمطالبة بالتحقيق والقصاص في هذه المذبحة، والجميع يعلم أن السفاح والمجرم الأول في هذه القضية هو القذافي نفسه، تزامن مع هذه الاعتصامات تحديد موعد ١٧ فبراير عبر موقعَي «فيس بوك» و «تويتر» وغيرهما من «المواقع الإلكترونية» للخروج في المظاهرات ضد نظام القذافي، وكان من قدر الله أن تخرج عائلات الضحايا في يوم ١٥ فبراير؛ أي قبل موعد المظاهرات بيومين، فما كان من زبانية القذافي إلا أن قابلوا هؤلاء المتظاهرين بالنار والحديد، فسقطت الضحايا، وكان ذلك سبباً في انتشار المظاهرات في طول البلاد وعرضها، بل وفي خارجها أيضاً من أبناء الجاليات الليبية، واستمرت المظاهرات والتمرد على القذافي شهراً ويومين قبل أن يتدخل الغرب في ليبيا بدعوى حماية المدنيين، وقد سقط في هذه الفترة آلاف الشهداء على مرأى ومسمع العالم كله بما في ذلك الغرب نفسه!

رابعاً: التدخل الغربي (حلف الناتو):

لا شـــك أن التدخل الغربي في الثـــورة الليبية كانت له آثار إيجابيـــة على الثوار والثورة، ولكن بالمقابـــل أيضاً كانت له آثار سلبية على كثير من الليبيين، وقد ذكرت سابقاً أن عموم الليبيين ينفرون من التدخل الأجنبي، وقد كانت هذه القضية ســـبباً في توقف كثير من الليبيين عن دعم الثورة، بل الوقوف ضدها، وقد أسهم القذافي وإعلامه المخادع في تعميق هذه الهوة بين الثورة والثوار من جهة وبين كثيـــر ممن يرفضون التدخل الأجنبي في شؤون بلادهم من الليبيين من جهة أخرى، ولعله من المناسب أن نتوقف عند هذه القضية لنتناولها عبر النقاط التالية:

١ – بـيَّنا ســـابقاً أن جرائم القذافي في حق الشعب الليبي يصعب حصرها، وهذه قضية لا ينكرها إلا صنفان من الناس:

صنـــف منتفع غايـــة الانتفاع من نظـــام القذافي، كاللجان الثورية، وبعـــض القبائل وزعمائها الموالـــين له، وبعض ضعاف النفوس من حثالة المجتمع.

والصنف الثاني: هم أولئك البســـطاء السذج الذين تنطلي عليهم ألاعيب القذافي وأفعاله وتصريحاته الزائفة.

٢ – حينما خرج الناس للمظاهرات خرجوا مســـالمين؛ أي بدون إشهار السلاح، فقابلهم القذافي بالرشاشات والبنادق، وهذه مسألة ظاهرة لا تحتاج إلى دليل لإثباتها.

٣ – من الأمور التي يجب أن لا نهملها في هذا الســـياق أن جميع القوة العسكرية في ليبيا كانت تتبع للقذافي وأبنائه وبعض الموالين له من عملاء بعض القبائل، وقد جرَّد القذافي جميع شرائح المجتمع من جميع أسباب القوة؛ فالجيش الليبي تم تفريغه من محتواه إلى كتائب القذافي وأبنائه، فاســـتحال كياناً من ورق لا غير. أما عامة الشعب فلا تجد عند أحدهم حتى بندقية صيد، ووجود السلاح في زمن القذافي عند فرد من أفراد المجتمع تُعَد جريمة ومن عظائم الأمور.

٤ – أضف إلى ما تقدم، أن القذافي له معسكرات منتشرة في طـــول البلاد وعرضها من المرتزقة؛ فمعســـكرات الأفارقة من النيجر وتشاد والســـودان وموريتانيا وغيرهم يعلمها غالب الليبيين، وقد كانت مدينة طرابلس محاطة بمعســـكرات هؤلاء المرتزقة إحاطة الســـوار بالمعصم، كمعســـكر جُدَّايم، ومعسكر الســـواني، ومعســـكرات تاجوراء و «البيفي» وغيرها. وقد كان لهؤلاء المرتزقة دور جوهري في الأحداث؛ فقد استعان القذافي بهم لإخماد الثورة قبل أن يســـتعين الشعب الليبي بحلف الناتو، فكان القذافي هو أول من جاء بالمستعمر لليبيا، والمستعمر ليس بالضرورة أن يكون أوروبياً، فالمســـتعمر الإفريقي الذي استعان به القذافي كان شـــراً علينا من الناتو، وهذه القضية لو تأملها العقلاء بتجرد لأنهت الجدل القائم حول التدخل الأجنبي.

إذنً يجب استحضار كل النقاط المتقدمة عند الحديث عن التدخل الأجنبي، وليس من الإنصاف والموضوعية في شيء أن نتحدث عن التدخل الأجنبي والاستعمار ونحو ذلك مع إغفال ما تقدم. وإضافة إلى ذلك يجب علينا أن نســـتحضر النقاط التالية عند الحديث عن التدخُّل الغربي في ليبيا:

١ – نعتقـــد نحن المســـلمين أن الله – جـــل جلاله – هو المتصرف الوحيد في هذا الكون الفســـيح، وما من شيء يقع في هذا الكون إلا بقدره، جل جلاله.

٢ – أن الله – جل جلاله – يُعزُّ من يشاء كيفما شاء، ويذل من يشـــاء كيفما شاء؛ فقد ينصر الله المستضعفين بسبب استعدادهم وقوتهم، وقد ينصرهم بدون ذلك كما نصرهم بالريح يوم الأحزاب، وقـــد ينصرهم بالرجل الفاجر والكافر أحياناً، كما نصر الله نبينا محمد ﷺ بعمه أبي طالب الكافر، وبالمطعم بن عدي وغيرهما.

٣ – الغرب له وجهان:

الوجـــه الأول: هـــو الوجـــه الداخلي؛ أي عامـــة الغربيين والمنظمات الحقوقية والنقابات ونحو ذلك؛ فهذا الوجه يســـعى لإيجاد العدل والحفاظ على الحقوق ونحو ذلك.

أما الوجـــه الثاني: وهو الوجه الخارجـــي الذي يتعاطى به الغرب مع القضايا الخارجيـــة، كالحكومات والبرلمانات ومجلس الأمن وأجهزة المخابرات ونحو ذلك، فهذا الوجه قبيح جداً، وهذا الوجه لا يهمه – إطلاقاً – الحريات والحقوق والدفاع عن المدنيين ونحو ذلك؛ إنما الذي يهمه مصالحه وأطماعه الاستعمارية.

٤ – بناء على ما تقدم فإنه من الســـذاجة بمكان اعتقاد أن تلـــك الأيادي التي لا زالت تقطر مـــن دماء أطفال العراق وأفغانســـتان جاءت لتمســـح دموع الأطفـــال وتضمد جروح المصابين على ضفاف المتوسط.

لماذا جاء الغرب إلى ليبيا؟

لا يختلف عاقلان في أن الغرب لا يتحرك خارج حدوده إلا لأطماعه ومصالحه الاستعمارية، وهذه قضية عليها أدلة كثيرة ولا تحتـــاج إلى إثبات، ولكن ما هـــي تلك المصالح – تحديداً – التي يسعى الغرب لتحقيقها في ليبيا؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه عبر النقاط التالية:

أولاً: النفط ومشتقاته: يعتقد كثيرون أن الدافع الرئيسي وراء التدخل الغربـــي في ليبيا هو النفـــط، أو بصفة عامة مصالحه المادية، وهـــذا الأمر وإن كان ظاهره صحيحـــاً إلا أنه لا يمكن اختـــزال التدخل الغربي في ليبيا في هذه القضية؛ إذ من المعلوم

للقاصي والداني أن النفط الليبي في زمن القذافي كان حكراً على الشركات الغربية؛ ففي تقرير أعدَّه معهد ستراتفور الأمريكي للدراسات الاستخباراتية ونقله موقع الجزيرة نت بتاريخ ٢٥ - ٣ - ٢٠١١م يتضح أن علاقة نظام القذافي بالأنظمة الغربية في مجال النفط والطاقة كانت قوية جداً. يقول التقرير: (ولا يختلف اثنان على أن المصالح الأوروبية مع معمر القذافي على صعيد الطاقة ومبيعات السلاح كانت - بلغة الأرقام - دليلاً قاطعاً على العلاقة الجدية بين الطرفين؛ حيث باعت الدول الأوروبية خلال الفترة ما بين عامي ٢٠٠٤م و ٢٠١١م لنظام القذافي أسلحة بقيمة مليار و٥٦ مليون دولار)[1]. فهذا ينفي تماماً أن يكون الغرب تدخَّل في ليبيا من أجل النفط والطاقة؛ ذلك أن الغرب كان مستفيداً جداً من نظام القذافي. يقول التقرير: (إن إيطاليا وفرنسا كانتا أكثر الدول الأوروبية استفادة من العلاقات التجارية مع ليبيا، آخرها الصفقة التي تم الاتفاق عليها العام الماضي بين باريس وطرابلس لبيع الأخيرة ١٤ طائرة مقاتلة من طراز ميراج. أما روما فقد كانت تتفاوض مع طرابلس بصفقات عسكرية تصل قيمتها إلى مليار دولار عندما انطلقت احتجاجات ١٧ فبراير/شباط الماضي (٢٠١١م)، في حين لم تسلَم بريطانيا نفسها من الانتقادات التي اتهمتها بالموافقة على إطلاق سراح المتهم الليبي بتفجير طائرة لوكربي (عبد الباسط المقرحي) مقابل حصول شركة النفط البريطانية بي بي على تسهيلات خاصة في القطاع النفطي الليبي). ويصل التقرير إلى نتيجة مفادها: (أن مثل هذه العقود كان من المفترض أن توفر الدعم الغربي للقذافي لا العكس). وهذا الذي قرره التقرير الأمريكي هو ما يوافق العقل والمنطق.

ثانياً: ضمان استمرار الهيمنة الغربية على شعوب المنطقة: وهذا في ظني هو السبب الرئيسي وراء تدخُّل الغرب في ليبيا، ولكن قد يتسائل بعض الناس: أليس من مصلحة الغرب دعم القذافي لضمان استمرار هيمنته على ليبيا؟ والجواب على هذا السؤال يكون عبر النقاط التالية:

• من مكر الحكومات الغربية في تعاملها مع شعوبنا أنها تقهر الشعوب وتنهب خيراتها عبر صفقات تتم سراً مع الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة، ومع ذلك لا تستحي على الإطلاق أن تدَّعي في العلن أنها تدافع عن حقوق الإنسان وتسعى لنشر الحرية والديمقراطية بين تلك الشعوب المقهورة.

• الثورات العربية على وجه العموم، وثورة ليبيا على وجه الخصوص، نتائجها فاجأت الشرق والغرب؛ ففي بضعة أيام تحررت معظم البلاد من قبضة القذافي، وصار الجزء الأكبر من النفط الليبي خارج السيطرة.

• الطريقة الوحشية التي استخدمها القذافي لقمع الثورة أحرجت الغرب إحراجاً كبيراً؛ سواء الطريقة العسكرية حيث أرسل كتائبه ومرتزقته المدججين بالسلاح لقمع المدنيين، أو الطريقة الإعلامية حيث وصف شعبه بأنه يتناول الحبوب المهلوسة وتوعَّده بالسحق والدمار ونحو ذلك. هذا الأمر جعل الغرب بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن يسفر عن وجهه الكالح ويصطف - علناً في هذه الحالة وليس سراً - مع القذافي ضد شعبه، وإما أن يصطف مع الشعب ظاهراً ضد القذافي، فاختار مُكرهاً الخيار الأخير.

ومما يؤكد النقطة السابقة أن الغرب تباطأ وتلكَّأ شهراً كاملاً قبل أن يتخذ قرار حماية المدنيين المزعوم، وهذا التباطؤ الغربي الغرض منه إعطاء الفرصة الكافية للقذافي للقضاء على الثورة، فلما تبين للغرب عجز القذافي عن إخماد الثورة بصورة سريعة وحاسمة، هنالك فقط تذكر أن هناك مدنيين في ليبيا بحاجة للحماية!

فإذن لو أردنا أن نضع عنواناً محدداً للغاية الحقيقة التي من أجلها اتخذ الغرب قراره فسوف يكون: (مصادرة الثورة وضمان الهيمنة الغربية على ليبيا بعد أن عجز القذافي عن فعل ذلك). هذا العنوان الرئيسي، أما العناوين الفرعية فهي وإن كانت تدخل ضمناً في هذا العنوان إلا أننا يمكننا الإشارة إليها سريعاً:

١ - لا يخفى على الغرب أن الشعب الليبي شعب متدين محافظ، كما لا يخفى عليه أيضاً أن نفسية الشعب الليبي في عمومه ترفض الضيم والذل[2]، فهذا المناخ مهيأ جداً

(١) بتصرف.

(٢) قاوم الشعب الليبي - وخاصة ذوو التوجهات الإسلامية منهم - جبروت القذافي وطغيانه بكل بسالة عبر محاولات لاغتياله والانقلاب عليه عسكرياً قبل ثورة ١٧ فبراير؛ ولكن لم يكتب الله لتلك المحاولات النجاح، وقد ذهب نتيجة هذه المحاولات آلاف الضحايا، وفي هذا جواب على تساؤل من بعض الناس من غير الليبيين: كيف رضي الشعب الليبي بحكم القذافي طيلة هذه الفترة الطويلة؟ والجواب كما بيناه.

لانتشار الفكر الجهادي[1]؛ ولا سيما أن ليبيا محاطة بالجزائر من جهة حيث القاعدة هناك، ومصر من جهة أخرى حيث التنظير والتأصيل لهذا الفكر؛ فاحتواء الثورة مبكراً أَوْلَى من انتشار الفكر «القاعدي».

٢ - استقرار ليبيا يُعَدُّ هدفاً إستراتيجاً للغرب عموماً، ولدول الجنوب الأوروبي كـ (إيطاليا وفرنسا) على وجه الخصوص لضمان تدفُّق النفط والغاز.

٣ - وضع أسس ولَبِنَات الدولة الجديدة التي ستقوم على أنقاض نظام القذافي العميل.

٤ - الموقع الجغرافي الإستراتيجي لليبيا: فليبيا تقع بين بلدي (تونس ومصر) اللذين تحررا من الدكتاتورية، ولا يمكن بحال من الأحوال التنبؤ بمستقبل هذين البلدين سياسياً؛ فانفراط العقد في ليبيا مما يزيد الأمور تعقيداً في هذين البلدين المتجاورين؛ لاسيما أن ليبيا تمتلك كمّاً كبيراً من الأسلحة والعتاد العسكري.

خامساً: الدور القَطري:

يتصور كثير من الليبيين أن الدافع وراء التدخل القطري في ليبيا هو دافع إنساني، بل ذهب بعض من هو محسوب على الدعوة والدعاة أن عدَّ الدافع وراء التدخل القطري هو المروءة والنخوة العربية! ونسي أن قطر ساهمت بشكل كبير وبنخوة عربية منقطعة النظير! في تدمير العراق وتشريد شعبه!

على كل حال سوف أتناول الموقف القطري عبر النقاط التالية:

١ - لا بد من الاعتراف بأن قطر كان لها دور بارز في دعم الثورة الليبية، ولست ممن يغمط الناس أشياءهم أو يتنكر لفضائلهم، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله؛ إنما خلافنا مع غيرنا في تحديد الدافع وراء هذا التدخل.

٢ - مما هو معلوم للقاصي والداني أن قطر من أكبر حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، وحسبك أن تعلم أن مقر القيادة المركزية الأمريكية في الشرق الأوسط قاعدة (العديد) في ضواحي الدوحة؛ وهذا يعني أن قطر لا تقدِّم ولا تؤخر في عالم السياسة واتخاذ القرارات إلا بعد موافقة ومباركة من السيد الأمريكي، وكل ما يروجه الإعلام العربي والعالمي حول السيادة الوطنية والدور العربي والإقليمي للحليف القطري فهو من باب الثرثرة الإعلامية واستغفال الشعوب الغافلة أصلاً.

٣ - ومما يؤكد أن التدخل القطري في ليبيا مدفوع من قِبَل القوى الاستعمارية: أن قطر نفسها كانت تدرك جيداً جرائم القذافي في حق شعبه قبل ثورة ١٧ فبراير، ومع ذلك كانت على علاقة حميمة معه، ولكن حينما قرر السيد الأمريكي غزو ليبيا كما بيَّنَّاه سالفاً قلبت قطر ظهر المجن للقذافي.

٤ - السيد الأمريكي وحلفاؤه الغربيون يدركون تمام الإدراك أن التدخل المباشر في شؤون الدول الإسلامية لا يجدي نفعاً، وقد يعود بنتائج عكسية وغير متوقعة؛ لا سيما بعد تجربة أفغانستان والعراق؛ فلا بد إذن من إيجاد بديل يكون قناعاً يستر به الغرب وجهه الكالح، ومن هنا كان اختيار قطر لهذه المهمة.

٥ - ليس من مصلحة الأمريكان - خاصة بعد تجربة أفغانستان والعراق - قطع قنوات الاتصال مع الحركات الإسلامية الرافضة للمشروع الأمريكي في العالم الإسلامي، فبناء على ذلك لا بد من إيجاد حلقة وصل أو ضابط اتصال يقوم بهذه المهمة بعد سقوط نظام القذافي، وهذا ما يفسر سرَّ الدعم المادي والإعلامي الكبير الذي تقدمه قطر لبعض منسوبي التيار الإسلامي في ليبيا.

سادساً: القوى والتيارات الإسلامية الليبية:

في هذه العجالة سوف أستعرض بعض التيارات الإسلامية[2] الموجودة على الساحة الليبية، ولن أتطرق إلى تاريخ ونشأة هذه التيارات؛ إنما الذي يهمنا هو واقع تلك التيارات اليوم بعد سقوط القذافي.

(١) جهاد الطلب والدفع من الثوابت التي أجمعت عليها الأمة، ووقوع بعض الجماعات في أخطاء في باب الجهاد لا يعني بحال من الأحوال التنكر لهذا الأصل العظيم من ديننا.

(٢) التيارات الليبرالية المدعومة غربياً لا تجد قبولاً عند عامة الناس، وهم في عمومهم مجموعة من الأفراد إلا أنهم مدعومون من الشرق والغرب ولهم جهد كبير لا يُستهان به عبر الإعلام والجامعات والمؤتمرات وغير ذلك من القنوات لنشر فكرهم ومذهبهم الباطل.

الجماعة الإسلامية المقاتلة:

الهدف الرئيسي الذي من أجله تأسست هذه الجماعة[1] هو إسقاط القذافي عسكرياً، وأحسب أن عامة أفراد هذه الجماعة مخلصون صادقون – في ما أحسبهم والله حسيبهم – وتجمعني بكثير من قياداتهم صداقة وصحبة قديمة، لكن لنا على هذه الجماعة بعض الملاحظات، أتمنى من عقلاء الجماعة أن يقرؤوها بتمعُّن وتجرُّد، فإنها نصيحة أخ ناصح محب:

أولاً: تاريخ هذه الجماعة ملـيء بالأحداث، وهذه الأحداث لا يمكن الغفلة عنها إطلاقاً في واقعنا اليوم؛ ففي ذهن المواطن الليبي أن هذه الجماعة هي وجه آخر للقاعدة، وفي ذهن المواطن الليبي أن هذه الجماعة مرتبطة بالعنف والقتل، وفي ذهن المواطن الليبي أن هذه الجماعة مرتبطة بأفغانستان والجزائر والبوسنة ونحو ذلك، وفي ذهن المواطن الليبي أن قادة هذه الجماعة هم أمراء حرب وزعماء تنظيمات «إرهابية»، هذا الذي كرسه الإعلام المحلي والعالمي في أذهان عامة الناس على مدار سنين عجاف، ومن السذاجة إطلاق القول بأن هذه الجماعة قد أعلنت عن حل نفسها وصارت جماعة مدنية تقبل الآخر وتتعايش معه؛ فمهما دندنت هذه الجماعة حول هذه القضية، واستعملت مفردات عصرية في خطابها، وتزيَّن قادتها بـ (السُّتَر وربطات العنق الجميلة)، فستظل تلك الصورة النمطية في ذهن أكثر الناس.

ثانياً: ومما يؤكد ما ذكرناه في النقطة السابقة، أن الناظر إلى واقع الجماعة اليوم سيجد أن الهيكلية التنظيمية التي كانت عليها الجماعة هي نفسها الموجودة اليوم، وهي نفسها التي تقود العمل العسكري في طرابلس، وقد نُصِح بعض قيادة الجماعة بأن يعيدوا تشكيل المجلس العسكري بطرابلس ويدمجوا فيه عدداً من أفاضل الثوار من سائر المدن والقبائل المحيطة بطرابلس ولكن دون جدوى.

الإخوان المسلمون:

مما يجب الاعتراف به أن الجماعة الإسلامية الوحيدة المهيأة تنظيمياً وسياسياً في ليبيا هي جماعة الإخوان المسلمين، وقد يؤهلهم هذا الأمر لحكم البلاد؛ لا سيما أن الغرب لا يجد إشكالاً في التعايش مع أفكار بعض الإخوان ومنهجهم «المعتدل» حسب المعايير الغربية كما يوصي تقرير راند الأمريكي.

السلفيون:

في ظني أن أكثر الناس قبولاً في الأوساط الليبية هم هؤلاء. فالسلفيون يجمعون بين الاستجابة للدليل الشرعي والمنهج الشمولي، فتجد منهم طالب العلم الشرعي، والطبيب، والأستاذ الجامعي، والطالب، والمهندس ونحو ذلك، وقد كان لهم دور بارز في الثورة الليبية تحريضاً وقتالاً وإمداداً وإعلاماً؛ إلا أن هناك بعض الملاحظات يجب الوقوف عندها:

١ – ما يؤخذ على كثير من هؤلاء قوة اقتدائهم بالعلماء وتمسكهم بآرائهم، وخاصة علماء «المملكة العربية السعودية»، وهذا وإن كان ظاهره حسناً إلا أنه تجاوز الحد الطبيعي في بعض الحالات حتى صار الاستفتاء في أمور لا يجهلها طالب العلم المبتدئ. ومن جانب آخر أن الذي يسير على منهج السلف يجب أن يكون الدليل الشرعي رائده، أما أقوال العلماء فيُستأنس بها فقط لا غير.

٢ – ومما يُؤخذ عليهم أيضاً أنهم غير مُنظَّمين، ولا يجمعهم إطار شامل، ولذلك لا يراهم كثير من الناس في الداخل والخارج.

٣ – بعض هؤلاء الشباب تلوَّث في فترة من عمره بمنهج «الجرح والتعديل» الذي روَّج له أصحاب المنهج المنحرف، والذي يتسمى زوراً بالمنهج السلفي، فهؤلاء الشباب وإن كان أكثرهم قد تخلَّص من هذا المنهج، بل ناصبه العداء؛ إلا أن شوائب ذلك المنهج السيئ لا زالت تلقي ببعض ظلالها على سلوكيات هؤلاء الشباب وتصرفاتهم.

سابعاً: المجلس الانتقالي والحكومة المؤقتة:

المجلس الانتقالي: عبارة عن خليط غير متجانس، ويضم تحت مظلته كثيراً من المتسلقين وذوي التوجهات المنحرفة، وهو لا يحظى بقبول عند كثير من الليبيين، ولو أجرينا مقارنة بين التضحيات التي قدمها الشعب الليبي وبين ما قدمه المجلس الانتقالي لوجدنا أن المجلس الانتقالي مجرد عبء ثقيل على الثورة، ولولا أن الله قيد لهذا المجلس بعض الشخصيات الطيبة التي تحاول أن تصلح قدر المستطاع لَمَا استمر هذا المجلس طيلة هذه الفترة. وفي الآونة الأخيرة بدأت تخرج المسيرات والاعتصامات ضده، وأسأل الله أن يكلل تلك الاحتجاجات بالنجاح.

الحكومة المؤقتة: في عمومها جيدة؛ فهم مجموعة من ذوي الكفاءات والتخصصات المتعددة، لا نعلم أحداً منهم يحمل فكراً منحرفاً، بل في عمومهم متدينون وطنيون، أسأل الله لهم التوفيق والسداد.

هذا ما تيسر جمعه في هذا التقرير، وهي وجهة نظر وقراءة شخصية قابلة للأخذ والرد عسى الله أن ينفع بها من شاء من عباده.

(١) منطلقات هذه الجماعة منطلقات سلفية؛ أي المرجعية عندهم الكتاب والسنة والإجماع والقياس والتقيد بتقريرات علماء السنة قديماً وحديثاً، ولا أعلم – على حسب اطلاعي ومن خالطتُ منهم – أن عندهم غلواً في التكفير أو استهانة بالدماء، وأصل الخلاف معهم كان في توقيت الخروج على القذافي وما جر من مفاسد كنا نراها متحققة.

فتنة الحوثي مع دماج بين الماضي والحاضر

د. محمد بن موسى العامري(*)
amaamery@gmail.com

مقدمة:

في نهاية القرن الهجري المنصرم (١٣٩٧ - ١٣٩٨هـ) عاد شيخنا مقبل بن هادي الوادعي - رحمه الله - بعد أن تلقَّى تعليمه في دار الحديث بمكة المكرمة، وتخرَّج من الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وحصل منها على شهادة الماجستير في الحديث(١).

واستقر به المقام في بلدته «دمَّاج» من بلاد وادعة «همدان»، وقبل ذلك بعدة سنوات كان الشيخ عبد المجيد الزنداني - بعد خلاف سياسي بينه وبين الرئيس اليمني الأسبق «القاضي عبد الرحمن الإرياني» - قد أقام في منطقة وائلة (شرق دمَّاج) يعلِّم فيها ويدعو إلى السُّنة ويحاضر القبائل مع مجموعة من طلابه ومحبيه، وأسس فيها معهداً وكان لهذا النشاط تأثير كبير في نشر السنة في المنطقة، وفي هذه الفترة أو بعدها بقليل قدم الشيخ زاهر بن قاسم

(*) عضو رابطة علماء المسلمين، نائب رئيس هيئة علماء اليمن.
(١) تحقيق رسالة «الإلزامات والتتبع للإمام الدار قطني».

العمري من منطقة «كنى» (شمال صعدة) عائداً من السودان، وهو أحد دعاة أنصار السنة، وأسس في بلدته معهداً علمياً تابعاً للمعاهد العلمية، وقد كتب الله لهذا المعهد قبولاً بين الناس؛ إضافة إلى معاهدَ علميةٍ أخرى منها معهد في «مدينة صعدة»، ومعهد في «غراز»، ومعهد في دمَّاج كان يديره الشيخ مقبل - رحمه الله - قبل أن يختلف مع الإخوان المسلمين، وكانت كثير من قبائل صعدة قد نفرت نفوراً شديداً من دعاة التشيع نظراً لممارستهم العنصرية الاستعلائية خلال حكم الأئمة الزيدية لليمن، وبسبب انتشار الخرافات والشعوذة على أيديهم مع ما صاحب ذلك من حرمان القبائل من التعليم، واعتبار هذا الحق من خصوصيات بعض الأسر الهاشمية! وأما القبائل فلا حظ لهم في التعليم إلا من ندَّ عن هذه القاعدة ولم يستسلم لها، ومنهم الشيخ مقبل الوادعي، والشيخ زاهر، وقلة قليلة.

وحينما ترك الشيخ مقبل إدارة المعهد التابع للمعاهد العلمية تفرَّغ في منزله للراغبين في طلب العلم (وأغلبهم ممن سمع بالشيخ مقبل من خارج محافظة صعدة واليمن)، فبدأ الطلاب يتوافدون ولا سيما الحريصون على علم الحديث النبوي القادرون على التضحية والصبر على شظف العيش والقناعة؛ وكان للشيخ الإمام عبد العزيز بن باز - رحمه الله - تواصل جيد مع الشيخ مقبل؛ إذ كان يرعى هذه المجموعة رعايةً خاصة وشخصية لعدة سنوات حرصاً منه على نشر السُّنة في هذه المنطقة، ومواساة للشيخ مقبل الذي لم يكن لديه أي تواصل مع أي جهة أخرى.

وقد رحبت جملة من القبائل بدعوة الشيخ مقبل، وفتحت قلوبها لدعوته ولطلابه الذين كانوا يخرجون للمحاضرات والخطب؛ سواء في «رازح» أو «خولان عامر» أو «كنى» أو «المهاذر» أو «بني عوير» أو غير ذلك من مناطق سحار وهمدان ووائلة.

ولم يبقَ على التعصب المذهبي سوى مناطق محدودة مثل: «ضحيان» و «رحبان» و «الطلح» وبعض مناطق «ساقين» في خولان عامر.

ولا شك أن مثل هذا التحول والانتشار للسنة في منطقة صعدة التي تُعَدُّ قلعة الزيدية الهادوية ومنطلقها في اليمن قد أثار حفيظة بعض المتعصبين فيهم ممن تأثَّر بزخم الثورة الإيرانية الخمينية في مطلع الثمانينات من القرن الماضي، غير أن التعايش السلمي ظل هو السائد بين الجميع كما هو الحال في بقية مناطق اليمن.

وفي هذه المرحلة خلال عام (١٩٨٦م) - تقريباً - قرر مجموعة من علماء الزيدية؛ ومنهم مجد الدين المؤيدي (أحد أكابر علماء الزيدية)، وصلاح فليتة، وبدر الدين الحوثي وآخرون أن يقوموا بتدريس مناهج الزيدية حفاظاً على المذهب من الانقراض مع إضافة تدريس مبادئ الثورة الإيرانية، واستمر هؤلاء في نشاطهم تحت مسمى «اتحاد الشباب» حتى عام (١٩٩٠م) عندما قامت الوحدة اليمنية بين شمال اليمن وجنوبه، وفتح المجال بعدها للتعددية الحزبية، والقيام على النظام الديمقراطي، وهو ما أعلن الشيخ مقبل عن رفضه له، وتحذيره من مغبته وويلاته على المجتمع اليمني.

وأما هؤلاء فقد رحَّبوا بهذا النظام، وتضامنوا مع الحزب الاشتراكي اليمني، وتحولوا من المجال التعليمي إلى الانخراط في حزب سياسي وهو «حزب الحق» الذي كان يترأسه «أحمد محمد الشامي»؛ ومن خلال هذا الحزب وفي عام (١٩٩٣م) وصل إلى البرلمان «حسين بدر الدين الحوثي» ممثلاً لمنطقته «حيدان»، وأصبح أحد الشخصيات البارزة في الحزب، وفي هذه الأثناء حصلت خلافات وتصدعات بين علماء الزيدية حول فتوى أصدرها مجموعة من علماء الزيدية منهم «مجد الدين المؤيدي»، حاصلها: أن اشتراط النسب الهاشمي للإمامة لم يعد مقبولاً اليوم، وأن هذا كان لظروف تاريخية؛ وهو ما رفضه بدر الدين الحوثي بشدة نظراً لتطرفه وميله إلى آراء الجارودية[1] التي تتوافق في بعض آرائها مع الإمامية الإثني عشرية؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «الزيدية خير من الإمامية وأشبههم بالإمامية هم الجارودية أتباع أبي الجارود الذين يزعمون أن النبيﷺ نص على عليٍّ بالوصف لا بالتسمية فكان هو الإمام من بعده وأن الناس ضلوا وكفروا بتركهم الاقتداء به بعد رسول الله ﷺ»[2].

وبعد هذه الخلافات بين بدر الدين الحوثي ومن معه من جهة، وبين علماء الزيدية من جهة أخرى، يظهر أن السفارة الإيرانية كانت ترقب هذه التوترات بين الفريقين؛ وذلك ما جعلها تمدُّ حبال شَرَكِها لبدر الدين الحوثي وبخاصة بعد أن ألَّف كتاباً بعنوان: «الزيدية في اليمن» يشرح فيه أوجه

(١) نسبة إلى «أبي الجارود زياد بن المنذر الكوفي الهمذاني، ت ١٥٠هـ»
(٢) منهاج السنة: ٣/ ٩ - ١٠.

التقارب بين الزيدية والإماميـــة، ويقلل من الخلافات بينهما متجاهلاً نظرة الإثني عشرية إلى الزيدية وتضليلها وتفسيقها بل وتكفيرها والعكس[1].

يقول بدر الدين الحوثي: «أنا عن نفســـي أؤمن بتكفيرهم (أي الصحابة) كونهم خالفوا رسول الله صلى الله عليه وآله»[2].

وأما ولده حســـين فلم يكن أقل تطرفاً وغلواً من والده إذ يقول: «كل ســـيئة في هذه الأمة... كل ظلم وقع لهذه الأمة... وكل معانـــاة وقعت الأمة فيها... المســـؤل عنها أبو بكر وعمر وعثمان، وعمر بالذات هو المهندس لهذه العملية كلها».

ويقول عن بيعة الصحابة لأبي بكر: «شـــر تلك البيعة ما زال إلى الآن».

ويقول: «إن مشكلة أبي بكر وعمر مشكلة خطيرة، هم وراء ما وصلت إليه الأمة، وهم وراء العمى عن الحل».

ويقول: «السلف الصالح هم من لعب بالأمة، هم من أسس ظلم الأمة، وفرَّق الأمة؛ لأن أبرز شـــخصية تلوح في ذهن من يقول الســـلف الصالح يعني أبا بكر وعمـــر وعثمان ومعاوية وعائشـــة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وهذه النوعية هم السلف الصالح هذه أيضاً فاشلة».

وقال: «معاوية ســـيئة من سيئات عمر، في اعتقادي ليس معاوية بكلِّه إلا سيئة من سيئات عمر بن الخطاب وأبو بكر هو واحدة من سيئاته، عثمان واحدة من سيئاته»[3].

ولـــه كثير من المنشـــورات التي يتهكم فيها ســـاخراً من الزيديـــة، وتعلُّقهم بعلم أصول الفقـــه، مع ما كان يقوم به من التحريض ضد دعوة أهل السُّنة وتعبئة أنصاره ضد الوهابية ولا ســـيما بعد عـــودة والده من طهران التـــي بقي فيها عدة سنوات زاد فيها تأثُّره بفكر الإمامية ومبادئ الثورة الإيرانية.

وقد أصدر علماء الزيدية بياناً في الرد على آراء الحوثي، ومما جاء فيه: «وبناء على ما تقدم رأى علماء الزيدية التالية أســـماؤهم[4] التحذير من ضلالات المذكور (الحوثي) وأتباعه

(١) انظر: نظرة الإمامية الإثني عشرية إلى الزيدية تأليف محمد الخضر، ص ٤٣ – ٤٥، تقديم الشيخ محمد المهدي، والزيدية نشأتها ومعتقداتها للقاضي إسماعيل الأكوع.

(٢) نقله عنه جعفر المبخوت في لقاء معه على الموقع الشيعي المسمى المعصومين الأربعة عشر.

(٣) انظر: دروس من هدي القرآن، محاضرات حسين الحوثي، سورة آل عمران، الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٩م، وسورة المائدة الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣م، وكتابَي خلفية الفكر الحوثي والحرب في صعدة، ص ٦٥ – ١٣٣ كلاهما لعبد الله الصنعاني.

(٤) منهم حمود عباس المؤيد، وأحمد الشامي، ومحمد بن محمد المنصور، وصلاح فليته، وآخرون.

وعدم الاغترار بأقواله وأفعالـــه التي لا تمتُّ إلى أهل البيت وإلى المذهب الزيدي بصلة، وأنـــه لا يجوز الإصغاء إلى تلك البدع والضلالات، ولا التأييد لها، ولا الرضا بها ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُـــمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائـــدة: ٥١]، وهذا براءة للذمة وتخلُّص أمام الله من واجب التبليغ»[5].

ومنذ عام (٢٠٠٢م) برز تيار شـــيعي غالٍ يميل كثيراً إلى الجعفرية الإثني عشـــرية، ويتبنى طقوس الرافضة مثل إحياء الحسينيات، وعيد الغدير، وعاشوراء، وفرض الخُمس، وسب الصحابة الكرام، وترديد شـــعارات الرافضة في إيران ولبنان «الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل... إلخ»، ونشر كتب الرافضة الإثني عشـــرية، وإرسال وابتعاث الطلاب للدراسة في إيران، ولقـــي هذه التوجه دعماً ســـخياً من الحوزات الشـــيعية في الخليج وإيران وكذلك الحكومة اليمنية بعد تأسيس ما سمي بـ «الشباب المؤمن» نكاية في التجمع اليمن للإصلاح المعارض للســـلطة وتحقيقاً لسياســـة التوازن المذهبي إلى أن توسعت أطمـــاع الحوثيين فقـــرروا الدخول في مواجهات مســـلحة ومعـــارك مع الدولة عـــام ٢٠٠٤م؛ لإقامة كيـــان طائفي في شـــمال اليمن على غرار حزب الله في لبنان، وقد اســـتمرت الحـــروب بين الحوثي والدولة حتى بلغت ســـتة حروب كانت تنتهـــي بالصلح بينهما، ويرى كثير من المراقبين السياســـيين أنها كانت حروباً مدعومة من نظام صالح لتصفية حســـاباته مع خصومه العســـكريين (علي محســـن الأحمـــر ومن معه) الذين يقفون ضد نظام التوريث من جهة ولاستدرار المعونات الخليجية بالتخويف من شبح الوجود الإيراني في المنطقة من جهة أخرى.

(٥) انظر كتاب تاريخ الإمامة الزيدية في اليمن، لعبد الفتاح البتول.

دوافع الحصار على دمَّاج وسبب التوقيت؟

بعد قيام الثورة الشـــبابية في اليمن ٢٠١١/٢/١١م ضد النظام والدعوة إلى إســـقاطه سارع الحوثيون بالانضمام إلى ساحات التغيير بصنعاء وغيرها طمعاً في توجيه ثورة الشباب وَفْقَ رؤيتهم المذهبية وحرصاً منهم على توســـيع نفوذهم في اليمن بعد أن ســـلمهم النظام إدارة محافظة صعدة؛ وانشغل بمجابهة الاعتصامات والمظاهرات المطالبة بإســـقاط النظام، وقد تمكَّن الحوثيون بالفعل من السيطرة على أغلب مديريات صعـــدة، وأقاموا فيها محاكمهم ومعســـكراتهم وســـجونهم ونقاطهم العســـكرية، وقاموا بجمع الزكـــوات والجبايات من النـــاس، ورأوا أن الفرصة ســـانحة لهم للتوســـع في المناطق المجاورة «كالجوف» و «حجة» وبعض مناطق «عمران» فعمدوا إلى التخلص من مخالفيهم بقوة السلاح، وجعل المنطقة مغلقة على مذهبهم فحسب، رافضين مبدأ التعايش السلمي مع أي مذهب أو جماعة تخالـــف مذهبهم غير أنهم وجدوا مجابهة عنيفة لم يكونوا يتوقعونهـــا بعد أن عمت مهابتهم في الآفاق بســـبب حروبهم مع الدولة التي أبرزتهم كقوة عسكرية تعجز الدولة بإمكانياتها عن حســـم المعركة معهم؛ وكذلك سعوا إلى التخلص من دار الحديث بدمَّاج، والمتابع لسير المباحثات التي كانت تدور بينهم وبين الدولة يرى أن واحداً من أهم شروطهم للتصالـــح مع الدولة هو إلغاء المركز بدمَّاج وبقية المراكز التي يصفونها بالوهابية في منطقة صعدة.

ويوضح هذه الرغبة الجامحة لدى الحوثيين أحد الشـــيعة المتعصبين للحوثي وهو «إبراهيم الوزير» صاحب صحيفة الامتياز في مقابلة له بقوله: «وصعـــدة للزيدية بمثابة قم للجعفرية في إيـــران فهي مركز نشـــر المذهب الزيدي، ووجود مراكز لنشـــر الأفكار السلفية بها من الطبيعي أن يضيق بها أهل صعدة»[1].

ومما ســـاعد الحوثيين وأغراهم للتخلص من مركز دمَّاج عدة أمـــور، يرى الحوثيون أنها كافية لحســـم الأمر مع هذا المركز ومنها:

أولاً: غرور الحوثين بأنفسهم وامتلاكهم للأسلحة الثقيلة من صواريخ، وهاون، وكاتيوشـــا، ودبابات، وأنواع الأســـلحة المختلفة التي لا يوجد شيئ منها مع طلاب العلم بدمَّاج.

ثانياً: ســـيطرتهم التامة علـــى كل مرافق الدولة الأمنية والإدارية في محافظة صعـــدة، وانفرادهم بالتحكم في هذه المفاصل.

ثالثـاً: انشـــغال الدولـــة بمجابهـــة ســـاحات التغييـــر والاعتصامـــات والمظاهرات مع إمدادهـــم ودعمهم من قبل بعض النافذين في الدولة.

رابعـاً: وقوف طلاب دمَّاج ومشـــايخها إلى جانب النظام ضـــد مخالفيه من الثوار؛ وهو ما جعل الحوثيين يطمئنون من نقمة الثوار عليهم إن لم يباركوا أعمالهم.

خامسـاً: كثرة الخلافات بين أتباع مدرســـة دمَّاج، وشدة النزاعـــات في ما بينهـــم؛ فالحجوري يتهجـــم على كثير من رفاقه كعبد الرحمن العدني وأتباعه، ومحمد الإمام وأتباعه، وقبل ذلك مع الشـــيخ أبي الحسن السليماني المأربي وأتباعه، ثم الشـــيخ الوصابي وأتباعه إضافة إلى مواقفهم الحادة مع بقية الدعاة والجماعات الإســـلامية... وهكذا في سلسلة من النزاعات والردود، والمهاترات التي لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد؛ ولا شك أن الحوثين يرقبون مثل هذه الأمور، ويتشفَّون بها، ويرون أن المركز قد أصبح معزولاً تماماً عن كل من يمكن أن يقف إلى جانبه.

لهذه الأسباب وغيرها رأى الحوثيون أن الفرصة سانحة، وهم لا يشكون أبداً أن المسألة لن تتجاوز يوماً أو يومين حتى يسقط المركز ويغادر طلابه تماماً من هذه المنطقة، وقد أقسم قائد الحملـــة الحوثية «أبو علي الحاكم» بأنه ســـوف يصلي عشـــاء في مركز دمَّاج و (يخزِّن)[2]، ويؤذن بـــ «حي على خير العمل» في دار الحديث كما تواردت بذلك الأنباء.

وكانت المفاجأة التي لم يحسب لها الحوثيون حساباً ذلك الصمـــود والثبات والتنادي للجهاد دفاعاً عن النفس، مع جَلَد ومصابرة دامت أكثر من شهرين ذهب ضحيتها ما يقارب مائة وســـبعين شهيداً وجريحاً من طلاب وســـاكني دمَّاج وخسائر كبرى في صفوف الحوثيين.

وبالرغم من ضعف أو انعدام وســـائل الإعلام لدى طلاب العلم بدمَّاج إلا أن مؤسســـات إعلاميـــة وحقوقية، ومنظمات أهليـــة، ومؤتمرات قامت في اليمـــن للتنديد بهذه المجازر التي أقـــدم عليها الحوثيون، وأصبـــح الذين كانـــوا يتعاطفون معه

(١) المقابلة مع «الوطن العربي» بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/٢٤م.

(٢) أي: يتعاطى القات.

بالأمـــس في حروبه مع الدولة، ويرونـــه مظلوماً ينظرون إليه اليوم علـــى أنه ظالم، وتحركت مجاميـــع وقبائل من مختلف مناطق اليمن للســـعي في فك هذا الحصار الظالم، واجتمعت فـــي وائلة «كتاف» ودارت هناك رحـــى الحرب بين الفريقين، ووجد الحوثي نفســـه في ورطة لا يحســـد عليها بسبب بغيه وعدوانه، ونكثه للعهود الســـابقة، وتحركت جهات ووساطات للصلح إلا أنها باءت بالفشـــل في ظل صمت وتخاذل من قِبَل الدولة ليس له أي تفســـير إلا التواطؤ مع الحوثي، وإفســـاح المجال له للعبث والشغب والقرصنة التي يرى كثير من المراقبين أنها تأتي في إطار إشعال الحرائق التي يسعى النظام لافتعالها قبل سقوطه، لتكون دليلاً على أن أوضاع اليمن كانت في عهده أفضـــل؛ وبخاصة بعد أن ظهر للناس أن الحوثي ليس صادقاً في وقوفـــه مع الثورة من خلال إيجاد وخلق الاضطرابات في الســـاحات، ومحاولته افتعال منابر وســـاحات أخرى مضارة للســـاحات القائمة؛ فهو إذن يمارس في العلن ما يناقضه في الخفاء؛ وفي ظاهر الأمر مع الثوار وباطنه مع السلطة.

وبكل تأكيد فإن الحوثيين غيـــر قادرين على أن يكونوا مشـــاركين في العملية السياســـية؛ وإنمـــا حريصون غاية الحرص على زراعـــة الفتن والفوضى التي لن يترعرعوا إلا في ظلها؛ لهذا نجدهم يرفضون المبادرة الخليجية، والمشاركة فـــي حكومة الوفاق الوطني لعلمهم بأن حجمهم الحقيقي لا يمكِّنهم من تحقيق أطماعهم السياسية التي يريدون فرضها على الشعب اليمني بالحديد والنار.

وقد تذبذب الحوثي في تبرير حصاره لدمَّاج! فحســـب رواية جاءت على لســـان محافظ المحافظـــة «فارس مناع» المتعاطـــف مع الحوثي يقول: إن ســـبب الحصـــار يعود إلى التعدي بالضرب على أحد أطفال الحوثيين عمره ما بين ١٤ – ١٨ عاماً من قِبَل بعض شباب دمَّاج، وتارة يدغدغ الحوثي مشـــاعر الثوار بأن حربه مقدسة بســـبب وقوف الحجوري ومن معه ضد الثورة السلمية، وتارة يتهمهم بأنهم تكفيريون، وأخرى بســـبب وجود أجانب في مركز دمَّاج... وهكذا جملة مـــن المغالطات التي لم تعد تنطلي على أحد، ولم يعد هناك من هو قادر على حجب رؤية الشمس، والتغافل عن الأسباب الحقيقيـــة القائمة علـــى النعرات الجاهليـــة، والعصبيات المذهبية والسلالية، والأطماع السياسية.

مساعٍ للصلح ومخاوف من نقضه:

بعد أن أفلس الحوثي سياسياً، وتعثر عسكرياً في حسم معركة دمَّاج المحاصرة، وكتاف المناصرة؛ وتناقلت وسائل الإعلام المختلفة شـــناعة الأعمال التي قام بها الحوثيون في هذا الحصار، ومنعهم أهالي دمَّاج من الغذاء والدواء والتنقل، والقيام بأعمال القصف والقنص لأهالي منطقة دمَّـــاج، ودار الحديـــث، وبعد أن عقد العلمـــاء والوجهاء مؤتمرات للاعتصـــام والنصرة في صنعاء والحديدة وإب وغيرها، وما حصل من الاستنكار والتنديد بهذه الأعمال، ودعوة الجهات الرسمية وكافة شرائح المجتمع إلى القيام بنصرة المظلوم، وردع المعتدين الحوثيين، وأصبح الحديث عن مأســـاة دمَّاج يتجه إلى أنها كارثة إنســـانية، وعقاب جماعـــي، وانتهاك صارخ لحقوق الإنســـان، يتم تصنيفه ضمن جرائم الحروب الجنائية.

بعد ذلـــك كله رحَّب الحوثي بجهـــود المصالحة التي دعا إليها الشيخ حســـين بن عبد الله الأحمر (أحد أبناء الشـــيخ الراحل عبد الله بن حسين الأحمر شيخ مشايخ حاشد رحمه الله)، وقد كان لهذه المساعي الحميدة أثرها الملمـــوس في فـــك الحصار عن دمَّـــاج، ودخول الأغذية والأدويـــة إلى النـــاس رغم مماطلة الحوثـــي وتعنُّته في المفاوضات، وبقائه متمترســـاً فـــي مناطق مختلفة تجعل من قبوله للصلح مجالاً لاســـتمرار الحذر، والمخاوف من نقضه، وانقلابه عليه كعادته في السابق.

وأمـــا على الجبهة الأخرى التي جاءت لنصرة دمَّاج وهم قبائـــل وائلة ومن انضم إليهم مـــن مناطق وقبائل اليمن في منطقـــة كتاف، فقد أجاب أهل المنطقة ومن معهم على طلب رفع الجبهة المقدَّم من الشـــيخ حســـين الأحمر كحل شامل للقضية، بأنه لا مانع لديهم من التخلي عن جبهتهم شريطة أن يبقـــى الحوثي مواطناً من جملة المواطنين، وأن لا يمارس

فيها صلاحيات السلطة المحلية من إحداث النقاط العسكرية، والمحاكم والسجون، والسطو على مرافق الدولة، أو القيام بأعمال الخطف والعدوان على الناس، وهي شروط موضوعية وعادلة.

ويبقى السؤال الذي لا بد منه: هل صحيح أن الحوثي جاد في مصالحته مع مخالفية السلفيين وغيرهم، وإقامة التعايش السلمي الذي دأب عليه الشافعية مع الزيدية طيلة قرون من الزمن؟

وهل سيتخلى عن المجاهرة بسب الصحابة الكرام في منابره، ومنشوراته التي أفرزت له في المجتمع اليمني عداوة وبغضاً بما في ذلك كثير من ساكني صعدة وما حولها؟

وهل سيسلم الحوثي هذه القوات العسكرية التي أخذها أو أعطيت له من الدولة من الدبابات والصواريخ والمعدات الثقيلة إلى الدولة الجديدة؟

وهل سيعود المهجَّرون من القبائل التي خالفت الحوثي في حروبه السابقة مع الدولة إلى ديارهم دون أن يتعرض لهم الحوثي بالأذى والتنكيل؟

وهل سيقوم بردِّ المساجد التي أخذها من أهل السنة إلى أصحابها؟

وهل سيُفرَج عن السجناء الذين احتجزهم الحوثي ظلماً وعدواناً من أهل السنة؟

وهل سيلتزم بتعويض المتضررين من جراء ظلمه وعدوانه؟

وهل سيتخلى عن النقاط التي أحدثها للتحكم في المارة من الناس؟

وهل سيترك أخذ الجبايات والزكوات من الناس؟

أسئلة كثيرة لا بد من الإجابة عليها، والقيام بتطبيقها إذا كان الحوثي صادقاً في أن يكون مواطناً له حقوق وعليه حقوق كبقية أبناء الشعب اليمني؛ إذ الحصار قائم في حقيقة الأمر على محافظة صعدة بكاملها، وما حصار دمَّاج إلا حصار ضمن حصار عام للمحافظة.

حصار دمَّاج دروس وعبر:

كانت المحنة التي تعرض لها الطلاب خلال ما يقارب ستين يوماً هي الأشد في تاريخ دار الحديث بدمَّاج؛ بل لا أبالغ إن قلت: إنها من أندر الوقائع التي تحدث في اليمن، ومع ذلك فقد كانت تحمل في طياتها من الألطاف والعطايا الربانية شيئاً كثيراً، وفيها من الدروس والعبر ما تحتاج إلى سِفْر خاص أو أكثر لاستخلاص الفوائد التي لن يتحصل عليها لو لم توجد مثل هذه الأحداث، وهنا يتذكر المرء قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله - سبحانه -: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ [النور: ١١].

ولعلِّي أكتفي في هذا المقام ببعض الدروس والعبر تاركاً بقيتها إلى وقت آخر، أو إلى من يفتح الله عليه في عرضها ونشرها للفائدة وفي ما يأتي أبرزها:

أولاً: خطورة البدعة على الأمة؛ ولا سيما بدع الرافضة التي تقوم على معاداة السُّنة وأهلها، والنيل من خيار هذه الأمة وصحابة رسول الله ﷺ فضلاً عمَّن جاء بعدهم؛ ولا ريب أن تاريخ الرافضة ومناصرتهم لأهل الباطل في القديم والحديث خير شاهد على أن هذه الفئة لا تكاد توجِّه سهامها إلا لأهل الإسلام والسنة؛ وما حدث في العراق، وما يحدث اليوم في سورية، وقبل ذلك في أفغانستان وإيران لهو أكبر دليل على صحة ذلك.

ثانياً: أهمية اجتماع أهل السنة ونصرة بعضهم بعضاً، وخطورة تفرُّقهم وتنازُعهم لقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد رأينا بركة التعاون على البر والتقوى، وما أثمرت هذه الفريضة من كبح جماع المعتدين، ونصرة المظلومين؛ إذ الدفاع عن النفس يعد من جنس الجهاد في سبيل الله كما في قوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ١ ، وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، وقوله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ

فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1].

ولعل في هذه الأحداث ما يدعو جميع أهل السنة في اليمن إلى إعادة النظر في علاقة بعضهم ببعض، والعمل على تجاوز الخلافات الوهمية أو القائمة على سوء الفهم وقالة السوء ووشاية الواشين، والاجتماع على كلمة سواء، وما اتفق عليه سلف الأمة يجب أن يكون هو الميزان الذي تضبط به مسائل الخلاف، وما اختلف فيه السلف الصالح ففيه فسحة مع تحرِّي الحق والتناصح بين الجميع، وما كان هناك من النوازل المعاصرة فيترك الخوض فيها للراسخين في العلم، وتعقد لذلك الندوات والمؤتمرات، وتناقش بتجرد وموضوعية ليخرج الجميع من ذلك بآراء قريبة من الرشد والصواب، والبعد ما أمكن عن لغة التجريح والتسفيه للمخطئ، ومناصحته مع بقاء حبل المودة وحسن الظن بين الدعاة إلى الله وطلاب العلم.

ثالثاً: ضرورة الاستفادة في هذه المرحلة العصيبة التي يمر بها اليمن من جميع المعطيات التي تبيِّن لأبناء الشعب اليمني محاسن دعوة أهل السنة وخيرها، وبركتها على الناس، وقد لوحظ في خضم هذه الأحداث أهمية العناية بوسائل الإعلام المختلفة، ومدى تأثيرها، وقد كان الحوثيون يراهنون على أنهم سوف يقومون بجريمتهم هذه بعيداً عن كشفها للرأي العام؛ لما يعلمونه من مواقف الإخوة بدمَّاج من حرمة التعاطي مع وسائل الإعلام المرئية، وهي آراء تحتاج إلى مناقشة، وإعادة النظر فيها، مع التقدير لكل رأي يكون له حظ من النظر عند أهل العلم؛ إلا أنه قد يسوغ في حالات الضرورة والاستثناء ما لا يسوغ في غيرها.

كذلك الحال بالنسبة للعمل السياسي، وأهمية أن يكون هناك أذرعة سياسية، أو إقامة كيانات سياسية تنضبط في سيرها بمعالم السياسة الشرعية، وتتجنب المزالق التي وقع فيها كثير من السالكين في العمل السياسي، ولا سيما بعد قيام ثورة الشعوب أو ما يسمى بـ «الربيع العربي».

ومثل ذلك العملُ ضمن المنظمات الأهلية، والنقابات المختلفة، والمناشط الخيرية، وتطوير أداء التعليم الشرعي، مع العناية بالجانب الإيماني والتربوي، والاستفادة من الفرص المتاحة بإذن الله، في قادم الأيام كتأسيس الجامعات والكليات المختلفة، وإنشاء القنوات والإذاعات وغير ذلك.

وبالجملة فإن التواصل مع جمهور الناس، وإقامة جسور التعاون على البر والتقوى مع شرائح المجتمع المتعددة بات من الأهمية بمكان؛ وفي مقدمة هؤلاء العاملون للإسلام من مختلف ألوان الطيف السني، على أنه يوجد هناك علماء معتدلون ينتسبون للمذهب الزيدي ويستنكرون أفعال الرافضة، كما يوجد بعض العلماء المنتسبين إلى التصوف وهم بعيدون عن الغلو وشطحات الصوفية وخرافاتهم؛ فمثل هذه الفئات من المفيد أن يعتنى بهم، وأن يكون بينهم وبين علماء السنة تواصل وتعاون في الأمور العامة التي تحتاج إلى تضافر أبناء الشعب كافة. وقد أصدرت هيئة علماء اليمن في يوم الإثنين غرة صفر ١٤٣٣هـ بياناً وقَّع عليه كثير من العلماء من مختلف الاتجاهات في اليمن، أكدوا فيه على ضرورة التعاون بين أبناء اليمن لإقامة الشريعة الإسلامية وتحكيمها، ورفض أي قانون يتعارض معها، كما دعوا في بيانهم إلى جملة من النصائح والتوجيهات التي يتحتم على الجميع وفي مقدمتهم حكومة الوفاق الوطني إلى سرعة العمل بها لتحقيق الأمن والاستقرار، وتفويت الفرص على المتربصين من جميع العابثين والمتورطين في تنفيذ أجندة خارجية تفرق أبناء الشعب اليمني، وتزرع فيهم بذور الفتنة الطائفية والمناطقية لخدمة أعداء الإسلام والمسلمين.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٢)، والترمذي (١٤٢١) من حديث سعيد بن زيد، ولفظة (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) رواها (البخاري (٢/٨٧٧/رقم٢٤٨٠)، ومسلم (١/٨٧/رقم٣٧٨) من حديث عبد الله بن عمرو.

الرضيع

طفلي الرضيع

خصائصة ـ صحته ـ تربيتة

مشروعنا وظف مختلف المتخصصين

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالاتهم في مراحل المشروع.
- توسيع دائرة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

التدخل الأجنبي في الثورات العربية

أ.د. علاء الدين الأمين الزاكي(*)

لم تكن الثورات العربية وليدة صدفة أو جاءت فجأت؛ إنما هي نتاج طبيعي للكبت الذي مورس على الشعوب، وللقهر الذي أصاب تلك الشعوب، ومن الطبيعي أن الكبت والقهر يولِّدان الانفجار.

وقد ثبت عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «اشتكتِ النار إلى ربها فقالت: يا رب! أكل بعضي بعضاً. فإذن الله لها بنَفَسَين نَفَس في الشتاء فهو أشدُّ ما تجدون من الزمهرير، ونَفَس في الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر»(١)، والنفسان خشية أن يأكل بعضُها بعضاً من شدة الكبت، قال الصنعاني: (أي أن حرَّها وأُوارُها قد اشتد فطلبت من ربها أن يخفف عنها فسمح لها بنَفَسَين)(٢). فكذا الكبت لا يولِّد في المجتمع إلاَّ انفجاراً؛ فكان لا بد للشعوب أن تتنفس الحرية وهذا ما حصل في الثورات العربية.

والجدير بالذكر هنا أن الثورات العربية الحالية المسماة (بالربيع العربي) لم تكن الأُولَى من نوعها في التاريخ، بل كانت هناك ثورات من قبل؛ ولكن الجديد في الربيع العربي هو التدخل الأجنبي المباشر الذي ظهر بمظهر المساند للشعوب المنتفضة على الرغم من أنه كان قبل فترة وجيزة مناصراً لهذه الأنظمة ومُعيناً لها، ولم يكن التدخل سياسياً فحسب بل كان عسكرياً كما في حالة ليبيا.

ويمكن القول بأن الدول الغربية إنما تدخَّلت في هذه الثورات بهذا الشكل السافر لجملة من الأسباب، وهي في نظري تحدد السيناريوهات المحتملة، ومن هذه الأسباب ما يلي:

١ تحسين صورة الغرب عند الشعوب؛ خاصة بعد أن أصبحت الشعوب تنظر إليه على أنه مستعمِر ومعادٍ لها؛ وذلك لممارساته تجاهها، ومن ذلك:

- عون الغرب لهذه الأنظمة فترة من الزمن في كل المجالات على ظلم الشعوب وكبتها.
- والعدوان الذي مارسه الغرب على الأمة الإسلامية والعربية تحت ما يسمى بمكافحة الإرهاب! الأمر الذي ولَّد حقداً وكراهية للغرب.

٢ رجحان كفة الشعوب على كفة الحكام، وهذا يدفع الغرب للتعاون مع الأقوى والأرجح بسبب المصالح؛ لأن الغرب لا تحكمه الأخلاق بل المصالح الضيقة.

٣ استباق الأحداث ومحاولة كسب ودِّ الحكومات القادمة التي ستقوم على الثورية الشعبية.

٤ تنامي التيارات الإسلامية – خاصة السلفية – وانحسار التيارات العَلمانية واليسارية والقومية، وانتشار حب الإسلام بين أفراد الشعوب العربية وصعود التيارات الإسلامية للواجهة في شتى المجالات.

هذه الأسباب وغيرها دفعت الدول الغربية ومنظماتها إلى التدخُّل المباشر في هذه الثورات بصورة ملفتة للنظر .

(*) جامعة الخرطوم.
(١) متفق عليه.
(٢) انظر: سبل السلام.

السيناريو الأول:

وهو عندي أقوى الاحتمالات؛ فبحسب المعطيات المطروحة على الساحة التي تؤكد أن الدول الغربية بصفة عامة والولايات المتحدة بصفة خاصة اقتنعت بالإسلام واقعاً يجب التعامل معه لا معاداتُه كما حصل سابقاً، أو إيجاد إستراتيجية جديدة للتعامل معه خاصة بعد تنامي الشعور بضرورة الاحتكام للشرع، وأصبح التيار الإسلامي من القوة بمكان رغم ما بُذِل من جهود عسكرية وإرهابية وخطط ثقافية واجتماعية لإضعافه؛ فالمعاداة الصريحة للإسلام والازدواجية في المعايير التي مارستها الدول الغربية ومنظماتها التي باتت واضحة للعيان بين المسلمين واليهود والنصارى زادت من ذلك الشعور.

فبالأمس تعترض الدول الغربية على فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر؛ بل وتُجمِع على ضرورة إبعادها على الرغم من فوزها عن طريق صناديق الاقتراع (المحترمة في الغرب) بسبب برنامجها الإسلامي، وتعترض على فوز حركة حماس للسبب ذاته، وتضرب حصاراً على السودان للسبب ذاته، وتدعم قمع الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي وتغضُّ الطَّرف عن انتهاكات حقوق الإنسان في السجون العربية في حق الإسلاميين. وغير ذلك كثير لا يسع المقام لذكره.

ونرى اليوم أمريكيا تُجرِي لأول مرة مباحثات مع حركة الإخوان في مصر الثورة، وتبارك فوز حركة النهضة الإسلامية في تونس وتبعتها كل الدول الغربية في ذلك، وتبارك فوز الإسلاميين في المغرب وفي مصر، وتشرع في رفع العقوبات عن السودان. وتدعو وزيرة الخارجية الإسبانية في تصريح لقناة الجزيرة الليبين إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وبالجملة تبدي الدول الغربية عدم ممانعتها من وصول التيار الإسلامي إلى السلطة وهذا يدفعنا إلى السيناريو الأول المحتمل: (وهو أن الدول الغربية تريد أن تتعامل مع الإسلام ولكنه إسلام من نوع خاص بأفكار تخلو منها عقيدة الولاء والبراء، يُعترَف فيه بالأديان المحرَّفة على أنها أديان صحيحة (على قاعدة قبول الآخر)، وغير ذلك بمعنى الإسلام المعروف بالمعتدل الوسطي.

فالدول الغربية بين خيارين أحلاهما مرٌّ. وأخف الضررين، وأهون الشرَّين هو التعامل مع الإسلام المسمى بـ (الوسطي) خشية وصول الإسلام المتشدد - على حدِّ قولهم - إلى السلطة مع ملاحظة تنامي التيارات السلفية في الساحات الإسلامية.

وفي نظري أن هذا يحقق لهم عدة مكاسب:

أولها: الوصاية على التيار المسمى بالوسطي بحكم قابليته للتعاون بعد إغراقه في معمعة السلطة وما فيها من متعة وغرور يُسقط كلَّ من تعلق قلبه بها وقصدها لذاتها.

ثانيها: جعلُ المعركة بين الإسلاميين أنفسهم، وضربُ بعضهم بعضاً، وتأجيج الصراع بينهم بعد أن كانوا متفقين على عداوة الغرب؛ فينتقل الصراع من صراع بين الإسلاميين مع الغرب الى صراع بين الإسلاميين أنفسهم؛ إما لأسباب تتعلق بالكرسي أو لأسباب فكرية أو لأسباب تتعلق بكيفية تطبيق الشرع؛ وخاصة أن بعض حكومات الثورات ورثت تركة ثقيلة في كل المجالات وقد استرشد الغرب في ذلك بعدة شواهد في الساحة، منها ما يلي:

١ ما حصل في أفغانستان بين المجاهدين الذين وصلوا إلى مرحلة رفع السلاح في وجه بعضهم بعضاً، الأمر الذي أدى إلى سقوط دولتهم.

٢ ما حصل في السودان من انشقاق أضعف الحكومة وجعل الجناح المنشق يقاتل في دارفور تحت مظلة (خليل إبراهيم[1]) المعروف بانتمائه للترابي الذي انشق عن الحركة الأم وأصبح بينهم ما صنع الحدَّاد.

٣ ما يحصل من صراع في قطاع غزة بين الإسلاميين الذي يقل قليلاً عن نظائره لوجود عدو مباشر يتفقون عليه.

لذلك سعى الغرب لعسكرة الثورة الليبية ليكون الخلاف أقوى وأسرع في حسم الصراع وقتل الإسلاميين بعضهم بعضاً، وتماطَل في موضوع اليمن لتنتقل الثورة إلى السلاح، وهو ما قد يضطرهم إلى الترافع إلى الدول الغربية ومنظماتها، وهذا يُعَد اعترافاً به من قِبَل الإسلاميين، ويصبح الغرب هو صاحب الترجيح بين الأقوال والأفعال ومِن ثَمَّ يضمن السيادة على العالم.

ثالثاً: إثبات فشل الإسلاميين في إدارة الدول إذا هي فشلت في استمالتهم أو إيقاعهم في حرب داخلية؛ وذلك بالتضييق عليهم وحصارهم حتى تقتنع الشعوب بعدم جدوى ترشيحهم مرة أخرى أو سرقة ثورتهم وإعداد بدائل، هذا إن لم تكن قد أُعِدَّت بالفعل.

---

(١) قائد حركة العدل والمساواة المتمردة في إقليم دارفور، لقي حتفه في ٢٥ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١١م، خلال اشتباكات مع الجيش السوداني.

السيناريو الثاني:

هناك احتمال آخر أن الحكومات الغربية أدركت عودة العالم إلى الحرب الباردة بدخول الصين لاعباً جديداً في الساحة العالمية، وصعود روسيا من جديد إلى القمة وتشكيلها مع الصين قوة جديدة يدفع الدول الغربية إلى إيجاد حلفاء في المنطقة.

فكل المؤشرات تشير إلى أن الحرب الباردة قادمة فهي بالجملة حالة استقطاب؛ فمن يُحسِن قراءة الواقع من الدول الكبرى ويتحين الفرص هو الذي يجمع من الحلفاء أكثر؛ فالغرب اختار المراهنة على الشعوب وروسيا والصين اختاروا المراهنة على الحكام، وفي نظري أن روسيا والصين خسرتا الرهان في ليبيا، وهو ما دفعهما إلى مباركة سقوط القذافي بعد الوقوف معه فترة من الزمن.

السيناريو الثالث:

أن الدول الغربية دعمت الأنظمة بما فيه الكفاية، ولم يوفر لها ذلك حماية حتى في عقر دارها، ولم تقم هذه الأنظمة بدورها كما يجب في حماية مصالح الدول الغربية وقمع ومحاربة التيارات الإسلامية في بلدانها، وهو ما دفعها لمساندة التغيير القسري الذي جاء من الشعوب لتكون الشعوب نفسها هي التي تقوم بالدور؛ وهو حماية الأنظمة الغربية وحماية مصالحها؛ وذلك لعجز الأنظمة عن ذلك.

السيناريو الرابع (وهو المشهور بين الناس):

أن الغرب دفعته المصالح الضيقة؛ فهو لا يعرف معنى العدل أو الحرية ولا تحكمه الأخلاق ولا يعرف الرحمة ولا تستفذه الدماء والأشلاء؛ فقد فعل في بلاد الإسلام ما هو أشد من ذلك؛ ولكن لما شعر بضعف الحكومات سعى من أجل الحفاظ على مصالحه الموجودة في البلاد العربية وخاصة الاقتصادية؛ فالأرض العربية مليئة بالثروات الظاهرة والباطنة، والسباق أصبح شديداً عليها ومحموماً من أجل الظفر بها فيتوقع أن يكون للدول الغربية نصيب الأسد في هذه الثروات، يوازي ما قدمته هذه الدول من نصرة لهذه الثورات.

حلول عاجلة:

أولاً: إذا كان الغرب يراهن على الخلاف بين الإسلاميين، فلا بد للإسلاميين من تفويت هذه الفرصة، وذلك بجملة من الأمور، منها:

١ سعة صدر المسلم لأخيه المسلم وقبوله له: فالحفاظ على أخوة الإسلام أَوْلَى من الحفاظ على الكرسي.

٢ ضرورة تعلُّم أدب الخلاف ومنهج المولاة للمسلم: حيث إن المسلم لا يوالى جملة ولايعادى جملة؛ يوالى بقدر ما فيه من الطاعة ويعادى بقدر ما فيه من المعصية.

٣ الوقوف على أحاديث التعامل بالسلاح بين المسلمين ومنها:

- قوله ﷺ: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح...»[١].
- قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار...»[٢]، وغيرها من هذه النصوص.

٤ قوله ﷺ لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «تطاوعا ولا تختلفا...»[٣].

ثانياً: لا بد من رفع وعي الشعوب بخطورة ما يخطَّط لها، ولا بد من غرس روح العزة فيها لكيلا تكون ذنباً يقاد تُحقَّق به المصالح ويتسلقي على ظهره.

هذا والله الموفق.

---

(١) أخرجه الشيخان.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) أخرجه البخاري.

مجلة البيان

مفكرة

١٤٣٣هـ ٢٠١٢م

جديدنا

مفكرة البيان

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الشمالية:٠٥٩٠٩٩٢١١٦مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

Badr: 0508948947

الحركات الإسلامية... ولعبة الزعيم

طلحة محمد المسير
talha133@gmail.com

ظهرت حركات الاستقلال في بلاد العرب منذ ستة عقود، وتعددت أدوار الحركات الإسلامية في ذلك الوقت، وتوالت الأحداث والمستجدات حتى أصبحت تلك الحقبة تمثل في وجدان الأمة تجربة عميقة لها أثرها وتأثيرها، ولكن يظل هناك مشهدان معبِّران، يلخِّصان لكثير من العاملين للإسلام خلاصة هذه التجربة، وهما:

المشهد الأول: في يوم الجمعة ١٢ فبراير ١٩٥٤م في ما يسمى بالذكرى الخامسة لوفاة الأستاذ حسن البنا – رحمه الله – في ١٢ فبراير ١٩٤٩م، وقف جمال عبد الناصر مع وفد من مجلس قيادة الثورة وسط الحشود العريضة أمام قبر الأستاذ حسن البنا – رحمه الله – ليعلن التزامه بالعهد قائلاً: (إنني أذكر هذه السنين والآمال التي كنا نعمل من أجل تحقيقها... نعم أذكر في هذا الوقت وفي مثل هذا المكان كيف كان حسن البنا يلتقي مع الجميع، ليعمل الجميع في سبيل المبادئ العالية والأهداف السامية، لا في سبيل الأشخاص ولا الأفراد ولا الدنيا... وأُشهد الله أني أعمل – إن كنتُ أعمل – لتنفيذ هذه المبادئ، وأفنى فيها وأجاهد في سبيلها)[١].

المشهد الثاني: في صباح يوم الإثنين ٢٩ أغسطس ١٩٦٦م خرجت صحيفة الأهرام بخبر تقول فيه: (تم صباح اليوم تنفيذ حكم الإعدام في كلٍّ من: سيد قطب، عبد الفتاح إسماعيل، محمد يوسف هواش، قادة التنظيم الإرهابي للإخوان المسلمين، وقد أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بتخفيف عقوبة الإعدام بالنسبة للأربعة الآخرين؛ مراعاة لصغر سنهم، واستبدالها بالأشغال الشاقة المؤبدة)[٢].

وبين هذين المشهدين ظلت الأجواء الثقافية المعاصرة مشحونة بكثير من الحكايات والتحليلات والرؤى والخبرات والمراجعات، كلٌّ يحاول استخلاص العِبَر من هذه التجربة الثريَّة، والاستفادة من التراكمات الحيوية لهذه الأحداث.

(١) ينظر في ذلك مجلة التحرير، عدد ٤٤ بتاريخ ١٦/ ٢/ ١٩٥٤م، وكتاب: التصويب الأمين، لمحمود الصباغ، ص ٦٦.

(٢) ينظر في قصة إعدام الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – كتاب: سيد قطب صاحب الظلال، لتوفيق الواعي وإبراهيم منير. وكتاب: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، لصلاح الخالدي.

ومع بزوغ نجم الربيع العربي وعودة ظاهرة الثورات إلى صدارة المشهد، واضطلاع الحركات الإسلامية بدور أساسي في دفع عجلة التغيير، يظل الهاجس الذي يراودنا جميعاً: هل يمكن أن نُساق مرة أخرى إلى المصير نفسه الذي سيق إليه الرواد الأوائل؟

والإجابة الجازمة على هذا السؤال غيبٌ، نسأل الله اللطف بأمة الإسلام، ولكن تبدو في الأفق ظواهر تدل على وجود فروق جوهرية بين التجربتين، وظواهر أخرى تُحذِّر من تكرار التجربة نفسها والنتيجة نفسها، ومن ذلك:

أولاً: الظواهر التي تدل على وجود فروق جوهرية بين ثورات الربيع العربي الحالية وحركات التحرير السابقة:

١ أنَّ حركات التحرير في العالم العربي أتت ملتحفةً روح الهزيمة النفسية في الأمة؛ فالخلافة قد أُلغيَت، وفلسطين قد احتُلت، وأعلن اليهود قيام دولتهم، وأطراف العالم الإسلامي أصبحت تحت حُكم أقلياتها غير المسلمة... إلخ. أما اليوم فقد ارتدى كثيرون روحاً جديدة تعلوها العزيمة، وتحدوها الآمال؛ ذلك أنَّ هزائم أمتنا السابقة فَقَدت تأثيرها السلبي لتقادُم عهدها، إضافة إلى ظهور بوادرَ قد تقود للنصر في كثير من البقاع الملتهبة، تقابلها أعراض الهزيمة لقوى الشر العالمية بمعسكريها (الشرقي والغربي).

٢ أنَّ الجيل الذي قاد حركات التحرير كَثُرت في أفراده الانحرافات الفكرية والعقدية، وتداخلت الروح الدينية بالروح القومية والوطنية، وسادت انحرافات المتصوفة وأقوال المرجئة وآراء المعتزلة، كلُّ ذلك وغيره أفقد كثيراً من قادة العمل الإسلامي الرؤية الواضحة التي تجابه التحديات الكثيرة. أما اليوم فعلى الرغم من وجود كثير من هذه الأمور الهدَّامة إلا أنَّ كثيراً من شيوخ الصحوة وشبابها قد ميَّزوا بين العمل للإسلام والنعرات القومية، وسئموا من البدع العقدية والعملية، وانزوى كثير ممن لا يزال متلبِّساً بتلك العقائد في زوايا الخمول والكسل، ولم يعد لتلك الأطروحات ذاك الرونق الذي كانت تتحلى به قديماً.

٣ أنَّ الخبرة التي كانت لدى الجيل السابق تَوَلَّد معظمها من ثنايا الأحداث، واصطبغ كثير منها بالتلقائية وردود الأفعال. أمَّا اليوم فلدى جماعات العمل الإسلامي تراكمات ضخمة، وثراء فكري، ورؤية متكاملة لكثير من التجارب التي مرَّت بها الأمة في العقود الستة المنصرمة، وهو ما قد يكون أكسبَها بُعداً في النظر، وعمقاً في التأمل والتحليل.

٤ أنَّ قوى الشرِّ العالمية كانت في القرن الماضي قريبة العهد بالقتال، تضحي بفلذات أكبادها بلا عدٍّ ولا حصر من أجل تلبية غرور قادتها المستكبرين، ولم تكن تعبأ بملايين الضحايا الذين سقطوا من رعاياهم في الحرب العالمية الأولى والثانية وفي الدول التي احتلوها في مشارق الأرض ومغاربها. أما اليوم مع بُعْد عهدهم نسبيّاً بتلك المجازر البشعة، فقد دخلهم - مع تطاوُل العهد واتساع رقعة التزوُّد من متع الدنيا وزخرفها - ما يَدخُل الأمم - غالباً - من فتور وحرص على تحصيل الشهوات الآنية، وهلع إذا أصابتهم أدنى المصائب، وقد عاتب الله - جل وعلا - مَن تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحرِّ؛ فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨][1]، فإذا كان المؤمن قد يتثاقل إذا فُتحَت عليه الدنيا، فما بالنا بالكافر الذي يتقلب في أتون الشهوات والنزوات؟

٥ أنَّ الصدمة الحضارية التي أصابت كثيراً من أبناء المسلمين قديماً، وكانت تأخذ بلُبِّ كثير ممن وطئت أقدامهم بلاد الكفار فأرْدَتهم صرعى لأول وهلة، فعادوا ناقمين على الأمة الإسلامية وتاريخها وثقافتها وحضارتها: لم يَعد لهذه الصدمة الحضارية ذاك التأثير بعد أن امتدَّت يدُ العُمران في كثير من بقاع المسلمين، وانتشرت في الأمة الكفاءات الفنية التي فككت طلاسم الحضارة الغربية؛ ليرى الجميع أنَّ ما وصل إليه الغرب ليس بمعجز لنا إن صدقت النوايا وحَسُن العمل.

ثانياً: الظواهر التي تدل على تشابُه بين ثورات الربيع العربي الحالية وحركات التحرير السابقة:

١ أنَّ سيطرة الجيش تظل في المشهدين بادية بوضوح، وعاملاً مؤثراً في تحديد هوية الطريق الذي تسير إليه الدولة؛ بل قد لا نجانب الحقيقة إن قلنا: إن بنيَة الجيوش العربية في واقعنا المعاصر أسوأ بالنسبة لآمال الأمة المسلمة من بناء الجيوش قبل ستة عقود من الزمن؛ ذلك أن بنية الجيوش المعاصرة أحيطت بقدر كبير من الحيطة والحذر أثناء تكوينها؛ خشية أن تتخللها عناصر تناوئ الحكومات المعاصرة، وأصبحت اختبارات الهيئة التي يُستَدل بها على التكوين الثقافي للمتقدم

(١) ينظر تفسير ابن كثير لسورة التوبة، آية ٣٨.

لتلك الجيـــوش نقطة جوهرية في قبول الجنـــود، ويجري مع ترقيات الضباط تحديـــث للمعلومات الخاصة بالضابط، مثل: أحوال أفراد عائلتـــه، وصداقاته، وموقف زوجته من الحجاب، وعدد أولاده، وعلاقته بالصلاة والمســـجد... إلخ، فنشـــأ جيل مـــن قيادات الجيوش يغلب عليه الجهـــل بأمور الدين، والتقيد بالتعليمات العسكرية مهما كانت، وهذا يخالف تكوين الجيوش في الحقبة الســـابقة؛ حيث لم تكن الإجـــراءات الإدارية بهذه الصرامـــة، وكان الجيش يجمع في طياتـــه مختلف التوجهات والأفـــكار، وهذا ما كان يؤدي ســـابقاً لكثير من الانقلابات في الجيش، والمحاكمات العســـكرية في صفوف الجند بتُهَم تتعلق بمحاولـــة قلب النظام، خلافاً لما اســـتقر عليـــه حال كثير من الجيوش الآن.

وعندما يحكم الجيش بلداً ما فإن سياســـته تتسم - غالباً - بالروح التي تربى عليها، والتي لا يُتقن غيرها؛ وهي روح المناورة والهجوم الكاســـح عند التقدم، والكمون والانقضاض على العدو عند التقهقر.

ولا يمكن بحال لمن تدبَّر الأمور أن يركن لحكم هذه الجيوش التي ترعرعت في قبضة القهر والاستبداد مهما أظهرت من ودٍّ طالما لم تعلن صراحة وقوفها بجانب الإســـلام والشريعة؛ لأنَّ الســـلوك الحميد لم يكن يوماً من الأيام ســـلعة تباع وتشترى، يتزيَّا بها من أراد وقت ما شاء.

٢ ازدياد الخلاف والشقاق بين جيل الصحوة الإسلامية، بصـــورة تفوق ما كان ملاحظاً في المشـــهد العام أثناء حركات التحرير الســـابقة؛ فقد أُجهِد شباب الصحوة من عبء التنازع الفكـــري لكثير من القضايا المتراكمة عبر عشـــرات الســـنين، ولـــم تعد حالـــة الاســـتقطاب يتنازعها طرفـــان أو ثلاثة، بل أصبحت معترَكاً بين عشرات الجماعات والجمعيات والأحزاب والحركات التي تقترب من بعضها وتبتعد لأسباب كثيرة وأحياناً بلا أسباب.

٣ استمرار مسلسل صناعة (البطل) وتصديره إلى شعوب المســـلمين؛ بل إن صناعة (البطل) كانت تتم ســـابقاً بناءً على تخطيط ســـابق وعمل دؤوب مستمر؛ ذاك (البطل) الذي تلتفُّ حوله الجماهير وترفعه فوق الأعناق، ثمَّ ما يلبث أن يُسفِر عن عداوته للإسلام وأهله، ويذيقَهم ألواناً من الأذى والعذاب. أمَّا الآن فلم يعُد (البطل) يحتاج إلى سجل معارك ليسمى (الغازي)، ولا تاريخاً نضاليّاً ليســـمى (الزعيـــم)، وأصبحت صناعة هذا (البطل) لا تســـتغرق الآن ســـوى أيام معـــدودة، تتكاتف فيها وســـائل الإعلام مع رؤوس الأموال مـــع مراكز القوى؛ لتمجيد هذا (البطل) الذي يهبط على الأمة فجأة قادماً من واشـــنطن أو باريس أو لندن، ويمســـك بتقاليد الحكم دون سابق مقدمات أو معرفة للأمة به.

٤ ظهور نوع من الركون إلى عاطفة الشـــعوب، والاغترار بالكثرة الزائفة التي تهتف باسم الإسلام، وتتسابق للظهور في المشـــهد اليومي للعمل الإسلامي؛ ولكن الخشية أن نتوانى عن اســـتثمار هذه الطاقات وتوجيهها التوجيه السليم، فنجدَها قد تبخَّر أكثرها عند أول مفترق للطرق، وعند احتدام الأمور، كما تبخَّرت مِن قَبْـــلُ جماهيرُ أكثر عدداً من الجماهير التي نراها اليوم.

٥ على الرغم من وضوح هوية كثير من الحركات الإسلامية منذ ستة عقود، إلا أنَّ بعض الناس الآن يحاول مُوارَاة الخطاب العقدي للحركات الإســـلامية، محـــاولاً الاقتراب من الخطاب السياســـي للقوى المناوئة للحركات الإســـلامية؛ حتى لا يظهر بمظهر الشـــاذ عمَّا يســـمى بالقوى الوطنية، والعولمة الفكرية، وحقوق الإنســـان، وهذه الطريقة في الخطاب مِن شـــأنها أن تُذهِـــب بريق النور الذي تحمله الحركات الإســـلامية، وتُخمِد روح الإيمان الذي يحرِّك الأفراد العاملين للإسلام، إضافة إلى أنه قد يؤدي لتقديم خطاب مشـــوَّه لا يمثل حقيقة الإسلام ولا حقيقة دعوته.

أخـــيراً: إننا اليوم في أول الطريق، وبين أيدينا أمانة يجب أن نؤديَها إلى مَن بعدنا، وليس لنا من ســـبيل إلا أن نســـتعين بالله - جل وعلا - ثم نصبر على تحمُّل كثيراً من المسؤولية في سبيل تحقيق العبودية التي أمرنا الله - جل وعلا - بتحقيقها؛ تلك العبودية بمعناها الشامل الكامل الذي يأخذ من الدنيا زاداً إلى الآخرة.

ونحن وإن كنا قد تمازجت الصورة المعاصرة للثورات العربية في بدايتها بالصورة قبل ســـتة عقود؛ فرأينا اليوم مصطفى عبد الجليل رئيـــس المجلس الانتقالي الليبي يوم الأحـــد ٢٥ ذو القعدة ١٤٣٢هـ يســـجد شكراً لله - جل وعلا - أمام العالم كله، ويعلن أنَّ (أي قانون يعارض المبادئ الإسلامية للشريعة الإسلامية فهو معطَّل قانوناً)، فإنَّ الصورة النهائية للمســـتقبل ســـتظل غيباً إلى أن تستعرضه الأجيال القادمة، لكنَّ المســـلمين دوماً موقنون أنَّ النصر المبين والفوز العظيم هـــو قدرُهم الذي كتبه الله لهم ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [**يوسف**: ٢١].

مجلة البيان

جديد مجلة البيان

www.albayan.co.uk

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التـوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـة والمدينـة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـة الجنوبيـة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـة الشرقيـة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـة القصيـم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

فلسطينيو العـــــراق

بين المطرقة والسندان

أيمـــــن الـشـعـبـان

يكاد يكون الشعب الفلسطيني ضحية أكبر عملية تهجير قسري عرفها التاريخ؛ حيث استَخدمت العصابات الصهيونية شتى وسائل القمع والتنكيل والمجازر والتطهير العرقي، رافقتها سياسة الحرب النفسية من خلال نشر أخبار القتل الجماعي، وعمليات الهدم والاغتصاب وغيرها؛ لنشر الذعر والهلع في نفوس الأهالي؛ لترك قراهم والحفاظ على أرواحهم.

بذلك تم اقتلاع أكثر من ٨٠٠ ألف فلسطيني عام ١٩٤٨م من مدنهم وقراهم ومساكنهم من أصل ٩٢٥ ألف في تلك الأماكن، والاستيلاء على ٧٧٪ من أرض الوطن، وتدمير ٤٧٨ قرية من أصل ٥٨٥، في أكبر وأضخم عملية سرقة واغتصاب للأرض في العالم، ليحتل اللاجئ الفلسطيني الصدارة بين دول العالم في عدد اللاجئين، بعد استيلاء شعب بلا أرض على أرض يملكها شعب، من هنا بدأت النكبة والمحنة والانعطافة الخطيرة، بشتى الجوانب الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والصحية والاقتصادية والتراثية وغيرها.

إن حرمان اللاجئ الفلسطيني من أبسط حقوقه، من العيش بأمن وأمان واستقرار وكرامة على أرضه، مأساة كبيرة وفاجعة عظيمة، ولها تداعياتها على جميع الأصعدة؛ فمرارة التهجير ولوعة الشتات وحرقة الغربة ليس لها حدود، والمشكلة تتعقد والمأساة تتضاعف، إذا ضاقت السبل وانقطعت الحيل وقلَّت الخيارات وانعدمت البدائل، والأدهى من ذلك والأمرُّ تكرارُ عملية التهجير واستمرار التشتيت وتوالي الغربة حتى لو كانت نسبية إلى المكان السابق!!

نبذة تاريخية عن فلسطينيي العراق:

تعود أصول وجـذور اللاجئين الفلسـطينيين في العراق إلى عام ١٩٤٨م عندما احتـل الكيان اليهودي الغاصب أرضنا فلسطين، بعد أن سُلِّمت إليهم على طبق من ذهب من قِبَل المحتل البريطاني آنذاك؛ إذ بعد سـقوط مدينة حيفا بيد العصابات الصهيونية في ٢٣ أبريل/ نيسـان ١٩٤٨م اشتد قصف القرى التابعة لقضاء حيفا، التي صمدت بدورها صموداً أسـطورياً، ومع اسـتمرار القصف البري والبحري والجوي اضطر أهالي قريتَي جبع وعين غزال تحت هذا الدمار والخراب إلى مغادرتها إلـى قرية إجزم وتجمعوا في بيـارة نايف الماضي تحت حماية الأمم المتحدة.

اسـتمر القصف بشـكل كثيف، حتى بعد إعـلان اليهود دولتهم، وبعد شـهرين ونصـف وبعد الهدنة الثانية سـقطت القرى الثلاث في ٢٢ - ١٩٤٨/٧/٢٤م بعد استخدام الصهاينة طائرات بريطانية وتم تدمير القرى بأكملها، وكانت قرية إجزم من آخر القرى سـقوطاً بتاريخ ١٩٤٨/٧/٢٧م، عندها أعلنت الإذاعة اليهودية باللغة العبرية في ذلك اليوم نبأ سقوط إجزم وقالوا: (لقد أسـقطنا الحمامة البيضاء وكسـرنا جناحيها). والحمامة البيضاء هي قرية إجزم وجناحاها جبع وعين غزال، وذلك بحسـب الرواية اليهودية التي تسمي هذه القرى (القرى الجريئة والعنيدة).

ولم تدخل القـوات اليهودية إلى قرية إجزم إلا بعد التأكد من أن القرية خالية من المسـلحين؛ حيـث كان آخر المقاتلين المنسـحبين من القرية هما (يوسـف مفلـح الفياس ومحمد الإنكليزي) بحسـب ما ذكر الكاتب والباحث لبيب قدسـية إذ شـاهدهما عندما وصلا إلى البيارة وهمـا يمتطيان جوادين أصيلين ويحملان أسلحتهما وذخيرتهما[١].

قريبـاً من ٩٢٪ من اللاجئين يعودون إلى قرى قضاء حيفا وجزء يسـير منهم إلى مدينة حيفا، ومـن تلك القرى (إجزم، وجبع، وعين غزال، والصرفند، وعتليت، وأم الزينات، وكفر لام، وطيرة حيفا، والطنطورة، وبلد الشـيخ، وعين حوض، والمزار، ودالية الروحاء، وعارة، وأم الفحم، والفرديس)، لكن بنسبة ٨٣٪ منهم من قرى مثلث الكرمل (إجزم، جبع، عين غزال)، وما تبقى مـن مدن وأقضية أخرى مثل (يافا، وعـكا، والخليل، ونابلس، والقدس، وجنين، وطولكرم، والرملة، والناصرة).

(١) ينظر منتدى إجزم، سقوط قرية إجزم قضاء حيفا بأيدي العصابات الصهيونية، لبيب قدسية.

تقـع قرية إجزم على بعد ١٩ كم جنوب حيفا، ومسـاحتها ٤٦,٩ كم٢، وعدد سكانها آنذاك ٤٠٠٠ نسمة، وقرية جبع على بعد ١٨ كم جنوب حيفا، ومساحتها ٧,٠١ كم٢، وسكانها ٢٠٠٠ نسمة، وتقع عين غزال على بعد ٢١ كم جنوب حيفا، ومساحتها ١٨,١ كم٢ وعدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة[٢].

بعد تحرير القوات العراقية مدينة جنين من أيدي العصابات الصهيونيـة، قام الأمير عبد الإله الوصـي على عرش العراق وشقيقته الملكة عالية بتفقد قطعات الجيش وسط فلسطين في مثلث (نابلس طولكرم جنين)، عندها شاهدوا أهالي قرى مثلث الكرمل وما حولها من نساء وأطفال وكبار السن، وعندما سمعوا عن صمودهم وشجاعتهم ومدى تنسيقهم مع الجيش العراقي، أبدت الملكة عالية استعداداً لاستضافتهم في العراق.

اختلفت المصادر في تقدير عدد الفلسطينيين الذين قدموا إلى العراق عام ١٩٤٨م، ولكن يمكن القول: إن عددهم تراوح في سنة ١٩٤٨م بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف[٣].

تولَّت مهمة إسـكان الفلسطينيين عند قدومهم إلى العراق وزارة الدفاع العراقية، وقد أُسـكِن الفلسـطينيون في الأشهر الأولى لقدومهـم في المـدارس، مثل: دار المعلمـين الريفية، ودار المعلمـين العالية، وكلية الهندسـة، وبعض الدور الأخرى، وبانقضـاء العطلة الصيفية نُقِل قسـم كبير منهم إلى البصرة حيث أعيد إسـكانهم في معسكر الشـعيبة كما نُقِل قسم آخر منهم إلى الموصل، وأعيد إسكان الباقين في بنايات كانت متَّخَذة نوادٍ، منها: نادي الرافدين ونادي العلوية ونادي الزوراء والرشيد وغيرها[٤].

(٢) ينظر كتاب «بلادنا فلسطين» (٢/٧)، مصطفى الدباغ، قصة مدينة حيفا ، من أثر النكبة – ط ١٩٥١– محمد نمر الخطيب، موقع « فلسطين في الذاكرة».
(٣) الفلسطينيون في العراق – هدى حمودة.
(٤) «الفلسطينيون في العراق مدخل ديموغرافي اجتماعي اقتصادي»، هدى حمودة، مجلة دفاتر عربية.

فلسطينيو العراق قبل الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣م:

نتيجة للخطأ الفادح والكارثة التاريخية في عدم تسجيل الفلسطينيين ضمن سجلات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا)، أصبح وضع الفلسطيني مرتبط بسياسة الحكومة العراقية التي تحكم البلاد، وهو ما جعل وضعه القانوني والاقتصادي والاجتماعي والمعيشي وغيرها مضطرباً وغير مستقر؛ نتيجة تغيُّر وتقلُّب القوانين والأحوال المتعلقة بهم.

وعليه فإن الوضع ينعكس سلباً وإيجاباً بحسب الأحوال العامة في البلاد؛ حتى أصبحوا جزءاً من المجتمع العراقي، لكن الأمر المتميز – مقارنة مع ما حصل بعد عام ٢٠٠٣م – هو قضية الأمن وعدم الاستهداف المباشر بشكل سافر وواضح ومكشوف على الهوية أو خلفية طائفية أو عنصرية.

قد تكون هنالك بعض المضايقات الفردية وسماع كلام ينم عن حقد سواء من قِبَل بعض الأفراد أو الموظفين؛ لكنه كان عشوائياً ولم يصل إلى حد القتل والتعذيب والانتقام بوسائل وحشية، والتحريض الإعلامي والتهديد والوعيد الشديد؛ الذي نجم عنه تهجير غالبية الفلسطينيين خارج العراق!

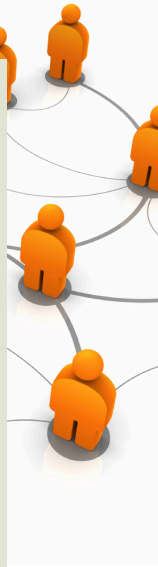

الأعداد:

حسب تقرير الأمم المتحدة في حزيران عام ١٩٤٩م تم تقدير العدد بـ (٥٠٠٠ فلسطيني)، وفي عام ١٩٧٠م بـ (١٤٠٠٠)، وفي عام ١٩٧٩م بـ (١٩٠٠٠) حسب دراسة الباحثة هدى حمودة، وحسب إحصائية منظمة التحرير الفلسطينية يقال بأن ٣٤٠٠٠ فلسطيني كانوا في العراق عام ٢٠٠٢م ، لكن في عام ٢٠٠٣م كان العدد – تقريباً – ٢٥٠٠٠ فلسطيني بحسب إحصائية مفوضية شؤون اللاجئين.

وفي آخر إحصائية بشهر مارس ٢٠٠٩م من قِبَل وزارة الداخلية العراقية وصل العدد إلى (١٣٤٧٦) بما فيهم مخيم الوليد الصحراوي عند الحدود العراقية الغربية مع سورية؛ حيث بلغ عددهم فيه ١٥٠٠ لاجئ. هذه الإحصائية اعتمدت العوائل المسجلة ضمن اللجنة الدائمة لشؤون اللاجئين، ومنهم من هو فعلاً خارج العراق، والتقديرات الآن تقول بأن قرابة ٨٠٠٠ آلاف فقط الموجودين حالياً في العراق غالبيتهم في مجمع البلديات شرق بغداد.

أماكن الوجود في العراق:

بداية الأمر تم إسكانهم في معسكرات ومدارس ومعاهد ونوادٍ ودور أيتام ودور مجمدة ومساكن ومعابد اليهود، ثم بعد سنوات تم نقلهم لعدة أماكن وتجمعات على شكل ملاجئ ومبانٍ قديمة في مناطق: الحرية والطوبجي (حي السلام) والزعفرانية والكفاح والفضل والشورجة وغيرها من أحياء بغداد.

وقسم آخر، منهم في الحويجة في محافظة كركوك شمال العراق، ومعسكر الشعيبة في البصرة وكذلك باب سنجار في الموصل، وكان نظام السكن جماعي ومشترك وليس فيه أدنى مقومات السكن.

كان من المفترض تحمُّل تبعات إسكان الجميع؛ إلا أن مشكلة السكن لم تحل إلى هذه اللحظة، وكان الفلسطينيون يستفيدون من سكن وزارة العمل بنسبة ٥٠ ٪ فقط والبقية يتحملون ذلك على نفقتهم الخاصة!

ثم بعد ذلك توسعت أماكن الإقامة؛ ففي مطلع السبعينيات من القرن الماضي تم إنشاء مجمع البلديات، وهو عبارة عن ١٦ بناية في كل منها ٤٨ شقة، لكن منذ ذلك الحين لم يجرِ أي توسع إضافي وبقيت مشكلة السكن قائمة، وهنالك أماكن أخرى، مثل: بغداد الجديدة وحي الصحة في الدورة وحي الأمين والبتاوين وشارع النضال والوزيرية وغيرها من العاصمة بغداد.

ومما يدل على رداءة وتعاسة مساكن الفلسطينيين، زيارة وزير العمل والشؤون الاجتماعية أحمد الحبوبي، في عام ١٩٦٧م لملجأ الزعفرانية، ورفع تقريراً لمجلس الوزراء مما جاء فيه: (... فهالني ما رأيت! ولا أبالغ لو شبهتها بقبور يسكنها أحياء).

الآن ونحن مع بداية عام ٢٠١١م يعدُّ مجمع البلديات الثقل الأكبر لوجود الفلسطينيين، بعد تهجير واضطهاد كثير من العائلات في الأماكن ذات الغالبية الشيعية: كالبصرة في الجنوب، ومناطق الحرية والدورة والأمين وبغداد الجديدة والطوبجي والغزالية والمعالف والسيدية وغيرها، وهنالك عائلات في محافظة الموصل.

الوضع القانوني:

لم تكن هنالك قرارات واضحة تنظم هذا الملف وكيفية التعامل في كثير من الجوانب مع الفلسطيني في العراق مدة طويلة لغاية صدور قرار عام ١٩٦٤م، ثم بدأت تصدر القرارات تباعاً ومنها معاملة الفلسطيني معاملة العراقي بالواجبات والحقوق باستثناء الجنسية والترشيح، وكان آخرها قرار رقم ٢٠٢ لسنة ٢٠٠١م ، ومنحهم الإقامة الدائمة.

وكان لقـــرار رقم ٢٣ عـــام ١٩٩٤م الأثر الكبير في تكريس معاناة مضاعفة في كثير مـــن الجوانب؛ إذ يقضي بعدم تمكُّن الفلســـطيني من العمل أو الســـكن أو الإيجار أو حتى امتلاك خط هاتف، وعلى الرغم من التصريحات بمعاملة الفلســـطيني معاملة العراقي في السنتين الماضيتين؛ إلا أن اضطراباً واضحاً وتضييقاً كبيراً وصعوبات يجدها الفلسطيني في العراق!

الوضع الاقتصادي:

انعكس الاضطـــراب في الوضع القانونـــي على اللاجئين الفلســـطينيين في العـــراق في جميع مجريـــات الحياة، ومنها الوضع الاقتصادي، فنسبة قليلة منهم كان لديهم وضع معاشي جيـــد ووظائف ومهـــن. أما البقيـــة والغالبية فـــكان وضعهم الاقتصادي ضعيفاً.

الوضع الاجتماعي:

نتيجة لنظام الســـكن الجماعي الذي اتخذته وزارة العمل والشـــؤون الاجتماعية، فقد ظهرت كثير من الآثار الاجتماعية السلبية بطبيعة الحال، لكن بقي الفلسطيني في العراق محافظاً على مبادئه وتراثه وعاداته، واتصفوا بالحشمة والمحافظة على دينهم وولائهم لأرضهم المغتصبة وقضيتهم، وكانوا أشـــبه بكتلة واحدة وعائلة متماسكة؛ لا سيما في أماكن تجمعاتهم.

فلسطينيو العراق بعد عام ٢٠٠٣م:

احتلال العراق كان فاجعة كبيرة للفلســـطينيين في العراق، وكان حدثاً مفاجئاً ومباغتاً، حتى بدأت الصدمة نوعاً ما تخف بعـــد أن أصبح أمراً واقعاً؛ إلا أن حيـــاة جديدة بدأت ومعاناة ليست بالحسبان حلَّت على عموم الفلسطينيين.

وحتى يتم تصوُّر ما حصل بدقة، وملابسات الأحداث بشكل مختصر، يمكن تقســـيم المراحل التي مر بها فلسطينيو العراق بحسب السنوات إلى:

(عـــام ٢٠٠٣م) مرحلـــة ترقب: حيث بـــدأت مرحلة ترقُّب جديدة لعموم الفلســـطينيين، وعلى جميـــع الأصعدة (الأمنية والسياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية)، بعد أن حصلـــت فوضى عارمة في البلاد، ولا يعلم ما هو مخبَّأ لهم في المستقبل القريب .

(عام ٢٠٠٤م) مرحلة حيطة وحذر: في هذه المرحلة بدأت تتضح معالم الحكومة الجديدة، وبروز بعض الفئات والقوميات والطوائف والتكتلات على حســـاب الأخرى، والفلسطيني ليس بمنأى عن تلك التشـــكيلات بحكم تعايشه، فكان مؤشراً لبداية معاناة وحقبة جديدة تلوح مخاطرها في الأفق القريب.

(عـــام ٢٠٠٥م) بدايـــة الاســـتهداف: ظهـــرت موجـــة من التحريـــض الإعلامي المكثَّف، ضـــد الوجود العربـــي عموماً والفلسطيني خصوصاً، تكللت باعتقال أربعة فلسطينيين أبرياء، وإظهارهـــم على قناة العراقية، وإجبارهـــم بالقوة على الإدلاء باعترافات انعكست بشكل سلبي وكبير على عموم الفلسطينيين في العراق؛ حيث بدأ التضييق والاســـتهداف والملاحقة وبدأت مرحلة جديدة تختلف عن سابقاتها.

(عام ٢٠٠٦م) عام النكبة: من أشد الأعوام ضراوة، وأكثرها قســـاوة، وأصعبها على النفوس؛ حيث تضاعفـــت الانتهاكات وكثـــرت الاعتقـــالات وازدادت حـــالات الخطـــف والتعذيب، والدوافع طائفية محضة؛ لا ســـيما بعد أحداث المســـاجد في ٢٠٠٦/٢/٢٢م ، واشـــتد الخناق على عموم الفلســـطينيين في شتى المجالات، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وانعدمت أدنى وسائل المعيشة الإنسانية.

(عـــام ٢٠٠٧م) عـــام الهجـــرة والشـــتات: نتيجـــة طبيعية لما تعرضـــت له هـــذه الأقلية من ظلـــم واضطهاد وممارســـات وتضييقات ومضاعفة للمعانـــاة، وعدم وجود بصيص أمل في حل المشكلة، التجأت الغالبية لخيار الانتقال والهجرة والشتات بحثاً عن حلول فردية، مع أن نســـبةً منهم أجبروا على المغادرة وطردوا من مســـاكنهم، وبدأت دائرة وخريطة وأماكن وجودهم تتوسع وتزداد وتكثر شيئاً فشيئاً.

(عـــام ٢٠٠٨م وما بعده) جَذْبِ الرماد: حصل تحسُّن نسبي في الملف الأمني في بغداد؛ إلا أن الآثار المترتبة والمتراكمة بسبب ما مضى من جروح ومحن، بلغت ذروتها؛ فهنالك أشبه بالحصار وخطورة في التنقل ودخول المؤسســـات العراقية، وارتفاع نسبة البطالة، ناهيك عن أوضح مظهر وأبرز مَعلَم للفلسطينيين، هو التشرذم والتشتت وتفسُّخ النسيج العائلي والروابط الأسرية؛ إذ لا تكاد تجد عائلة فلســـطينية تقيم في مكان واحد أو حتى في مكانين؛ لذلك لا بد من معرفة أمر هام للغاية، وهو أن المشكلة الآن غير مقتصرة على الملف الأمني، فبســـبب هاجس الخوف وعدم الاطمئنان واضطراب الوضع القانوني، وعدم توفر أدنى مقومات الحياة الإنســـانية (صعوبة في العمل والتنقل وإظهار الهوية الفلســـطينية...) كل ذلك يعقِّد المسألة ويزيد من المأساة على المدى القريب والبعيد.

انتهاكات فاقت التصورات:

تعرضت (الأقلية الفلسطينية) الموجودة في العراق لمجازر وحشية واضطهاد غير مسبوق وتنكيل متواصل، وحملات عدائية وظلم وترهيب لم يسبق لها مثيل، اشتدت هذه الأعمال الإجرامية بعد عام ٢٠٠٥م؛ حيث كان للإعلام الطائفي متمثلاً بالسياسيين والرموز الصفوية التي دخلت مع المحتل وبعض الصحف والقنوات الفضائية، كان لهم الدور البارز في تأجيج الرأي العام ضد العرب عموماً والفلسطينيين خصوصاً، وهذا انعكس بشكل كبير على عمليات الاستئصال والتهجير والملاحقة للعرب وخصوصاً الفلسطينيين.

كان للميليشيات الطائفية الصفوية المدعومة من إيران، الدور الكبير في تلك الاستهدافات؛ لا سيما ما تُعرَف بعصابات جيش المهدي، والتهمة جاهزة (وهابي، بعثي، صدامي، إرهابي، ناصبي... وهكذا)، وتم قصف تجمعات الفلسطينيين والتركيز على أكثرها كثافة (مجمع البلديات) واختطاف بعض العاملين والموظفين وأصحاب رؤوس الأموال والكفاءات وقتلهم، والبعض تم تعذيبهم وتصفيتهم وأخذ فدية من ذويهم، ثم تسليم جثثهم لمشرحة الطب العدلي، وهنالك جثث لم يتم استلامها إلى الآن، في الوقت الذي يسلِّم فيه الصهاينة جثث ورفات فلسطينيين قاموا بعمليات بطولية وقتل يهود قبل أكثر من ثلاثة عقود! ونحن ضيوف على العراق ويتم التنكيل بنا بلا ذنب ثم تختطف الجثث! وبعد ذلك يدَّعون نصرتهم للقضية الفلسطينية! فأي دين وأي عقيدة وأي مذهب يبيح لأولئك الطائفيين هذه الشناعات، لكن إذا عُرف السبب بطل العجب.

كما رافقت هذه الممارسات اعتقالات عشوائية من قِبَل الأجهزة الأمنية العراقية، وتضييقات في معظم المؤسسات والوزارات، بل تهديدات واغتيالات في بعض المناطق، وبدأت الأمور تتدهور وأصبح الفلسطيني في حال لا يحسد عليها، ليكون تفكير جديٌّ بإيجاد بدائل والخلاص من هذه الانتهاكات المتكررة والمستمرة، التي نتج عنها أكثر من ٣٠٠ شهيد بإذن الله، وأكثر من ٥٠٠ جريح، وعدد من المفقودين، وقرابة عشرين جثة لم تسلَّم لذويها، وتهجير أكثر من ثلثي اللاجئين؛ أي يقارب (١٨ ألفاً) ولم يتبقَّ الآن إلا قرابة ٨ آلاف فلسطيني يعيشون ظروفاً سيئة للغاية، في ظل تجدُّد الاعتقالات العشوائية في شهر أغسطس/ آب ٢٠١١م، وهنالك أنباء عن تعذيب شديد وتنكيل بالمعتقلين الفلسطينيين، حتى أدلَى بعضهم باعترافات وجرائم لم يقترفها، ثم يتم تصويرهم على قناة الفتنة الطائفية (قناة العراقية الفضائية)، ثم يتم تأجيج الرأي العام والشارع العراقي ضد الفلسطينيين في إشارة واضحة لتنفيذ مخططات وأجندة لتقليص عدد الفلسطينيين في العراق خدمة للمصالح الصهيونية في المنطقة.

مخيمات البؤس واللجوء والصمت العربي!

بُعيد احتلال العراق عام ٢٠٠٣م تهجر قرابة ٤٠٠ عائلة فلسطينية من عدة مناطق في بغداد والبصرة بدوافع طائفية، وأُسِّس أول مخيم للاجئين الفلسطينيين في العراق، بساحة لكرة القدم في نادي حيفا الرياضي بمجمع البلديات، لتبدأ محنة جديدة لم تكن بالحسبان، استمر هذا المخيم حتى منتصف عام ٢٠٠٥م، ومع بداية الاحتلال اضطرت كثير من العائلات الفلسطينية نظراً لخطورة الوضع إلى مغادرة العراق باتجاه الحدود الأردنية، وبقيت عائلات بين الحدين في مخيم الكرامة، وأخرى دخلت الحدود الأردنية لتمكث عدة سنوات في مخيم رويشد الصحراوي، ثم يتم تهجير تلك العائلات إلى كندا وأميركا ونيوزيلندا والبرازيل وغيرها من دول الشتات الجديد في حين الصحراء العربية تشتكي التصحر، والمساحات شاسعة لم تتسع لمئات الفلسطينيين الفارين من بطش الميليشيات في العراق!

مع استمرار التضييق والتنكيل بالفلسطينيين، اضطرت عائلات نهاية عام ٢٠٠٥م إلى التوجه للصحراء في ظل صمت دولي وإسلامي وعربي مخزٍ أمام ما يحصل، لكن هذه المرة مُنِعَت العائلات من دخول الحدود الأردنية، لتنتقل باتجاه المنفذ السوري، ليتأسس مخيم التنف بين الحدين (السوري – العراقي)، استمر قرابة خمس سنوات، وتم تهجير أكثر من ٢٠٠٠ فلسطيني إلى كثير من الدول الأجنبية منها: (السويد، الدنمارك، هولندا، بريطانيا، أميركا، النرويج، تشيلي، كندا، فنلندا، إيطاليا، وغيرها من الدول).

وخلال العام ٢٠٠٦م تأسس أيضاً مخيم طريبيل قرابة شهرين لعدة عوائل، ثم بعد ذلك أُنشئ مخيم الوليد الذي لا يزال شاخصاً إلى هذه اللحظات داخل الحدود العراقية في المنطقة الغربية التابعة لمنطقة الرطبة، وتم تهجير أكثر من ٢٠٠٠ فلسطيني لكثير من الدول السابقة بالإضافة إلى (آيسلندا وفرنسا وغيرها من الدول)، والآن بقي فيه قرابة ٢٠٠ فلسطيني لهم قرابة خمس سنوات في الصحراء، قضى منهم قرابة ٢٨ فلسطينياً نحبه فيه، ومن تبقَّى يتم تهديدهم الآن بإرجاعهم إلى العراق، مع أنهم فروا منه لعدم شعورهم بالأمان.

وهناك عائلات أخرى تمكنت من دخول سورية بطرق مختلفة، وقامت بالتسجيل ضمن مفوضية شـــؤون اللاجئين، وتم تأسيس مخيم الهول منتصف عام ٢٠٠٦م في محافظة الحســـكة عند المثلث الســـوري التركي العراقي، وتم تهجير أكثر من ٢٠٠٠ فلســـطيني لعدة دول أجنبية منها (أســـتراليا)، ولا زال هناك أعداد ينتظرون إعادة تهجيرهم وإنهاء معاناتهم، في الوقت الذي لم تســـتقبل أي دولة عربية أياً من هؤلاء المهجَّرين على غرار استقبال الدول الأجنبية، وهو ما يشير إلى تعرُّض هؤلاء لخطورة الاندماج في تلك المجتمعات وضعف مطلب حق العودة لدى الأجيال القادمة، وبذلك تكون تلك الميليشيات المدعومة من إيران قدمت خدمة ذهبية مجانية للكيان اليهودي، بإبعاد فئة مهمة في دفة الصراع، ستظهر عواقبها بعد عدة عقود.

خريطة فلسطينيي العراق الحالية:

نتيجة لشـــظف العيـــش والضنك وتوالـــي الانتهاكات تشرذمت وتجزأت وانشـــطرت العائلات الفلسطينية التي كانت تعيش في العـــراق؛ في أكثر من ثلاثين دولة معظمها أجنبية، ولو أضفنا المســـاحات الشاسعة لبعض الدول التي تتكـــون من ولايات ومقاطعات ومـــدن كبيرة، لنتج عن ذلك فعلياً تشتُّت وتبعثُر الفلسطينيين لأكثر من ستين أو سبعين دولـــة، إذا علمنا أن أكثر من ٣٠٠٠ فلســـطيني توزعوا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقرابة ألف في أستراليا، وألف أخرى في كندا، لكن حصة الأســـد كانت لمملكة الســـويد بمدنها المتباعدة؛ حيث استوعبت أكثر من ٤٠٠٠ فلسطيني، ويخبرنـــي أحد أقربائـــي هناك في حينها: بـــأن له قرابة عشـــر شهور وعدد من قرابته في مدينة أخرى لم يتسنَّ له زيارتهـــم! وهذا الأمر يكاد يكون طبيعياً في تلك المجتمعات الخالية من الحياة الاجتماعية.

فـــي النرويج توزع أكثر من ١٠٠٠ فلســـطيني، وكذلك احتضنـــت فنلنـــدا وهولنـــدا والدنمارك أعـــداداً أخرى، لتستوعب الدول الإسكندنافية جميعاً تلك الأقلية المنكوبة، ولم تكن بقية الدول الأوروبية بمعزل؛ حيث استقبلت فرنسا عدداً من العوائل، وبريطانيا قرابة ٢٥٠ فلسطينياً، ومن قَبْل تشيلي والبرازيل عدد مقارب.

أما جزيرة قبرص فقد وصلها أكثر من ٣٠٠٠ فلسطيني بمغامرات عبر البحر الأبيض المتوســـط، وقصص مذهلة، لكن تبددت الأحلام، والآن هنالك هجرة عكسية من قبرص إلى دول أخرى نتيجـــة للمصير المجهول فيها لتلك العوائل التي بحثت عن بصيص أمل، في العيش الآمن والاســـتقرار النسبي. وعائلات تنتظر إعادة تهجيرها في تركيا.

ولو ذهبت يميناً أو شـــمالاً وجُبْت قارات العالم، لعلمت أن الفلســـطيني بذل جهوداً مضنية، في سبيل الوصول إلى برِّ الأمان بعد إغلاق الحدود العربية أمامه، فتخيل أن عدداً من العوائل اســـتقر بها الحال في شبه القارة الهندية حتى يعـــاد تهجيرهم لدول أخرى، ولا زالـــت أعداد منهم هناك إلى لحظة كتابة هذه الســـطور، وأعداد أخرى في ماليزيا وإندونيســـيا وتايلنـــد، وعدد قليل ذهـــب للبحث عن لقمة العيش في الصين وروســـيا وبلغاريـــا واليونان، وحتى يمر الفلســـطيني بمعظم الدول كان لرومانيا وسلوفاكيا نصيب كذلك كمحطات ترانزيت قبل الانتقال لدول المهجر الجديد!

وحتى يشـــهد التاريخ بمختلف تسطيراته على تلك المأساة اســـتقبلت بلجيكا وإســـبانيا أعداداً أيضاً، واتســـعت الرقعة وترامت أطراف الخريطة، حتى أصبحت بلا حدود، وبناءً على ذلك يعجز القلم عن تخطيطها وتلوينها بل حتى الإشارة إليها.

إن أخطـــر ما في هذا التشـــرذم، هـــو ضعف الأواصر الأُسَرية، وتكسُّر الروابط العائلية والاجتماعية، واندثار كثير مـــن التقاليد والأعـــراف والأخلاق والعـــادات، في ظل هذا الشتات المميت المقيت، وتلك هي النكبة التي فاقت نكبة الآباء والأجداد عند اقتلاعهم من أرضهم الحبيبة فلسطين!

مرصد الأخبار

جـــلال ســـعـــد الـــشـــايـــب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

النيابة المصرية: مبارك خرب حياة المصريين لأجل نجله

قال المستشار مصطفى سليمان (ممثل النيابة في محاكمة الرئيس المخلوع ومعاونيه): إن المتهم الأول حسني مبارك صنع نظاماً فاسداً دمر الحياة السياسية، وكرَّس جميع جهوده في العقد الأخير من ولايته لإتمام مشروع توريث نجله، وترك الفساد ينتشـــر في ربوع الوطن بدون محاسبة، وزوَّر الانتخابات البرلمانية والمحلية وأطاح بكل من يتمتع بقدرة شعبية وذهبت النزاهة والشفافية عندما فضل المتهم ولايته الشخصية على المصلحة العامة.

وطالب ممثل النيابة في مرافعته – التي أبكت جميع الحاضرين – باســـتعادة الكرامة والعدالة الاجتماعية التي ســـلبها نظام قمعي مســـتبد، تعامل مع أبناء الوطن بقلب قاسٍ مثل الحجارة؛ وذلك لمحاولة الرئيس الســـابق الحفاظ على ســـلطانه وعدم زوال عرشه، وأننا جئنا أمام المحكمة لنضع بين يديها الماضي والحاضر والمســـتقبل في ظل الظروف التي نعيشـــها، نتيجة الانفلات الأمني والغياب الواضح للمؤسسات الشُّرَطية، وقال: إن هذه المحكمة مستقبل مصر وتكون عبرة لمن يتقلد موازين الحكم بعد ذلك. [جريدة الأهرام المصرية ٢٠١٢/١/٣م]

ندوة عالمية تطالب بتفعيل إدانة العنصرية الإسرائيلية

خرج المشـــاركون في نـــدوةٍ عُقدت بالعاصمـــة الألمانية برلين بضرورة المطالبـــة بتفعيل قرارات محكمة راســـل بجنوب إفريقيا المنددة بالممارسات العنصرية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، ودعوة لجنة مناهضة التمييز العنصري بالأمم المتحدة لاســـتخدام (٥٣) قانوناً لديها لمواجهة سياســـات الاحتلال الإسرائيلي التي لا تحترم القانون الدولي.

وناقشـــت الندوة الجولةَ الثالثة لمحكمة راسل الشعبية العالمية، التـــي عُقدت بمدينـــة الكاب في جنوب إفريقيـــا في الخامس من نوفمبر الماضـــي، والتي أفضت إلى اتهام إســـرائيل بتطبيق نظام فصل عنصري على الشعب الفلسطيني واضطهاده بشكل جماعي، وهو ما يشكل جريمة ضد الإنسانية.

كما يذكر أيضاً أن تأسيس محكمة راسل لفلسطين جاء بعد الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة نهاية عام ٢٠٠٩م، وقالت: إن هذه المحكمة عقدت جولتين ببرشلونة ولندن في مارس وأكتوبر عام ٢٠١٠م، وجولتها الثالثة في جنوب إفريقيا كانت في نوفمبر الماضي، ومن المقرر أن تعقد جولتها الرابعة في سبتمبر القادم في نيويورك.

[مواقع ٢٠١١/١٢/١٦م]

معدات عسكرية من العراق إلى مخازن الجيش الإسرائيلي

كشـــفت صحيفة يديعـــوت أحرونـــوت أن الجيش الأمريكي ســـيوقِّع قريباً علـــى صفقة كبيرة مع الجيش الإسرائيلي يتم بموجبها تزويد الأخير بمعدات وسيارات جيـــب من طـــراز «هامر» وشـــاحنات وغيرهـــا، التي استعملها الجيش الأمريكي في العراق وأفغانستان.

وكان مســـؤولون رفيعو المســـتوى في قيادة الأركان الإسرائيلية قد خرجوا للولايات المتحدة لإكمال تفاصيل الصفقة، بعـــد إكمال الجيش الأمريكي انســـحابه من العـــراق نهاية العام الماضي وقلص بشـــكل كبير وجوده في أفغانستان.

وأوضحـــت مصادر أمنية إســـرائيلية أنه من ناحية التكلفـــة فإن الحديث يدور عن صفقة جديرة بالاهتمام بالنســـبة للجيش الإســـرائيلي؛ لأن معظـــم الدفعات ســـتكون من أموال المســـاعدات الأمريكيـــة، وإذا تمت الصفقة فســـتصل جيبات الهامر إلى إســـرائيل وسيتم تخزين غالبيتها في مخازن الطـــوارئ التابعة للجيش.

[مركز عكا للدراسات ٢٠١٢/١/١٠م]

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

مرصد الأخبار

تباين إسلاميي مصر حول كامب ديفيد

نفى إبراهيم منير قيادي العضو بمكتب إرشـــاد جماعة الإخوان المســـلمين بمصر؛ أن تكون الجماعة قدمت أي ضمانات لواشنطن بشأن احترام اتفاقية كامب ديفيد للسلام مع إسرائيل، مؤكدا على انها ستعرض القضية على الشعب المصري في استفتاء ليقرر موقفه منها بنفسه.

وذلك ردا على ما ذكرته فيكتوريا نولاند، المتحدثة باسم الخارجية الأميركية «أن الإخوان في مصر قدموا للولايات المتحدة ضمانات تقضي باحترام اتفاقية السلام مع إسرائيل، مشيرة إلى أنهم قطعوا تعهدا بذلك».

وفي المقابل أكد حزب النور السلفي رسميا أنه لن يعمل على إلغاء الاتفاقية، مُشيراً إلى أنه سيكافح جاهداً على تعديل «بنودها الجائرة» بكافة السبل المشروعة، مشددا على الوقوف «بقوة ضد محاولات التطبيع والحوار بكافة صوره، وضد إقامة علاقات حزبية أو شعبية مع كيان يريد طمس هويتنا، فضلا عن احتلاله لأرضنا، ومحاصرته لإخواننا، ودعمه لجلادينا حتى آخر نفس».

ويذكر أنه وفي أول تعليق له على هذا الأمر؛ قال رئيس الوزراء الإســـرائيلي بنيامين نتنياهو «نأمل أن تعترف أي حكومة قادمة في مصر بأهمية الحفاظ على معاهد السلام مع إسرائيل كما هي، وكأساس للأمن الإقليمي والاستقرار الاقتصادي».

[شبكة رصد ومواقع إخبارية ٢٠١٢/١/٦م]

علامة تعجب

(القتل والدمار) هو أعظم إرث تركه الأمريكيون في العراق!

اعترف الجنرال فرانك هيلميك (نائب قائد القوات الأمريكية في العراق) بأن العراق لا يزال ضعيفاً، وأكد أن العراقيين يعرفون أن لديهم فجوة كبيرة في القدرة على الدفاع عن مجالهم الجوي، وهذا أمر يرجع إليهم.

كما أكد أنه لا تزال هناك بعض الثغرات الأمنية مثل سيادة العراقيين على أجوائهم، وقدراتهم على الدفاع الجوي، وحماية منصات النفط، والقدرة على القيام بعمليات مسلحة مشتركة للدفاع الخارجي، وتنسيق عمل قوات المشاة والدروع والمدفعية.. مشيراً أنهم لم يصلوا بعد إلى تلك القدرات.

وعن عمل القوات الأمريكية طيلة الســـنوات الثماني الماضية، قال هيمليك: إذا كان لي تحديد ما هو أعظم إرث تركناه، فإنه ســـيكون: مفاهيم الثقة، والمهنية وروح العمل الجماعي التي كانت تغرس داخل قوات الأمن العراقية، وكذلك الصداقات والعلاقات التي أقمناها معهم.

[شبكة CNN الإخبارية ٢٠١٢/١/٧م]

سيلفاكير: شعرت بسعادة غامرة لوجودي بأرض الميعاد!

نقل مراسلون عن سيلفاكير أنه «شعر بسعادة غامرة» عندما وطأت قدماه ما أســـماها بأرض الميعاد؛ وذلك في إشارة لـ (إســـرائيل) التي وصلها مؤخراً برفقة وفد يضم وزير الخارجية والدفاع والأمن القومي لدولة جنوب الســـودان، ورئيس غرفة الصناعة والتجارة.

وقد أجرى رئيس دولة جنوب السودان (سيلفاكير ميارديت) مباحثات مع الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز في مقر إقامته بالقدس الغربية، وذلك ضمن زيارة مفاجئة وُصِفَت بالتاريخية يقوم بها سيلفاكير لأول مرة إلى (إسرائيل).

وفي الوقت نفســـه أكد بيريز عقب اللقاء الذي جمعه بسيلفاكير على أن إســـرائيل مستعدة لتقديم الدعم لدولة جنوب السودان على كافة الأصعدة، واصفاً زيارة سيلفاكير بأنها تاريخية بكل المقاييس.

[الجزيرة ووكالات ٢٠١١/١٢/٢٠م]

ذكر مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية في الأراضي الفلسطينية المحتلة «أوتشا» أن سلطات الاحتلال الصهيوني تحظر على نحو ٣,٧ مليون مواطن فلسطيني دخول مدينة القدس.

وجاء في التقرير: أن نحو ٢٧٠ ألف فلسطيني يعيشون في «القدس الشرقية»، بينهم ٥٥ ألفاً معزولون مادياً عن المركز الحضري بواسطة الجدار المحيط بالمدينة، فضلاً عن حوالي ٢٠٠ ألف مستوطن يهودي يقطنون المستوطنات المقامة على أراضي القرى والبلدات الفلسطينية الواقعة شرقي القدس.

وأضاف أنه تمَّت مصادرة ٣٥٪ من أراضي القدس الشرقية لصالح مشاريع توسعة المستوطنات اليهودية، وأن ما لا يَقِل عن ٣٢٪ من منازل الفلسطينيين غير حاصلة على تراخيص بناء «إسرائيلية» يصعب الحصول عليها، وهو الأمر الذي يعرِّض ما لا يقل عن ٨٦,٥ ألف فلسطيني لخطر التهجير.

[موقع فلسطينيو الـ ١٩٤٨، ٢٠١١/١٢/٠٦م]

جاء في تقرير نشرته منظمة (Iraq Body Count) غير الحكومية: أن ٤٠٩٥ مدنياً قُتِلُوا جراء أعمال العنف في عام ٢٠١١م مقارنة بـ ٣٩٧٦ في عام ٢٠١٠م.

وبذلك يرتفع عدد المدنيين الذين قُتِلُوا جراء أعمال العنف في العراق منذ الغزو والاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣م إلى أكثر من ١٤٤ ألف قتيل.

ويذكر أن الحكومة العراقية كانت قد أعلنت أن عدد القتلى المدنيين في عام ٢٠١١م بلغ ١٥٧٨ حسب إحصاءات وزارة الصحة. [شبكة BBC الإخبارية ٢٠١٢/١/٢م]

كشف رئيس الحكومة الإيطالية الجديدة (ماريو مونتي) عن خطة تقشُّف تصل قيمتها إلى ٣٠ مليار يورو؛ أي حوالي ٤١ مليار دولار، في شكل ضرائب جديدة، وتخفيض الإنفاق على مدى عامين، وتتضمن أيضاً إصلاح نظام المعاشات، في خطوة تهدف إلى إنهاء الأزمة المالية التي تجتاح عدداً من دول منطقة اليورو.

[شبكة CNN الإخبارية ٢٠١١/١٢/١٤م]

أعلن إسماعيل محفوظ وكيل وزارة المالية في حكومة حماس أن إجمالي الموازنة العامة لعام ٢٠١٢م بلغ حوالي ٧٦٩ مليون دولار، بزيادة نحو ١٤٠ مليون دولار عن ميزانية العام الذي سبقه، وذلك مقابل ٦٣٠ مليون دولار في موازنة عام ٢٠١١م».

وأوضح أنه خصص من الموازنة «مبلغ ٤٠٥ ملايين دولار للرواتب مقابل ٢٩٨ مليون في موازنة العام الماضي».

[جريدة الشروق ٢٠١١/١٢/٦م]

قالت منظمة «صحفيون بلا حدود» التي تتخذ من باريس مقراً لها: إن ٦٦ صحفياً قتلوا في أنحاء العالم في عام ٢٠١١م، وإن كثيرين منهم قتلوا أثناء قيامهم بتغطية الثورات العربية أو خلال عنف عصابات الجريمة في المكسيك أو الاضطرابات السياسية في باكستان.

[موقع دويتشة فيله الألماني ٢٠١١/١٢/٢٢م]

قام موقع «اليوم السابع» باستطلاع آراء قرَّائه حول التفكير في إصدار مشروع قانون لاستثناء أعضاء المجلس العسكري من المساءلة في سؤال بعنوان: هل تؤيد مشروع قانون استثناء أعضاء المجلس العسكري من المساءلة؟ وجاءت النتيجة كالتالي: ٥٣,٣١٪ من القراء أجابوا بـ «لا»، في حين أجاب ٤٥,٦٨٪ منهم بـ «نعم»، في حين لم يهتم ١,٠١٪ من المشاركين. [موقع اليوم السابع ٢٠١٢/١/٨م]

ذكرت كتائب الشهيد عز الدين القسام (الجناح العسكري لحركة حماس) في إحصائية رسمية أصدرها المكتب الإعلامي لكتائب القسام بمناسبة الذكرى السنوية الـ ٢٤ لانطلاقة حركة حماس، ذكرت أن حصيلة العمليات الجهادية التي قامت بها منذ الانطلاقة المباركة هي (١١١٧)، منها (٨٧) عملية استشهادية، وأنها استهدفت الكيان الصهيوني بـ (١١٠٩٣) صاروخاً وقذيفة.

وكشفت أن مجمل قتلى وجرحى العدو برصاص القسام بلغ (٧٧٧٦) صهيونيّاً، بينهم (١٣٦٥) قتيلاً و (٦٤١١) جريحاً، ونفذت (٢٤) عملية أسر لجنود صهاينة منذ الانطلاقة المباركة لحركة «حماس». [المركز الفلسطيني للإعلام ٢٠١١/١٢/١٤م]

بعثة المراقبين العرب لسورية في عناوين الأخبار:

٢٠١١/١١/٢٤م الجامعة العربية تمهل دمشق حتى ظهر الجمعة لتوقيع بروتوكول المراقبين.

١١/٢٥ سورية توافق على توقيع البروتوكول العربي لاستقبال مراقبين.

١١/٢٦ مهلة عربية أخرى تنتهي دون ردٍّ سوري.

١١/٢٨ العرب يعيدون النظر في معاقبة الحكومة السورية إذا وقعت بروتوكول المراقبين.

١٢/٢ الجامعة العربية تمهل سورية حتى الأحد لتوقيع بروتوكول بعثة المراقبين.

١٢/٥ دمشق تردُّ (بإيجابية) على بروتوكول الجامعة العربية لنشر المراقبين.

١٢/٦ سورية تشترط لاستقبال مراقبين.

١٢/٧ العربي يلمِّح لرفع العقوبات المفروضة على سورية بعد توقيع بروتوكول المراقبين.

١٢/١٤ العربي ينفي التصريحات المنسوبة إليه حول فرض الحظر الجوي على سورية.

١٢/١٧ تأجيل اجتماع وزراء الخارجية العرب والاكتفاء باللجنة الوزارية في الدوحة لبحث أزمة سورية.

١٢/١٨ سورية توقِّع رسمياً على بروتوكول الجامعة العربية لإرسال مراقبين.

١٢/٢٠ العربي يتوقع وصول بعثة المراقبين إلى سورية خلال ١٠ أيام.

١٢/٢٠ الخارجية الروسية ترحب بتوقيع سورية برتوكول (بعثة مراقبي) الجامعة العربية.

١٢/١٢ شخصية عسكرية سودانية ترأس بعثة المراقبين إلى سورية.

١٢/٢١ معارضة الداخل ترحب بتوقيع دمشق على بروتوكول بعثة المراقبين وتحذِّر من عرقلة عملها.

١٢/٢٢ رئيس بعثة المراقبين: مهمتنا في سورية ليست قتالية.

١٢/٢٣ غرفة عمليات للبعثة العربية بسورية.

١٢/٢٤ خمسة عشر قتيلاً ودعوة المراقبين لزيارة حمص.

١٢/٢٥ بعثة المراقبين لسورية ماضية بدورها.

١٢/٢٥ دعوة مراقبي الجامعة العربية للتوجه إلى حمص لتوثيق الانتهاكات.

١٢/٢٥ العربي يدين التفجيرين الإرهابيين في دمشق، ويؤكد أنهما لن يعيقا عمل بعثة المراقبين.

١٢/٢٦ بعثة المراقبين تصل إلى سورية الإثنين.

١٢/٢٧ بعثة المراقبين تزور (حمص) الثلاثاء.

١٢/٢٧ مصادر في (المجلس الوطني) تتهم الجامعة العربية بالانحياز للنظام السوري.

١٢/٢٧ رئيس بعثة المراقبين العرب: الوضع في حمص مطمئن حتى الآن.

١٢/٢٨ قتلى بسورية والمراقبة توسِّع عملها.

١٢/٢٨ تسعة عشر قتيلاً والمراقبون يغادرون حمص.

١٢/٢٩ ثمانية وعشرون قتيلاً، وبعثة المراقبين تتجه إلى حماة.

١٢/٢٩ رئيس بعثة المراقبة في سورية: لم يكن هناك شيء مخيف في حمص.

١٢/٢٩ رؤية بعثة المراقبة العربية لحمص السورية تغضب كثيراً من سكانها.

١٢/٢٩ اجتماع طارئ لـ (المجلس الوطني السوري) واتهامات خطيرة لوفد الجامعة.

١٢/٣١ رئيس البرلمان العربي يدعو الجامعة العربية إلى سحب بعثة المراقبين من سورية فوراً.

٢٠١٢/١/١ دعوة لاستبدال رئيس وفد العرب بسورية.

١/١ نبيل العربي: نرحب بتصريحات الدقباسي حول سحب المراقبين العرب من سورية.

١/١ الإندبندنت تفضح تلاعب دمشق بالمراقبين العرب.

١/٢ وفد (المقدمة) من المراقبين العرب يعود إلى القاهرة بعد إتمام عمله.

١/٢ نبيل العربي يؤكد انسحاب الجيش السوري من المدن.

١/٢ رئيس بعثة المراقبين في إدلب: لا وجود لمظاهر مسلحة في المدينة... ويصفها بـ (الميتة).

١/٣ فرنسا (تُشكك) في نجاح بعثة المراقبين إلى سورية.

١/٣ المعارضة السورية بالقاهرة تطالب بسحب مراقبي جامعة الدول العربية.

١/٣ أمريكا: سورية لم تفِ بالتزاماتها للجامعة العربية.

١/٤ انتقادات لمراقبي الجامعة العربية لعدم إحراز تقدم في سورية.

١/٥ دمشق ترفض انتقاد واشنطن بشأن المراقبين.

١/٥ قطر تُقر بأخطاء بعثة المراقبين بسورية.

١/٥ الجامعة العربية: بعثة المراقبين مستمرة في مهمتها بسورية.

١/٧ ابن جاسم: عمل البعثة انحرف عن هدفه.

١/٧ فاينانشيال تايمز: دور الجامعة العربية إزاء ما يحدث في سورية قيد المساءلة.

١/٧ انتقادات للمراقبين قبيل مناقشة تقريرهم.

١/٧ الدابي بالقاهرة لتقديم تقريره بشأن سورية.

١/٨ اللجنة الوزارية المعنية بسورية تجتمع اليوم لبحث أول تقرير لبعثة المراقبين.

الأقلية المسلمة في موزمبيق

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

تقع جمهورية موزمبيق على الشواطئ الشرقية لجنوب إفريقيا. يحدها المحيط الهندي شرقاً، وتنزانيا ومالاوي وزامبيا شمالاً، وزيمبابوي وجنوب إفريقيا غرباً وسوازيلاند جنوباً. العاصمة مابوتو وعدد السكان ٢٠ مليون نسمة.

الجماعات الإثنية: الماكوا والتوسونجا والماكوندي والشانجوان والشونا والنداو.

الأديان: مسيحيون (٣٠ ٪)، مسلمون (١٧ ٪)، معتقدات تقليدية (٤٥ ٪).

اللغات: البرتغالية (لغة رسمية) مع وجود عدة لغات محلية

يتمركز المسلمون في الولايات الشمالية، (تمبولا، وزمبزيا، ونياسا)، ويعملون بالزراعة (جوز الهند والقطن والسكر) وصيد الأسماك والتعدين في مناجم الفحم والذهب والماس والمنغنيز واليورانيوم.

كان وصول الإسلام إلى موزمبيق مرتبط بوصوله إلى شرقي إفريقيا، فلقد ازدهرت التجارة بين العرب وشرقي إفريقيا، وحدثت هجرات عربية إلى المدن الساحلية على طول الساحل الإفريقي، فكان للمسلمين نقاط ارتكاز على الساحل الشرقي للقارة الإفريقية، وعرف المسلمون هذه المنطقة بجزيرة موسى السمبيق، وزادت الهجرات الإسلامية إلى بر الزنج، ونشط المهاجرون المسلمون في تشييد المدن الساحلية. ولم يكد القرن السابع الهجري ينتصف حتى كانت المدن الإسلامية قد انتشرت على طول الساحل الشرقي لإفريقيا من سواكن في الشمال حتى موزمبيق في الجنوب.

يتلخص تاريخ انتشار الإسلام في موزمبيق في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بدأت من انتشار الإسلام في موزمبيق بتأسيس المسلمين لمدينتي موزمبيق وسفالة، وكانت سلطنة كلوة الإسلامية صاحبة نفوذ على هذه المدن الإسلامية، وهكذا كان نفوذ بني نبهان أصحاب السيادة على سواحل شرقي إفريقيا طيلة القرنين السادس والسابع الهجريين.

المرحلة الثانية: بدأت بظهور البرتغاليين أمام سواحل شرقي إفريقيا، فشنوا بتعصبهم الصليبي حرباً ضد الإمارات والمدن الإسلامية. ودمروا مدينة كلوة ومساجدها الثلاثمائة، ومدن لامو، وباتي. واستمر الصراع قرابة قرنين. واستطاع العمَّانيون وقف التقدم البرتغالي؛ بل أنهوا نفوذ البرتغال في معظم سواحل شرقي إفريقيا، وأسس أحمد بن سعيد سلطنة عمانية ضمت معظم شرقي إفريقيا؛ إلا إن البرتغاليين تمسكوا بموزمبيق، ودام احتلالهم من القرن العاشر الهجري حتى الاستقلال في سنة ١٣٩٥هـ.

المرحلة الثالثة: بدأت هذه المرحلة مع استقلال موزمبيق بعد احتلال طال أمده، وتمثَّل في صراع المسلمين مع الأنظمة الاستبدادية الشيوعية التي حكمت البلاد منذ تاريخ الاستقلال واضطهدت المسلمين وعاملتهم معاملة مواطنين من الدرجة الثالثة.

مشكلات المسلمين:

- الفقر والتخلف نظراً لعدم اهتمام الحكومة بهم، فلا يوظفون في وظائف الدولة، ولا يحصلون على المميزات التي يحصل عليها غيرهم من باقي الديانات.
- نقص المدارس العامة والمدرسين في جمع المراحل التعليمية، والذين يتخرجون على قلتهم يعانون من عدم وجود فرص مناسبة لإكمال التعليم والاستمرار فيه، وهو ما يعني قلة الخريجين من المسلمين الحاصلين على مؤهل عالٍ.
- المستشفيات قليلة جداً، والكثير من السكان يعتمد على الوصفات الشعبية لعدم قدرته على الذهاب إلى المستشفيات.
- المساجد بسيطة متواضعة، ألحقت بها مدارس يدرس الدين الإسلامي بها معلمون غير مؤهلين لذلك، ويتلقون أجوراً زهيدة.

متطلبات العمل الإسلامي في موزمبيق:

١ – تشكيل هيئات إسلامية في مناطق تجمعات المسلمين.

٢ – إنشاء معهد لإعداد المدرسين والدعاة.

٣ – تأمين الاحتياجات المادية للدعاة والمدرسين وتأمين الكتاب المدرسي باللغة البرتغالية.

٤ – تأمين الكتب الدينية، وترجمة معاني القرآن الكريم باللغة البرتغالية.

٦ – العناية بالمدارس القرآنية.

٧ – مشروع للتعليم المتوسط العالي والمهني.

٨ – مِنَح دراسية بالجامعات الإسلامية لأبناء المسلمين.

المصادر والمراجع:

- موقع الإسلام الدعوي.
- موقع منارات إفريقية.
- Fact book.
- د. محمد عاشور، دليل الدول الإفريقية، معهد البحوث الإفريقية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٦٣٧.

الانتقام

جميلة بحـــر

كان يسير في شرود وسط الزحام، هذه هي المرة الأولى التي لم يتضجر فيها ولم يكيلَ سيلَ السباب واللعن... كانت عيناه شاخصتان نحو القمة، الكلمة التي ألهبت وجدانه ورسمت خطاه، وبسطت له كل عقبة، وسهلت له كل صعب... فجأة مرَّ شيء في مخيلته، قطَّبَ جبينه، توقف، تصبب عرقاً، انكمشت يده أكثر ثم عاد يبسطها، تأمل ما في يده، تحركت شفتاه: نعم، لقد حانت لحظة الانتقام. نظر مرة أخرى، ثم جالت عيناه المجهدتان في السماء، فبرق الدمع على صفحتيهما، ضم يده إلى صدره يحاول جاهداً الحدَّ من تسارُع نبضات قلبه، فجادت سحائب عينيه وانهمر الدمع مدراراً!

إنها المرة الأُولى التي لم يخجل فيها من دمع عينيه، ربما لم يطق ما يعتمل داخله! ربما لأن الكون اكتظ بالقادمين والذاهبين، ولا أحد يكترث به! أو ربما هناك من يشاطره الدمع بين هذه الجموع! لكن دموعه تختلف! جلس تحت شجيرة على كومة من التراب، وعاد يتفحص ما في يديه، عبس وأدار شريط حياته، وأخذ يتساءل: أليس هو من أحاط حياتي بسديم التيه، وصبغها بالعتمة والظلام؟ هو من قادني في رحلة بلا وطن، فلا أرى إلا ما يراه! ولا أعقل إلا ما يشير! اشتد حَنَقَه فرفع يده وقال: هل تكفي هذه لتروي صحارى روحي، تذيب الجليد من قلبي، وتسدل الستار على... لم يستطع المتابعة. انتابته غصة، فطأطأ رأسه في خزي من صفحاته الماضية.

مالت الشمس للمغيب، فماجت الدنيا حوله بالزحام. الوجوه كالحة لكن يشع منها النور... تهادت لمسامعه عبارات الرضا والقبول، فغاص في الألم أكثر وهمس: لا أحد يشعر بهذا البركان داخلي، باللهيب يحرقني، إنهم لا يذوقون المرارة التي أتجرعها، لم يشهدوا كيف يُقتل المرء في اللحظة ألف مرة! أغمض عيني محدثاً نفسه: السعادة في الوصول للقمة مهما يكن الثمن، مهما بلغت التضحية – هذه كلماته – صَم بها آذناي، آه هل للطريق من عودة فأرتمي في أحضان أمي. أعود صغيراً بين ذراعيها، ألثم جبهة أبي، أعيش لحظات الأخوة، أضُم أبنائي وأقبِّل أعينهم البريئة؟

تساقطت الدمعات مع ذكريات السقوط والانحدار، مسح عينيه بظاهر كفيه يحاول جاهداً أن يجد إجابة لحيرته: لماذا الآن يكبلني التردد؟ أليس هو محرك تعاستي؟ كم يكفي من الطلقات والرشقات لأرديه صريعاً؟ عندها أتخلص من نديم الهوى، وقرين الشر والظلال...

آذنت الشمس بالمغيب، أدرك حينها أن الزمن لا ينتظر فعليه أن يتعلق بخيوطها الذهبية قبل الأفول، لمعت عيناه ببريق جديد، وأخذ نَفَساً عميق ليحرر باقي أنفاسه من كل القيود السابقة، ويخلع عنه ثوب الوهن، فهب واقفاً، وخطى خطواته الواثقة في ما يريد... صعد الجبل الشامخ منذ الأزل نحو القمة.

هتف صوت بداخله: سبع حَصيَّات هي فيصل بين الحق والباطل، بين النور والظلام... من هنا سأقطع كلَّ وشائج وعلائق الهوى والعصيان... من هذه اللحظة لن يكون للشيطان إليَّ سبيل، لن اتخذه وكيلاً، ولن يعود ما دمت حياً خليلاً. حياتي من الآن وصاعداً: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وشعاري فيها: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. قدوتي محمد ﷺ وصحبتي هم المؤمنون، أخلائي هم الصالحون ودليلي فيها ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وغاية أملي رضا رب العالمين.

ماذا يقف خلف إعادة هيكلة الجيش الصهيوني من جديد؟

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

أثار قرار الجيش الإسرائيلي تشكيل قيادة العمق الجديدة جملةً من التساؤلات عن مبرراتها ومسوغاتها لأنها جاءت بشكل مفاجئ، وقد أقيمت للتنسيق والسيطرة على العمليات المشتركة بين الأذرع ذات المدى البعيد، طارحة كثيراً من علامات استهجان واستفهام؛ لماذا بالضبط الآن؟ وهل هناك اعتبارات غير مناسبة؟ وهو ما يتطلب الفصل بين الهدف من عمليات في العمق، وإقامة تنظيم جديد كقيادة خاصة؛ ولا سيما أن الجيش عمل في السنوات الأخيرة في مناطق بعيدة جداً.

كما أن أحد القواسم المشتركة بين العمليات بعيدة المدى، هو الدمج بين الأذرع للأجهزة الاستخبارية المختلفة (قوات جوية، وحدات بحرية، وحدات خاصة)، والقيادة والسيطرة في كل عملية على ما يبدو مختلفة؛ أحياناً تُلقَى على عاتق مواقع السيطرة التي تعمل في كل مجالات العمليات العسكرية، وأحياناً يتم تشكيل هيئة سيطرة مرتجلة، مذكراً بأنه في سنوات الثمانينيات من القرن الماضي عمل موقع السيطرة في العمليات الخاصة بشكل جارٍ.

بينما يمكن استخلاص الدرس الذي يمكن تلمُّسه من إعلان الجيش أنه يؤسس قيادة إستراتيجية للعمليات البعيدة داخل أرض العدو، وهو الإشارة إلى نوع الحرب التي تتوقع أن تواجهها «إسرائيل»، وأنها حرب طويلة وصعبة لا يمكن الانتصار فيها ببساطة عبر القتال عند الحدود، وهو ما يعني أن قيادة العمق ستشهد عمليات تنفذها القوات الخاصة في محاولة للسماح لكل وحدة بالاحتفاظ بقدراتها الفريدة، وفي الوقت نفسه ضرورة العمل ضمن تعاون أفضل مع منافسة أقل.

مع العلم أن تأسيس القيادة الجديدة كان قيد الدرس خلال العقد الماضي في الجيش، لكنه دُفِع على نحو متكرر إلى الواجهة جراء القضايا الملحَّة، وما تغير هو طبيعة التهديد الذي تواجهه «إسرائيل»، الذي يتطلب تنفيذ وحدات النخبة عمليات بعيدة عنها، وداخل عمق أرض العدو؛ بحيث تكون مهمة القيادة منقسمة لنوعين:

الأول: ستعمل مع القوات الخاصة، وفي الوقت نفسه تشرف على عملياتها السرية التي قد تكون ضد تهريب الأسلحة إلى حزب الله وحماس، أو مباشرة ضد إيران ومنشآتها النووية، مع العلم أن للقوات الخاصة بعض النجاحات المبهرة في السنوات الأخيرة، معظمها لا يمكن نشره؛ حيث برز شعور لدى هيئة الأركان العامة منذ حرب لبنان الثانية بأن الوحدات قادرة على فعل المزيد إذا ما عملت مع بعضها بعضاً، وإن حصل تعاون أفضل بين أفرعها الخاصة.

الثاني: سيكون الدور الثاني للقيادة هو الإشراف على العمليات العسكرية واسعة النطاق،

(*) كاتب فلسطيني.

التي تُنفَّذ في عمق أرض العدو، سواء في لبنان أو سورية، وبينما لكل جبهة قيادتها المسؤولة عنها، فإن القيادة الشمالية مخولة بالعمل لخط محدد في لبنان وسورية وليس أبعد من ذلك، وكذلك الوضع بالنسبة للقيادة الجنوبية في سيناء.

السيطرة المناطقية:

إن المشكلة أنه في أي حرب مستقبلية قد يتطلب الأمر بالنسبة للجيش – مع امتلاك حزب الله وحماس لصواريخ متوسطة وبعيدة المدى – أن يعمل في عمقه، وليس فقط في الجنوب كما فعل صيف ٢٠٠٦م؛ بحيث إذا اندلعت الحرب مع سورية، وأراد الجيش شنَّ عملية (جوية، برية، بحرية) مشتركة شمال دمشق، فستلعب القيادة الجديدة دوراً أساسياً في توجيه القوات، وهو ما يجعل مخاوف الجيش تسهم بشأن تغيرات إقليمية محتملة في سورية ومصر والعراق في قرار تأسيس القيادة الجديدة، ناقلاً عن أحد الضباط رفيعي المستوى قوله: نبني القدرات لتقديم الحلول في أوضاع مضطربة.

وستستطيع القيادة الجديدة المساعدة في المستقبل بتشغيل قوات خاصة بالشأن الإيراني، ويفترض أن تخطِّط وتقود عمليات في المناطق الموجودة بعيداً وراء الحدود، متعلقة بالمعركة السرية التي تدار ضد المنظمات المسلحة، وبشكل غير مباشر ضد إيران، في الفترة الممتدة بين الحروب من الممكن التفكير – على سبيل المثال – بالعمليات التي تُنسَب لـ «إسرائيل» كهجمات سلاح الجو، وتشغيل مقاتلي الوحدات الخاصة في السودان، أو اغتيال الجنرال السوري في بيته.

وقد أعطى رئيس الأركان «بيني غانتس» تعليمات للقيادة الجديدة لفحص التطورات والتغييرات الإستراتيجية في المنطقة، والتأكد إن كان يتطلب تغييراً في استعدادات الجيش؛ حيث شخصت الحاجة لقيادة بين الأذرع تهتم بعملياتٍ مشتركة في العمق، بين الحروب وبالتأكيد خلالها، تُمارَس ضد «إسرائيل» قوة أساسها في المناطق البعيدة عن حدودها، والمواجهة ليست طولية؛ فيلق مدرعات يتقدم في الجولان باتجاه دمشق، على سبيل المثال، وإنما متزامنة، في حين أن العمق – على سبيل المثال – فيه قواعد إطلاق قذائف صاروخية، متورط طيلة الوقت في القتال، ويتطلب اهتماماً خاصاً.

هذا التشكيل الجديد للقيادة العسكرية، يشير بصورة واضحة إلى أن الصهاينة لا يهدؤون، وهذا هو حالهم على المستويين الأمني والعسكري، وتهديدات بكل اتجاه لشن حملة عسكرية لاستعادة قوة الردع التي تلاشت، ولكن في المقابل هناك تخوفات صهيونية من أن صواريخ المقاومة ستصل «تل أبيب»، وسيكون على السكان النزول إلى الملاجئ في أي عملية عسكرية؛ حيث زعم رئيس هيئة الأركان العامة «بيني غانتس»، أن ما وصفها بـ «قوة الردع الكبيرة» التي حصل عليها الجيش جراء عملية الرصاص المصبوب، باتت متحققة، ولذلك من حين لآخر نقوم بالتعامل مع إطلاق للصواريخ من قطاع غزة، ونحن واعون أن مسارات التعاظم تتواصل من الأنفاق؛ لذلك لن نقدر على مواصلة العيش تحت تهديد متواصل وناشط لحركة حماس في غزة.

من جهة ثانية أكد «شاؤول موفاز» (رئيس هيئة أركان الجيش الأسبق، ورئيس لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست) أنه «لا بد من العمل بحزم ضد المسلحين في غزة، ويجب الإضرار بها بشكل رادع وأكثر قسوة، مثنياً على ما يقوم به الجيش من هجمات دورية، مشدداً على ضرورة أن يكون هناك رد أكثر شمولية ضد رؤساء هذه المنظمات ومنفذي التفجيرات».

وقال قائد قيادة اللواء الجنوبي التابع لفرقة غزة العسكرية «تال روسو»: «إن الجيش مستعد وجاهز لتنفيذ عملية عسكرية ثانية ضد غزة، رغم أن المنطقة اليوم بصورة نسبية أكثر هدوءاً، والطرف الثاني يرد بطريقة مدروسة، لكن إذا اتسعت ما وصفتها بـ «الشقوق» في جسم التهدئة، فإننا سننفذ عملية عسكرية مختلفة عن الرصاص المصبوب ومتنوعة بهدف تجديد قوة الردع، وهو ما يعني أن عملية غزة القادمة ستكون أقصر من سابقتها، لكنها ستستخدم قوة عسكرية أكبر بكثير».

ولذلك أوضحت أوساط عسكرية أنه في حال الخروج إلى عملية عسكرية واسعة ضد حماس في غزة، فإن الأخيرة لن تجد بدّاً من تهديد مدينة «تل أبيب» والمدن المجاورة لها بإطلاق الصواريخ، وهو ما سيدفع لاتخاذ قرار بوضع سكانها في الملاجئ، وهو أمر غير مسبوق في تاريخ مواجهاتها العسكرية.

القطيع (*)

محمود حسين عيسى

ما إن شاهد الأسد ثورين وعجلاً صغيراً يتهادون نحوه، حتى افترش الأرض ومد قائمتيه الأماميتين، وثنى قدميه تحته متخذاً من أعواد الحطب اليابسة ساتراً يحجزه عن عيون الفرائس القادمة على غير موعد، وسرعان ما تبعته أنثاه وثلاثة أشبال كانوا خلفها.

التفت الأسد إلى أنثاه هامساً: انتبهي إلى أشبالك كي لا يتحرك أحدهم فيلفت انتباه الفرائس فتشعر بوجودنا وتهرب.

طمأنته بصوت حازم هامس: لا تخف، فأنت قد دربتها كثيراً على مثل هذه الظروف التي لا تحتمل الخطأ.

- ولكني أخشى أن ترانا قبل أن نهجم عليها؛ فأعواد الحطب - كما ترين - قصيرة ومتباعدة بعضها عن بعض.

- لا تخشَ من شيء؛ فالفرائس لا تنظر أمامها، أمعن النظر إليها فهي تتبختر في مشيتها، وتناست أنها تسير في الغابة. بل والأعجب أنها لا تأبه لوجود الأسد وأتباعه.

عاجلها بنظرة تطايرت منها سهام الحزم فرشقت رأسها، وأومأ لها برأسه في إشارة إلى الفرائس التي اقتربت كثيراً من الكمين.

نظرت إلى أشبالها واطمأنت على التزامهم الهدوء.

- رمش الأسد وتساءل باضطراب ولهفة: لماذا توقفت الثيران؟

أردف: إنها تنظر إلينا... لقد اكتشفت الكمين... إنها تستدير... تهرب.

زأر الأسد وصرخ: هجوم... هجوم...

جرى الأسد في اتجاه الثور الأكبر، وجرت أنثاه باتجاه الثور الثاني، وطارد الأشبال العجل الصغير. واستمرت المطاردة فلم تفلح مطاردة الأسد وكذلك أنثاه في اللحاق بالثورين وعادا أدراجهما يجران خزي الهزيمة وعارها، ولسان حال الأسد ينطق: كيف يدخل الأسد وأنثاه معركة ويخرجان منها مهزومين؟

نظرت إليه أنثاه وقد قرأت ما قاله في عينيه، وأجابته بصوت ملؤه الأمل: أشبالنا بالتأكيد انتصرت؛ فأنا أرى غباراً كثيفاً يأتي من قبلهم! وأسمع زئير النصر ينطلق من حناجرهم، هيا أسرع لتحتفل بنصر أشبالك.

انطلق الأسد وأنثاه نحو أشبالهما، وما إن رأيا أشبالهما وهي تتعاون في إخراج العجل من النهر الصغير الذي يشطر الغابة ويبث فيها الحياة حتى فرحا بالانتصار، وفرحا بروح التعاون العالية، التي وجداها في الظفر بالفريسة.

قال الأسد: انظري كيف يقضم الشبلان الواقفان على شط النهر بأنيابهما رقبة العجل الصغير ويحاولان جرّه إلى خارج النهر.

أجابته أنثاه بفخر: بل انظر إلى شبلنا الذي ألقى بنفسه في النهر ليرفع العجل الصغير غير عابئ بمقاومته الشديدة.

ثمة لحظات كان العجل الصغير بعدها خارج النهر، ولكنه ما زال يقاوم.

(*) مستوحاة من مقطع فيديو بُثَّ على الإنترنت.

هنَّأت الأم أشبالها، ونظرت إلى الأسد منتظرة أن يبدأ بالتهام ما يشاء من الفريسة، فهي تحافظ على النظام؛ الأسد يأكل حتى التخمة ثم تأكل هي ويتبعها الأشبال.

وما إن همَّ الأسد بغرس أنيابه في جسد العجل الصغير الممد على الأرض، والمكبل بأنياب الأشبال حتى صرخت الأنثى من هول ما رأت! انتبه الأسد لصرختها التي أزعجته، فوجه لها نظرات تطاير منها الشرر صائحاً: ماذا دهاك؟

قالت له بصوت مرتجف بعد أن ملأ الرعب قلبها: انظر خلفك؟

وما أن استدار حتى أخذته المفاجأة التي أنسته من هولها شهوة بطنه! تساءل بصوت خافت سمعته أنثاه: ماذا أرى؟

قالت أنثاه في عجب متسائلة: هذا شيء لا يمكن تصديقه! في أي زمن نعيش؟ متى كانت الفرائس تتجمع بهذا العدد الكثيف وتأتي إلى حيث نكون؟

وقف الأسد رافعاً رأسه إلى أعلى في استكبار معتاد، ووقفت خلفه أنثاه. وما زالت الأشبال تكبل العجل الصغير بأسنانها وأنيابها الحادة، وما زال العجل الصغير يقاوم.

قالت الأنثى للأسد بحدة: ما لك لا تزأر؟ ازأر كي يتملك الخوف قلوبها فتنصرف خائبة، بل هاربة طالبة الحماية... ولا حماية لهم منك اليوم.

أجابها الأسد رافضاً رأيها: اصمتي... دعيني أسمع ما يتهامسون به.

قالت أم العجل الصغير لقائد القطيع - وهي منفطرة بالبكاء -: لا بد - يا قائدنا - أن تنقذ ابني مهما كان الثمن.

قال صوت خفي من الخلف: لا، يا قائدنا! كفى بنا أن أتينا إلى هنا فهذا إنجاز كبير أن يرانا الأسد واقفين هكذا؛ فقد يوحي له موقفنا هذا بأن لا يهجم على أحدنا بعد اليوم.

قال صوت جهوري: لا، يا قائدنا! لا بد لنا من إثبات موقف أشد؛ علينا أن نعلي أصواتنا ونحرك أجسادنا معبرين عن رفضنا لهذا الاعتداء.

وقال صوت آخر: لا بد من المواجهة، كفانا خنوعاً واستسلاماً. وإذا انسحبنا الآن فلن يتركنا عدونا؛ فهو لا يعرف منطقاً غير القوة. ونحن الآن في تجمُّع قد لا يتحقق ثانية.

وعلت الأصوات وتداخلت، وتباينت الآراء حول الاكتفاء بهذا الحد من المواجهة وبين المواجهة الكاملة، وتحقيق النصر للعيش في أمن وكرامة.

وحدث هرج لم يوقفه إلا نداء القائد يأمرهم بالتزام الهدوء، والكف عن الجدال.

صمت القائد، ودارت في رأسه الأفكار؛ فقد تحمس في البداية لحديث الثوريين الناجيين من المطاردة، واتخذ قراراً بالسير إلى حيث يكون الأسد، وها هم الآن وجهاً لوجه: فإما العودة بعد تسجيل الموقف، وإعلاء الصوت، وهز الأجساد، والنجاة من عواقب المواجهة. وإما المواجهة وخسائرها التي لا يعلم مداها، ولا يستطيع أن يقدر حجمها.

دارت عيناه لتشمل كل القطيع، وتساءل في نفسه: هل يستحق الموقف ارتفاع الصوت، وهز الأجساد؟ وإن سجلنا الموقف: ألن يعيد الأسد الكَرَّة؟

أجابه صوت من داخله: لا، بل سيعيد الكرة مرة ومرات. لا مجال اليوم لتسجيل موقف... اليوم يوم مواجهة وتسجيل انتصار... اتخِذ القرار ولا تخف... خلِّص هذا العجل من يد الأسر... رُدَّه إلى أمه... أنت اليوم بقطيعك أكثر... لا تلتفت إلى أصوات الجبناء... اهجم على الأسود، فالكثرة تغلب الشجاعة.

انتبه قائد القطيع إلى الصوت الآتي من أعماقه: سأله من أنت؟

أجابه: أنا، أنت.

صاح قائد القطيع مردداً: نعم! إنها المواجهة... إنها المواجهة.

لم يتردد قائد القطيع في بدء الهجوم على الأسد، وكانت المفاجأة أن فرَّت أنثى الأسد من الخوف، فطاردها عجل من القطيع، وما إن رأت الأشبال أمها تجري حتى لاذت بالفرار تاركة وراءها العجل الصغير الذي ازدادت مقاومته بعد أن سمع صوت قائده مردداً: إنها المواجهة. فنهض واقفاً على قدميه، نافضاً غبار الأسر عن جسده، رافعاً رأسه عالياً، متناسياً جراحه التي ما زال الدم يتدفق منها، ناظراً بعزة إلى قائده، وبفخر إلى قطيعه. وأخذت عيناه تذرفان الدموع عندما وقعت نظرته على عين أمه التي لم يتوقف دمعها، فانطلق كالسهم ليستقر في حضنها... وشعرا بلحظة دفء عادا بعدها إلى الصف، واقِفَيْن مع جنود القطيع على أهبة الاستعداد للمواجهة القادمة.

ولم يبق في ساح المعركة إلا الأسد الذي أخذ يرجع القهقرى كلما همَّ (قائد القطيع) بالهجوم عليه، حتى لاذ بالفرار يتبعه (قائد القطيع) إلى أن توارى عن نظره.

فعاد (قائد القطيع) وفرحة الانتصار تملأ وجهه، فاستقبلته صيحات النصر التي هزت المكان هزاً.

نحو جيل يقرأ ويكتب

د. العربي محمد الإدريسي(*)

تمهيد:

إذا كانت مسألة إعدادِ جيلٍ جديدٍ تُعدُّ أولوية في انشغالات المهتمين بالتربية والتكوين؛ وذلك لردم الهوَّة الموجودة بين أجيالنا الحالية والتطور الذي يعرفه العصر على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي؛ وذلك لإيجاد مخرَج للتأخر التاريخي، الذي تعاني منه مجتمعاتنا العربية والإسلامية (والمغرب جزء منها)، وإذا كان حقل التربية والتكوين والمدرسة كمؤسسة للتنشئة الاجتماعية هو المجال الذي يُطلَب أن تُعَدَّ فيه هذه الأجيال الجديدة: فإن الفعل التربوي التعليمي هو المستهدَف - أساساً - بعملية التجديد هذه، وأساساً فِعْلُ القراءة والكتابة.

فكيف نحصِّل من الجيل الجديد الذي نروم بناءه جيلاً قارئاً وكاتباً بامتياز؟ عن أي قراءة وكتابة نتحدث؟ ماذا يتطلب فِعْل القراءة؟ وماذا يتطلب فعل الكتابة؟ وهل تخدم مناهجنا الحالية هذا الفعل؟ كيف نجعل منها فضاءات معرفية للقراءة والكتابة؟ كيف نُكسِب تلامذتنا آليات القراءة والكتابة؟ كيف نحفزهم لينخرطوا بجدية في هذا الفعل؟

إن بناء جيلٍ يقرأ ويكتب يتطلب - لا محالة - توفيرَ شروط لممارسة القراءة والكتابة، وإيجاد الفضاءات التي تمكِّن من تحقيق ذلك؛ فالفضاء الملائم لهذه الممارسة الذي يمكِّن من التربية على القراءة والكتابة هو المكتبة بكل أصنافها، المكتبة العادية التي تضم الكتاب العاديَّ، والمكتبة متعددة الوسائط التي تفتح آفاقاً معرفية رحبة، والتي تتضمن ما أصبح يُصطَلَح عليه بالكتاب الإلكتروني القابل للتحميل والتخزين، إضافة إلى مربٍّ ومدرس متجدد ومجدد، منشغل بالقراءة والكتابة.

فخارج هذين الشرطين يصعب تعويد أطفالنا وشبابنا على القراءة والكتابة، ولا شك أن القراءة والكتابة تتطلب مهارات تقتضي جهداً لكي تكتسب وتصبح ممارسة اعتيادية مألوفة لدى من يمارسها.

(*) عضو هيئة التدريس في جامعة الملك سعود كلية التربية.

أولاً: دلالة القراءة:

تحدَّد القراءة على أنها – أساساً – مهارة لغوية أساسية في اكتساب وتعلُّم اللغة وجَمْع المعلومات واستيعابها، وأنها عمليات إدراكية تشتغل على رموز خطية قَصْدَ تحويلها إلى كلام يُسمَع ويُستوعَب من طرف المتلقي. إنها بوابة أساسية لفهم واستيعاب الخطاب الذي نتلقاه من الآخر؛ سواء كان شفهياً أو عبر وثائق مكتوبة أو مسموعة أو بصرية. إنها الفصل الذي يتيح أمام الذات إمكانية التفاعل مع الآخرين، ومع الأشياء، ومع العالم من أجل بلورة رؤىً فكريةً، أو استخلاص أفكار جديدة عبر نقد الأفكار القائمة.

وكيفما كانت نظرتنا إلى القراءة فإنها تتطلب قارئاً ومادة قرائية، وأهدافاً ومقاصدَ يتوجه إليها فعل القراءة. إننا نقرأ لنفهم، ولنعرف، ولنبلور مواقف... قد تحصل المتعة أثناء القراءة؛ خصوصاً حينما يصل القارئ إلى استيعاب حقائق أو امتلاك معارف أو استنباط خلاصات مما يقرأ، وتكون لهذه الخلاصات جدَّة. وسواء اعتبرنا القراءة فعلاً معرفياً بامتياز أو اعتبرناها مجالاً لتجزئة الوقت الفارغ وتحقيق المتعة ليس إلا، فإنها عنصر أساسي في العمل الثقافي والتربوي، فبدونها يصعب بناء معارفَ ونقلها إلى الآخرين.

ثانياً: الحاجة إلى القراءة:

كل من تمكَّن مِن لمِّ شتات الحروف ويستطيع التهجي فهو قادر – ولو في الحدود الدنيا – على القراءة كيفما كانت طبيعة وقيمة المادة القرائية، إنها تؤشر على إدراكنا لما تحمله الرموز المبثوثة في كل مكان من معانٍ وإشارات وتوجيهات سلوكية. نقرأ ما يُكتَب على جدران المحلات التجارية والمنشآت الصناعية وعلى اللافتات أو سبورات الإشهار أو الجرائد والمجلات والكتب أو شاشات التلفزيون، وندرك عبرها ما تحمله الكتب من تعدُّد في دلالات ومقاصد ما يكتَب، مع ما يترتب على ذلك من تعدُّد مقاصد القارئ وانتظاراته من القراءة، وكيفما كانت طبيعة القراءة ومستوى المقروء فإنها تُنتِج المعنى ويكون لها أثر في القارئ؛ سواء من حيث بناءُ الرأي أو اكتسابُ سلطة معنوية أو الاعتزازُ بالذات وتقديرها. إننا في حاجة إلى القراءة لكي نفهم ما يحيط بنا، ولكي ندرك دلالة ما يُتداوَل من رموز؛ سواء كانت لغوية أو اتخذت شكل صور وإشارات وعلامات مبثوثة في الشارع.

إن القراءة – بدون شك – مدخل أساسي لبناء المعنى ولترويجه، ومن ثَـمَّ فإن تعلُّمنا كيف نستقبل الخطاب الذي يرسَل إلينا من الآخر كيفما كانت طبيعة هذا الآخر والخطاب الذي يوجهه إلينا والهدف منه، وهو ما يمكننا من إدراك معناه واستيعابه، وهو فعل يتطلب التوفر على قدرات ومهارات، فالاستقبال يتطلب حصول مهارة الاستماع التي تعدُّ أول مهارة يكتسبها الطفل عندما يخرج إلى الوجود، وتتشكل فطرياً دون تدخُّل الأبوين، أو من يتكلف برعايته، فيتعود تلقائياً على الاستماع الذي يتيح أمامه إمكانية تلقِّي المعلومات وفك رموزها ليحصل التواصل مع الآخرين وليتمكن من القيام بالفعل الذي يقتضيه هذا التواصل، كما أن القراءة تمكننا من التواصل الذي تفرضه الضرورات الاجتماعية والحياتية عموماً، فحتى الأشخاص الذين يعانون من إعاقة سمعية، ومن إعاقة في النطق أبدعوا أبجدية للتخاطب والتواصل وهي أبجدية الإشارات التي يستعملها الصم والبكم.

وإذا كانت القراءة مهارة تُتَعلم في المؤسسة التربوية وَفْق طرقٍ وأساليبَ وخطواتٍ تتيح أمام القارئ التفاعلَ الإيجابيَّ مع المادة القرائية، فإنه كلما تم تملُّك هذه المهارة، تمكَّن القارئ من توسيع أفقه الفكري ومكتسباته المعرفية، ومن ثَمَّ فالحاجة إلى القراءة تستدعيها متطلبات الحياة – وخصوصاً الراهنة – التي لم تعد تقبل بأن يحيى الشخص الذي يعاني من الأمية وَفْق ما هو مطلوب. فالقراءة تمكِّن من امتلاك المعرفة ومواجهة الحياة والفعل فيها، وإذا كانت القراءة تقود إلى هذا المسعى فإنها تساعدنا كذلك على التحكم في سيرورة الوجود وَفْق طموحاتنا وأهدافنا؛ فالقراءة هي المفتاح لكل ما هو منغلق في هذا الوجود، وبدونها لم يكن من الممكن تحقيق التطور التقني الذي يعرفه عصرنا، كما أنه بدونها لا يستطيع الأفراد أو الجماعات إحداث التطور المطلوب في العلاقات الاجتماعية والسياسية وفي الذات.

ثالثاً: أهمية الاهتمام بالقراءة في المجتمع:

تعدُّ القراءة ضرورة في عصرنا الحالي فبدونها سنصبح خارجه، فضعف المقروئية يقود إلى تدهور المستوى المعرفي للإنسان، وعبره تدهور العلاقات الاجتماعية وانهيار الأخلاق، وما يترتب عن ذلك من سلوكات لا ضابط لها، وهو الشيء الذي يُضعِف قدرات الإنسان داخله، وشعوره بالدنيوية وضعف الأفق، مع ما ينجم عن ذلك من تبخيس للعمل والجهد، وتبلور اتجاه سلبي تجاه الذات، وعدم جدوى التعاون والتآزر.

إن تراجع معرفة الإنسان يترتب عليه ضعف الثقة في النفس، وكلما شـعر الناس داخل المجتمع بفراغ داخلي، وغياب للحوافز وألا جـدوى من بذل الجهـد، تراجع المجتمع برمتـه، وانغلقت أمامه سبل التقدم؛ فالصراع حالياً هو صراع حول تملُّك المعرفة والتحكـم فيها؛ فالذي يبني مهارات التعلـم والنقد عبر القراءة يهدف من وراء ذلك إلى اكتسـاب المعلومات التي تفيد في ارتياد فضاء التطور العلمي التقني، الذي بدونه لا يمكن حدوث التطور المطلوب داخل المجتمع.

إن شـعباً يقرأ ويكتب سـيكون - لا محالة - شعباً يتفهم، ويتحـاور وَفْق الضوابط العلمية للحوار، وسـيكون متسـامحاً، ومنتجاً فـي كل المجالات. صحيح أن القـراءة تتطلب مهارات، ومكتسبات معرفية سابقة، وأنه كلما تقدمنا في استيعاب المقروء وإدراكـه أصبحت القراءة أكثر جـدوى، وأكثر فاعلية. لكن هذه القراءة تختلف حسـب طبيعة المادة القرائيـة والأهداف منها، وانتظارات القارئ والمجتمع من القراءة؛ فالمجتمع الذي يسـعى إلى إعداد أجيال متشبعة بالمعرفة، وخصوصاً المعرفة التي تقود إلى تملُّك أدوات ومنهجيات التفكير العلمي الذي تتطلبه التقنية في كل الحقول (الخدماتية والمنتجة)، هي المعرفة المطلوبة حالياً.

المجتمـع يزخر بعدد كبير من المـواد القرائية التي تتيحها الكتب والمجـلات والجرائد وأدوات الثقافة الإلكترونية، ويكفي لتحقيق مبتغى القراءة أن تضطلع كل المؤسسـات بمسؤوليتها فـي تربية الناس على القـراءة، وتمهيرهم على التعامل مع كل مصادر المعرفة وآلياتها، والانتقال إلى إنتاج خطابات مسموعة ومكتوبـة وإلكترونية، تمكِّن من تحقيـق التراكم اللازم لتجاوز أسباب التخلف والتأخر الذي يعاني منه، وذلك عبر المؤسسات التربوية والثقافية وعلى رأسها المدرسة.

رابعاً: المدرسة وتطوير الاهتمام بالقراءة والكتابة:

تعدُّ المدرسـةُ المؤسسـةَ التربويةَ التي يعهد إليها المجتمع بالعملية التربوية وتكوين الطلاب، ويوجد في صلب اهتماماتها مسـألة تمكين المتعلم من مهارات القـراءة والكتابة؛ فالمناهج المتوفرة في المدرسـة تتيح تملُّك مهـارات، وذلك عبر دروس مخصصة لذلك تسـتهدف إقدار الطـلاب على التمرس على القراءة في كل أشـكالها (الصامتة أو الجهرية)؛ قصد تحقيق المرجوِّ منها، وهو المتمثل في اسـتيعاب المقـروء والقدرة على التصـرف فيه، وإيصال المعنى والتأثير فـي المتلقي وعبره في المجتمـع، وهذا لا يتم إلا بتخصيص حُصـص لتملُّك مهارات القراءة والكتابـة؛ وذلك بتنويع المقـروء وتمهيد الطلاب على الاسـتماع والتعبير. ويقر الباحثون أن هناك تقنيات تلائم كل فئة عمرية يمكن حصرها في ما يلي:

- بخصـوص القـارئ: يطلب منه أن يتمـرس على طريقة الوقوف أثناء القراءة.
- التخلص مـن الخجل، واعتدال الوقفة لتجنُّب التشـتت الذهني.
- التركيز على المخاطب بالنظر إلى عينيه.
- تجويد الصوت.

وتعلمنا دروس القـراءة العادية للنصوص: كيف تتدرج من المبنـى إلى المعنى، وكيف نوظف مكتسـباتنا المعرفية، من أجل فهم واسـتيعاب المقروء، وكيفية تلخيص النص وضبط قضيته الأساسـية، والقضايا التي يعرفها عبرها، وكيفية تقديم هذه القضية منهجياً، واستدلال النص عليها (حجاجة) كما يشترط في المادة المقروءة أن تتميز بالسـهولة واليسر، وبساطة تركيبها وأسـلوبها ليتمكن المتعلم من التمرس عبرها على القراءة، وأن تستجيب لميولات المتعلم لتمكِّن من تحفيز الطلاب على الإقبال على القراءة.

أكيد أن خَلْق أُلفَة بين القارئ والمقروء تشترط مادة قرائية تلبِّي حاجات القارئ وتحقِّق لديه الاستدامة في القراءة؛ وذلك بتقديم جزاء يتمثل في جائزة تقديرية لأحسن ملخَّص لما يقرأ، أو اصطحابهـم إلى المكتبات والمعارض، وإنشـاء مكتبة خاصة في البيت، وتحسيسهم بأن القراءة انشغال جوهري في حياتهم وليس هواية تمارَس أثناء أوقات الفراغ، وهناك من يلتجئ إلى العقاب بالقراءة. وإذا كانت القراءة تعدُّ مدخلاً أساسياً للتعلم، فإن الكتابة هي بُعدٌ آخر فيها؛ لأننا ننتقل بواسطة القراءة إلى تدويـن المقروء والتصرف فيه، بالتلخيص أو التعليق أو التحليل أو المناقشة أو إنتاج نص على غرار النص المقروء؛ سواء من حيث محاكاةُ أسـلوبه، أو بناءُ نص على شاكلته، وإذا كانت الوظيفة الأساسـية للمدرسـة هي توفير الشـروط التربوية اللازمة للقراءة، فـإن الكتابة تعدُّ ملازِمة لهـا، وتتطلب كذلك تمهيراً عبر حصص تُدرَج في الزمن المدرسـي تتعلق بالإنشاء والتعبير الكتابي والشـفهي، إن لم نقل بأن الكتابة مرتبطة بالأنشـطة اليومية داخل المدرسـة؛ فعلى التلميـذ أن يكتب الملخَّص، وأن يجيـب عن التمارين، وأن يأخذ النقاط أحياناً، ويدوِّن بشـكل مسترسل ما يتلقاه وما يقرؤه، فنحن نقرأ لنكتب ونكتب لنقرأ.

السخرة الفكرية

ثمرات الاحتلال الفكري

بين الغزو الفكري والاحتلال العسكري

رحـــــاب حســـان

لقد عانى أجدادنا كثيراً من الاحتلال العسكري الذي فشا في الدول الإسلامية، خاصة بعد انهيار الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، وقد مهَّد لهذا الاحتلال وهيَّأ له الغزو الفكري بوجهيه القبيحين المتمثلين في الاستشراق والتنصير؛ ذلك الغزو الذي اتخذ أشكالاً عدة ومنافذَ مختلفة للسيطرة على عقول المسلمين تمهيداً للاحتلال الأوروبي وانسجاماً معه.

تدافعت المحن على الأمة الإسلامية وأصبح كل قُطر يفكر في ذاته كيف يهرب من القصعة ويتجنب الأَكَلَة المحتلين بعد معاهدة سايكس بيكو؛ التي تم بمقتضاها تقسيم التَركَة العثمانية في ما بينهم؛ فسيطرت بريطانيا على مصر والأردن والعراق وفلسطين، واستأثرت إيطاليا بليبيا، وأخذت فرنسا سورية ولبنان وسيطرت على تونس والجزائر، ولم تنجُ بعض دول الخليج خلال القرنين الماضيين من إرساليات تبشيرية أثَّرت فيها إلى حدٍّ ما، كالبحرين والكويت وقطر والإمارات.

لم يبدُ حينها الاحتلال نزيها أو رحيماً في الدول التي وطأت فيها أقدامه ولم ترفع شعارات كثيرة عن الديمقراطيات كما هي عليها الآن، ولم لا والوضع في دولة الخلافة كان الأسوأ من نوعه حين أعلن كمال أتاتورك (يهودي الأصل) عن القومية الطورانية التي لا علاقة لها بالعالم الإسلامي، وألغى اللغة العربية واستبدلها بالحروف اللاتينية، وحوَّل المساجد إلى مسارح، وألغى كتاتيب حفظ القرآن... إلخ؟ فبادلته بريطانيا المغازلة واشتدت الوطأة على بعض الدول العربية خلال هذا العصر.

السخرة الجسدية:

ومما عاناه المسلمون استغلالُهم في ما يسمى بنظام السخرة؛ وهو استخدام العمال والفلاحين كعبيد للسيد المحتل في أعمال شاقة للتشييد والزراعة، تخدم أهدافهم في مقابل الأكل والشرب فحسب.

هذا التشييد في جميع أحواله لم يكن الهدف منه هدفاً سامياً؛ فقد أُجبر الآلاف - بل قيل: إنهم أكثر من مليونَي ونصف من أبناء مصر - تحت قهر السياط على أعمال لا تصلُح أن تقوم بها حتى الحيوانات - أعزكم الله - كما حدث في حفر قناة السويس وبعض أعمال المزارعة.

وحينما خرج المحتل خلَّف وراءه مفسدين يعيثون في الأرض فساداً، بداية من إفساد حركة التعليم وعَلمَنَتها وزرع مدارس تنصيرية، مروراً بشبهات التحرُّرية وإهدار كرامة اللغة الفصحى، وانتهاء بإلغاء المحاكم الشرعية وإحلال المحاكم الوضعية محلَّها. نتج عن هذه التغيرات جيلاً جديداً يركن بعضُه للباطل ويترعرع على عشبه الضار. ولا ننكر ولا نستصغر دور الإسلاميين والمؤسسات الإسلامية في إعادة تدعيم ثوابت الأمة مرة أخرى في القرن العشرين؛ إلا أن دورهم في هذه المرحلة كان يوصف بسمات متباينة: من عدم وحدة الصف، واختلاف الرؤى بين التيارات الإسلامية، والإقصاء المتعمَّد من الحكام العرب، وغيرها من المصاعب التي واجهها الإسلاميون بشكل عام.

السخرة الفكرية:

لكنَّ الأمر لم يسلم؛ فتحت سياط الإهدار الفكري والانحطاط الخُلُقي ونشر الفكر العَلماني المتطرف فإن بعضاً من أبناء عالمنا الإسلامي – وللأسف الشديد – كان قد استعذبهم مبدأ السخرة واستهوتهم سادية الأوروبي، وجرت في عروقهم مجرى الدم فشعروا بأنهم لا بد أن يكونوا دوماً تحت رحمة الأوروبي طوعاً أو كرهاً، واعتقدوا أن البعد عن منهجه يعني الفشل والدمار والتأخُّر والضياع.

والسخرة الفكرية هي على الطريقة العصرية الأنيقة؛ فهي تحاكي دعايات الحرية والإخاء والمساواة، إنها أقل حدَّة وأشدُّ وطأة، وتتمثل في استغلال فكر بعض من المولَعين بالحضارة الأوروبية وادخار قدراتهم لخدمة أهداف أجنبية لتشييد وبناء مطامع الغرب في بلاد العرب.

هؤلاء المسخَّرون تتضح ملامحهم من خلال سمات مشتركة في ما بينهم تدل دلالة واضحة على ما نزعمه.

وهذه السمات باتت تفضحهم وتجعلهم في قائمة التاريخ السوداء؛ فلقد حمل هؤلاء أدواتهم التي أصبحت علامة لهم، وباتت مميَّزة تميُّز الفأس على كتف العامل المسخَّر وهو يحفر ليمهد ويشيد ليس له ولا لأبنائه بل للسيد المحتل الأصفر.

إنها أدوات مكررة أكل عليها الدهر وشرب وفاح ريحها الكريه.

السمات المشتركة لعمال السخرة الفكرية:

من هذه السمات المشتركة في ما بينهم:

١ ترديد دعاوى المفكرين المتأثرين بالفكر الاستشراقي: التي عفا عليها الزمان وامتلأت المكتبات ردوداً عليها، وقد سبقهم إليها أسلافهم، ومنهم من تاب ومنهم من ردَّ عليه العلماء ردوداً مفحمة، ولا يزال هؤلاء المسخَّرون يفتحون الكتب الصفراء نفسها لينقلوا ما فيها وكأنهم يتحدثون إلى أحجار لا تعي؛ فلا تزال مزاعم طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، ومزاعم علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم)، وسلامة موسى في كتابه (ما هي النهضة؟) وقاسم أمين في كتابه (المرأة الجديدة)... وغيرهم، لا تزال تتكرر وكأننا نعود لنقطة الصفر مرة أخرى لنقول: إن الإسلام عقيدة لا شريعة وندعو بدعاوى القرن التاسع عشر من التحرُّرية المزيفة! ولا أدري هل يريدوننا أن نعيد كرة الذل والعار مرة أخرى؟ ألم يكتفِ العالم الإسلامي من ويلات تلك الشعارات البائدة؟ ألم يتنبه شباب الأمة إلى أن التغيير الذي يحمله هؤلاء هو تغيير فقط في المسميات لا في الأفكار والرؤى؟

٢ الربط بين التقدمية والحرية وبين التخلي عن الإسلام: من خلال عقد مقارنات زائفة بين الحضارة الأوروبية المتقدمة وتحرُّرها من الكنيسة، وبين تخلُّف المسلمين والتزامهم بدينهم، مقتبسين قضايا وحججاً عانى منها الغرب النصراني من تسلط الكنيسة ومن ثَمَّ إسقاطها قسراً على الإسلام للتلبيس على عامة المسلمين، ومن المعروف البون الشاسع بين فكرتَي الدولة الدينية الثيوقراطية والخلافة الإسلامية.

٣ رفع الشعار الأتاتوركي مرة أخرى بعد أن ظهر زيفه وحقارته؛ وهو أن الخلافة الإسلامية هي احتلال عربي أو تركي، وأنها بأفكارها القديمة باتت كالرجل المريض الذي لا يُرجى برؤه، وتهييج الحس القومي والمؤثرات العرقية في كل قطر

٤ تكرار بعض القضايا القديمة التي قُتلَت بحثاً وردّاً، وأثبتتْ في تطبيقها على المسلمين فشلها المحض، بل واعترف الغرب الحديث بأهمية العودة لمبادئ الإسلام في مثل: قضايا تحرير المرأة، وسياحة العري، وقضية الاقتصاد الربوي البديل عن الاقتصاد الإسلامي، والقضايا المتعلقة بالجنس والترهيب من تطبيق الحدود.

٥ إثارة الشبهات بالطعن في الثوابت ونشر ثقافة التعددية في الإسلام: بمعنى أن الاسلام ليس فقط الإسلام السني؛ بل هناك فكر معتزلي عقلاني قويم (المدرسة العقلانية الحديثة)، وآخر صوفي متبتل، وثالث شيعي معتدل! واللعب على أوتار التزوير في القصص التاريخية بنقل روايات متهافتة تستند إلى الوضع والتدليس، للطعن في الصحابة وفي أعلام أهل السنة بطريقة لا تمتُّ لمنهج علمي صحيح بصلة.

٦ إلقاء شبهات مكررة ضد التيارات الإسلامية: وكأننا نرجع القهقرى ثلاثين عاماً أو يزيد، لنتهم التيارات الإسلامية بالاستغلاق والإرهاب وانعدام الوعي والصلف والجمود، والتعامل مع القضايا الحياتية والمعاملات الاجتماعية بالقسوة والتعصب، ونحن لا نطالب بأكثر من التعامل مع الجميع بحيادية دون الحكم المسبق والمعقود على الآخرين.

٧ محاولة تبنِّي الفكر العقلاني المستعلي على النقل والغيبيات، وتحكيم العقل محل الشرع، ووضع ذلك وكأنه الخيار الأول والأخير في تحكيمهم للقضايا الشرعية والعقدية وتغليف الحوار بمقولة الرأي والرأي الآخر، رغم أنه لا يوجد في معظم أطروحاتهم إلا رأي آخر.

٨ ظهور بعضٍ من هؤلاء الملحوظ في الإعلام بمجالاته المختلفة، وارتفاع صوتهم بلا مبرر، ومنحهم دورات ابتعاثية في بعض الدول الأوروبية، وتدعيم آرائهم الشاذة من قِبَل جهات معروف تاريخها في التعاون مع الغرب رغم عدم تميُّز هؤلاء العلمي، ولا قدراتهم السياسية في بعض الأحيان، وهو ما يجعلنا نفسر الأمر ونربطه بأسبابه الحقيقية، والعجب يبلغ أشده حين تجد منهم من خَفَتَ ذكره ورسمه، وما إن يحارب دين الله إلا وتنافح عنه المنظمات الحقوقية العالمية، بل قد يصل الأمر لوزراء بعض الدول الغربية أن يدافعوا عنه بالظُّفُر والناب!

هذا غيض من فيض:

إن ما يحدث الآن - خاصة في البلاد التي بدأت فيها الثورات المعاصرة أو الربيع العربي - لا يمكن بحال وصفه بأنه حالة من (الغزو الفكري) كما حدث سابقاً في احتلال القرن الماضي؛ فلقد ساعدت هذه الثورات على تمييز الصفوف واتضاح الرؤى المتباينة، ولكننا يمكننا القول بأنها مرحلة متقدمة عن هذا المصطلح؛ حيث تم انتقاء العيِّنات المناسبة من تجربة الغزو الفكري وتصفيتها لاستخدامها في (السخرة الفكرية).

فلم تَعُدْ كما بالسابق مجرد منشورات ومقالات وكتب تكتب على استحياء من المتأثرين بالفكر الغربي، يصادَر بعضها وتمنَع من النشر ويُرَدُّ على بعضها ويتراجع الآخرون عن بعض أقوالهم، بل أصبحت مناهجَ مدروسة تمالأ عليها مفكرو السخرة، وعمال الشاشات الإعلامية، وبعض ممن يسمَّون بالنشطاء الإنسانيين في الملتقيات الثقافية والصحف وشبكة التواصل الاجتماعي.

وثمة كثير من الأدلة المصورة التي تبرهن صدق حديثنا وتوضح كيف يتواطأ هؤلاء على رواية الخبر وتحليل الحدث في أوقات متزامنة تجعلنا نضع حولهم كثيراً من علامات الاستفهام.

ويحدونا الأمل:

إن الأمل في الله كبير؛ فخذلانهم بات سهلاً على المجتمعات الإسلامية، ولقد أثبتت لنا الشعوب الإسلامية في الآونة الأخيرة أن الخبرة المجتمعية والعقل الجماعي للشعوب الإسلامية اكتسب خبرة عريضة خلال تجربة القرن السابق، ولم يعد مخدوعاً كسابق عهده؛ رغم اشتداد وطأة هؤلاء المسخَّرين وتحسُّن نتاجهم وأدائهم عن السابق، وتمكُّنهم من أدوات عصرية حديثة ليست في أيدي غيرهم.

ومهما يكن من مخاوف وتوجُّسات من التفاف حول الثورات المعاصرة، فلن يضر كثيراً العقلَ المسلمَ في القرن الـ ٢١ بإذن الله، وهو الذي ظهر حجمه الطبيعي للمرة الأولى بعد مضي قرن من التعتيم والتكتم والإقصاء المتعمَّد، لقد كانت تجربة الغزو الفكري مريرة بحق ولا نزال نعاني منها، وأضحت السُّخرة الفكرية أشد مرارة لكنها أيضاً أشد تمايزاً عن الحقيقية والحق.

وكما يقال: إن الضربة التي لا تقصم الظهر تقوِّيه، ونحن على يقين أن ما لا يأتي بالحوار سيفلُّه في يوم ما الحديد والنار؛ وذلك إذا انكشف الوجه القبيح للاحتلال الحديث مرة أخرى وفكَّر في إعادة كرة الاستعمار العسكري، نسأل الله العفو والعافية والمعافاة.

كلمات في المصطلحات

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)
www.alabdulltif.net

الألفاظ الشرعية والمصطلحات الدينية فيها الشفاء والغَناء والحرمة والتعظيم ما ليس في غيرها، كما أنَّ فيها من الحِكَم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه(١).

والانفتاح على الثقافات الأخرى، وعلوم الأمم المختلفة جَلَب كمًّا هائلاً من المصطلحات الحادِثة، والألفاظ المستجدة، التي لا تنفك عن إجمال واشتباه، وتلبيس وأغاليط؛ ولا سيما أن نفوساً تعتريها السآمة من الألفاظ الشرعية الراتبة! ويسارقها طبع الميل إلى المستجد والحديث.

ولزوم الشرع المنزَّل يحقق صلاحاً للعقل، وزكاءً للفكر، وسعة في الأفق و «إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها، وإذا ضاقت العقول والتصورات بقي صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان»(٢).

والسلف الصالح لم ينكروا هذه الألفاظ المستجدة لأجل حدوث ألفاظها، وحدَّة تعبيراتها؛ وإنما لأجل اشتمالها على باطل وضلال.

بل إن الألفاظ والمصطلحات الشرعية يلحقها التحريف وسوء الفهم لأجل ظروف وملابسات البيئة التي تظهر فيها تلك المصطلحات؛ فقد ينشأ الشخص وهو لا يعرف من مصطلح «التوسل» – مثلاً – إلا التوسل إلى الله بالجاه والذات، فيتوهم أن هذا معنى التوسل في نصوص الوحيين، وليس الأمر كذلك(٣)؛ وإنما التوسل المشروع هو التوسل إلى الله بالإيمان والعمل الصالح.

وإذا كان اللَّبس واقعاً في الألفاظ الشرعية فكيف بألفاظ ومصطلحات أجنبية النشأة والولادة؟

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.
(١) انظر: النبوات لابن تيمية: ٢/ ٨٧٦.
(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ١٦٦.
(٣) انظر: قاعدة جليلة في التوسل ص ١٥٢، وبيان تلبيس الجهمية: ٧/ ٣٩٩.

فالألفاظ المتداوَلة – كالإنسانية والمجتمع المدني والحريات وغيرها – لا تنفك عن ملابسات فكرية وعقدية؛ فلا يمكن تصوُّر هذه المصطلحات بعلم وعدل إلا باستصحاب هذه النشأة وتلك الملابسات.

والمحققون في مذهب السلف – كابن تيمية وابن القيم ونحوهما – يذكرون الألفاظ المجملة في الاعتقاد كالجوهر والجهة عند المتكلمة، والألفاظ المجملة في السلوك كالفناء وأحوال القلوب عند المتصوِّفة، ويقررون أن الكلام فيها دون الاستفصال يوقع في الجهل والضلال، والقيل والقال، وأن أكثر الاختلاف باعثُه الإجمال والاشتراك في الألفاظ والمصطلحات[1].

يقول ابن القيم: «أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل، فيطلقها من يريد حقها فينكرها من يريد باطلها، فيردُّ عليه من يرد حقها. وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب، وخلَّصه من ورطات تورَّط فيها أكثر الطوائف»[2].

والحاصل أنه لا بد مع تلك المصطلحات من التبيين والتفصيل، فلا نقبلها بإطلاق، كما لا نردُّها بإطلاق؛ إذ قد نقبل باطلاً أو نردُّ حقاً. بل نجعل الألفاظ الشرعية والمصطلحات الدينية هي الأصل والميزان لتلك المصطلحات المحدَثَة المجمَلَة؛ فإن كان المراد بهذه المصطلحات صواباً موافِقاً لنصوص الوحيين قُبِل. وإن كان مراده باطلاً رُدَّ.

لكن قد يحتاج إلى تلك الألفاظ المجملة في مخاطبة بعض الناس؛ كالشخص الذي لا يعقل إلا هذه الألفاظ، فإنه يُخاطب بها عند اللزوم والحاجة، كما حرره أبو العباس ابن تيمية[3].

والمقصود أن لزوم العبارات الشرعية والاعتزاز بها يتسق مع الموقف من الألفاظ الحادثة والمصطلحات المجملة؛ فلا انفلات ولا جمود، ولا ذوبات ولا انقباض.

ومما يحسُن التنبيه عليه أن جملة من المصطلحات الحادثة المجمَلة إنما هي مجرد ألفاظ وتعبيرات، فلا ينبني عليها حقائق علمية أو عقلية «والاصطلاحات اللفظية ليست دليلاً على نفي الحقائق العقلية»[4].

«والمعاني العقلية لا يعتبر فيها مجرد الاصطلاحات»[5].

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية: ٢/٢١٧.
(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٢٨٩، وانظر: نقض التأسيس لابن تيمية: ٢/١٤.
(٣) انظر: منهاج السنة النبوية: ٢/٥٥٤.
(٤) التدمرية لابن تيمية ص١٣٠.
(٥) الدرء: ٢/٢٢٢.

وهذا واقع قديماً وحديثاً؛ فالفلاسفة المشاؤون – مثلاً – أحدثوا اصطلاحات وفروقاً فلسفية لكنها لا تغير من الحقائق شيئاً، ولا دليل عليها.

وإذا كنا في عصر الانفتاح وثورة المصطلحات الوافدة، وركام التعبيرات والألفاظ، فلا بد من إشارة إلى ما في جملة هذه الألفاظ من زخرف وتزويق، وبهرجة وتنميق، قد يستهوي ضعاف العلم والتحقيق[6].

قال – تعالى –: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

خاصة إذا كانت هذه الألفاظ المستجدة هي ثقافة سائدة ومكرورة بكرةً وعشياً، إضافة إلى زخم الإعلام بتلك المصطلحات، وتهويل المجتمع واحتفائه بها، فربما أن بعضهم لا يسوِّغ هذه المصطلحات الموهمة المشتبهة، لكن تبقى حظوظ النفس لها أثرها وتأثيرها؛ فقد ينساق في استعمال هذه الألفاظ بعُجرها وبُجرها، لئلا يُتهَم بالتخلُّف والقصور!

وهذه الآفة الحاضرة قد كشفها ابن تيمية وحررها بأسلوب متين يجمع بين التأصيل الشرعي والدراية بأهواء النفوس وكمائنها، فقال – رحمه الله –: «عمدوا [أي الفلاسفة] إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة، وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم، ثم ركَّبوها، وعظَّموا قولهم، وهوَّلوه في نفوس من لم يفهمه، ولا ريب أن فيه دقة وغموضاً لما فيه من الألفاظ المشتركة والمعاني المشتبهة، فإذا دخل معهم الطالب وخاطبونه بما تنفر عنه فطرته، فأخذ يعترض عليهم، قالوا له: أنت لا تفهم هذا، وهذا لا يصلح لك، فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحميَّة يحملها على أن تسلِّم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل»[7].

وأخيراً فإن الألفاظ الشرعية لها حرمة وتعظيم، ومن تمام ذلك أن نتعرَّف على معانيها وحدودها؛ فمن أشرف العلوم علم الحدود المشروعة (المأمورات والمنهيات)، ومعرفة ذلك دراية، والقيام بها رعاية[8].

والله الموفق لا إله غيره.

(٦) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم: ٢/٤٣٦.
(٧) الدرء: ١/٢٩٥.
(٨) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢/١١٣، ١/٢٥، ومدارج السالكين لابن القيم: ١/١٤٠، والفوائد ص ١٣٣.

جوال

الكبير

للإشتراك
ارسل رسالة فارغة

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

zain ٧٠٤٠٤٧

رسائلنا تحكي أهدافنا

دار رسالة البيان

وبالتعاون مع

مؤسسة الجديد النافع

يا من بقيت بعدي

تأليف : توفيق الرفاعي

خير عزاء لمن أصيب بفقد حبيب..
مع أفضل صيغ الدعاء للمتوفى

سنن مهجورة

تأليف : مطلق الجاسر

كن مساهماً في إحياء سنن منسية مهجورة..
فالدّال على الخير كفاعلة

القرآن الصاحب الوفي

تأليف : مؤيد عبد الفتاح حمدان

قصة أحداثها لا تنتهي في الدنيا وإنما تمتد للآخرة..
جامع فضائل سور القرآن مرتبة صحيحة

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

هاتف : 4546868 - تحويلة : 502/500 - جوال : 0506461065

المنطقة الغربية : 0506461057 - المنطقة الجنوبية : 0506461058

القصيم : 0502220616 – الشرقية : 0506292689 - مكة : 0507266120

40 كتيب

100 ريال

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

هدية لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر ربيع الأول 1433هـ

مجاناً على المتجر

www.albayan.co.uk